



الأمير بيبرس المنصوري

نائب السلطنة في الكرك ومصر ودورة في التأريخ لدولة المماليك البحرية

وائل عبد الحق الضمور

دراسات

2 0 0 9


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأمير بيبرس المنصوري نائب السلطنة في الكرك ومصر ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية

الأمير بيبرس المنصوري

نائب السلطنة في الكرك ومصر ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية

وائل عبدالحق عبدالله الضمور

٢٠٠٩م

إصدارات:

الكرك مدينة الثقافة الأردنية
2009

• الأمير بيبرس المنصوري
نائب السلطنة في الكرك ومصر

• دراسة

• وائل عبدالحق الضمور

• الناشر: وزارة الثقافة

عمان - الأردن

شارع وصفي التل

خلف جبري المركزي

ص. ب ٦١٤٠ - عمان

تلفون: ٥٦٩٦٢١٨/٥٦٩٩٠٥٤

فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email: info@culture.gov.jo

• الطباعة: مطبعة السفير هاتف ٤٦٥٧٠١٥

• رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٤٣٤٨ / ١٠ / ٢٠٠٩)

الإهـداء

إلى والدي أطال الله عمره،

إلى والدتي التي وقفت حياتها على تربيتي،

وإلى إخوتي وأخواتي،

وإلى خالي العزيز غسان،

وإلى حبيبيَّ عروة ونانسي،

وإلى صديقي محمد السبوع.

أهدي هذا العمل المتواضع



فهرس المحتويات



المقدمة

شهدت مصر وبلاد الشام خلال القرنين السابع والثامن الهجريين بروز نخبة من أعلام الفكر التاريخي الذين أسهموا في مجال الكتابة التاريخية. وقد أولى الدارسون المحدثون بعض هؤلاء ومؤلفاتهم بدراسات وبحوث قيمة، في حين أن البعض الآخر لم يولوه اهتماماً، ولعل من أبرز هؤلاء بيبرس المنصوري.

من هذا المنطلق يأتي الاهتمام بدراسة بيبرس المنصوري بهدف الكشف عن حياته ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية. أضف إلى ذلك عدم وجود دراسة مختصة عنه وعن دوره في التأريخ لهذه الدولة، لذا فقد انصبت هذه الدراسة على التعريف به والكشف عن جوانب حياته، وجمع مادته التاريخية، ودراستها دراسة نقدية تحليلية، تحت عنوان " الأمير بيبرس المنصوري نائب السلطنة في الكرك ومصر ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية" ليتبّين للقارئ أسلوبه ومنهجه في الكتابة والمادة التاريخية التي قدمها عن دولة المماليك البحرية.

اعتمدت هذه الدراسة أساساً لها، ما وصل من مادة بيبرس المنصوري التاريخية والمتمثلة بمؤلفاته التالية: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، والتحفة الملوكية في الدولة التركية، ومختار الأخبار (الجزء الخاص بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م).

تضمنت الدراسة مقدمة وأربعة فصول: تعرض الفصل الأول للحديث عن عصر بيبرس المنصوري، وشخصيته من خلال الحديث عن حياته التي تضمنت: اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، ودوره السياسي والإداري خلال العصر المملوكي الأول، ثم ثقافته ومؤلفاته، ومكانته في الدولة المملوكية، ومذهبه، ووفاته. أما الفصل الثاني، فقد تناول مادة بيبرس المنصوري التاريخية من حيث أسلوبه في كتابتها، ومنهجه في جمعها،

والمصادر التي اعتمد عليها في تدوينه لها، وأثره في الدراسات التاريخية المعاصرة له والتالية. أما الفصل الثالث، فقد خصص لدراسة مادته عن السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية لا سيما سياسة الدولة تجاه المغول الإيلخانيين والفرنج والأرمن ومغول القبيلة الذهبية وبيزنطه وبقايا البيت الأيوبي، والخلافة العباسية قبل سقوطها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وتناول الفصل الرابع الحديث عن السياسة الداخلية لدولة المماليك البحرية كما أرَّخ لها بيبرس المنصوري، واحتوى على عدة نقاط الإنقلاب على السلاطين وسياسة الدولة المملوكية تجاه القبائل العربية في الشام ومصر، فضلاً عن سياستها تجاه الخلافة العباسية بعد إحيائها عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م .

وقد أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلت إليه، ثم أرفقت بها قائمة بالمصادر والمراجع.

وفي الختام، من حق أهل الفضل عليّ أن أشكرهم، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، وأخص بذلك أستاذي الفاضل العالم الأستاذ الدكتور أحمد عبدالله الحسُّو، لما أبداه من توجيهات وإرشادات قيِّمة كانت باعثاً قوياً في إقبالي على البحث، ودراسة هذا الموضوع.

المؤلف

وائل عبدالحق عبدالله الضمور

مرود-الكرك

الفصل الأول

حياة بيبرس المنصوري الدوادار ونشأته

أولاً: عصر بيبرس المنصوري

عاش بيبرس المنصوري في القرنين السابع والثامن الهجريين في الفترة الممتدة ما بين سنتي (٦٤٥-٧٢٥هـ/١٢٤٧-١٣٢٦م)، وبذلك يكون قد عاصر أواخر الحكم الأيوبي، والعقود الستة الأولى لحكم دولة المماليك البحرية.

وإن ما يميز تلك الفترة ازدحامها بالأحداث السياسية المهمة التي كان لها أثرها في مصر وبلاد الشام.

ومن أبرز تلك الأحداث:

١. الصراع الأيوبي المملوكي على السلطة.

كانت بلاد الشام وأطرافها بين سنتي (٦٤٥-٦٥٧هـ/١٢٤٧-١٢٥٨م) تتقاسمها ثلاث قوى سياسية، هي قوة الصليبين التي كانت تتمثل بالإمارات الصليبية التي تمتد على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، وقوة الأرمن المسيحيين، وبقايا البيت الأيوبي الذين كانوا يتقاسمون معظم أجزاء بلاد الشام فيما بينهم، ويسود النزاع والانقسام بينهم، بالإضافة إلى محاولة كل طرف منهم الاستيلاء على أملاك الطرف الآخر[١]، كما فعل الملك الناصر يوسف صاحب حلب سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م عندما سيطر على حمص وأخذها من صاحبها الملك الأشرف موسى وعوضه عنها بتل باشر[٢].

---

(١) فؤاد عبدالمعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية،(د.ط)، بيروت١٩٨٠م، ج١، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢) إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م). البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي. (د.ط)، بيروت١٩٩٣م، ج١٣، ص٢٠٤؛ حمزه بن أحمد بن عمر بن سباط(ت٩٢٦هـ/١٥١٩م)، صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، عنى به وحققه عمر عبدالسلام تدمري، دار جروس برس، ط١، طرابلس (لبنان)١٩٩٣م، ج١، ص٣٤٢.

أما مصر، فقد نشأت فيها دولة فتية، هي دولة المماليك البحرية عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إثر انتقال الحكم من الأيوبيين بعد مقتل السلطان تورانشاه إلى شجر الدر التي تنازلت عنه للأمير المملوكي عز الدين أيبك التركماني[١].

لم يعترف الأيوبيون في بلاد الشام بسلطة دولة المماليك الجديدة في مصر، وبخاصة كبير بيتهم الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب ودمشق الذي أخذ على عاتقه إسقاط الدولة المملوكية الجديدة وإعادة مصر للحكم الأيوبي[٢]. وقد تزامن ذلك مع الاجتياح المغولي للبلاد الإسلامية.

عمد السلطان المعز أيبك التركماني مع بعض أمرائه، إثر علمهم بخطة الملك الناصر، إلى إقامة سلطان أيوبي يشاركه في الحكم، وهو "الملك الكامل مظفر الدين موسى ابن الملك المسعود"، وقد لجأوا إلى ذلك للحفاظ على دولتهم الوليدة من أي تهديد يمكن أن يقوم به الملك الناصر نحوهم في مصر[٣].

لم يثن ما فعله السلطان المعز أيبك، الملك الناصر عن غزو مصر، فقد قام الأخير عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بمحاولة التحالف مع الملك الفرنسي لويس التاسع المقيم في عكا لاستعادة مصر، وقد عرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس[٤].

رفض الملك لويس التاسع عرض الملك الناصر، وفضل أن يقف على الحياد في هذا

---

(١) أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشه بن أيوب (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه محمود أيوب، ط١، بيروت١٩٩٧م، ج٢، ص٢٨٧-٢٩٠؛ السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت(د.ت)، ص٤٥-٤٦.

(٢) بيبرس المنصوري الدوادار(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.ت)، (د.م)، ص٢٧.

(٣) المنصوري، التحفة، ص٢٨؛ العريني، المماليك، ص٤٦.

(٤) أحمد بن علي المقريزي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة١٩٧٠م، ق٢، ج١، ص٣٧٢؛ عصام محمد شبارو، السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت١٩٩٤م، ص١١.

الصراع بعد أن هدده السلطان المعز أيبك بقتل أسرى الصليبين المقيمين في مصر[1].

لما يئس الملك الناصر من مساعدة الملك لويس التاسع قام بحشد قواته والالتقاء مع القوات المملوكية قرب بلدة العباسة بين مدينتي بلبيس والصالحية، حيث كان النصر فيها في البداية، للملك الناصر، ولكن انضمام جماعة من جيشه إلى السلطان المعز أيبك رجح كفة الأخير، فانهزم الملك الناصر وقواته الشامية[2].

وفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م اتفق السلطان المعز أيبك مع الملك لويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الأيوبيين من الشام، ووضعا خطة لذلك تقضي باستيلاء لويس التاسع على يافا، بينما يستولي السلطان المعز أيبك على غزة، ثم يلتقي الطرفان ليتما الزحف على بقية الأمارات الأيوبية[3].

لما علم الملك الناصر بمخطط الطرفين أخذ يعد العدة مرة ثانية لغزو مصر كرد عليهما، وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب على وشك الوقوع بين الطرفين، وصل رسول الخليفة العباسي المستعصم بالله؛ الشيخ نجم الدين البادرائي إلى الشام، حيث تمكن من عقد الصلح بين الطرفين[4] على أن يكون للملك الناصر الشام، وتبقى مصر بيد السلطان المعز أيبك[5]. وقد كان الخليفة العباسي يهدف من ذلك الصلح إلى توحيد الجهود الإسلامية لمواجهة الخطر المغولي الذي بدأ يهدد العالم الإسلامي[6].

وفي عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م جدد الملك الناصر صراعه مع السلطان المعز أيبك، ذلك

---

(١) المقريزي، السلوك، ق٢، ج١، ص٣٧٤؛ أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت١٩٦٩م، ص١٢٦.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٩١؛ زين الدين عمر بن الوردي(ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، منشورات المطبعة الحيدرية، (د.ط)، النجف١٩٦٩م، ج٢، ص٢٦٦.

(٣) المقريزي، السلوك، ق٢، ج١، ص٣٨٥؛ العبادي، قيام، ص١٢٧.

(٤) بيبرس المنصوري الدوادار(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س ريتشارد، مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، ط١، بيروت١٩٩٨م، ص٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٩٣؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٧١.

(٦) العبادي، قيام، ص١٢٨؛ شبارو، السلاطين، ص١٢.

أنه توجه بقواته إلى مصر لانتزاعها من المماليك، ولكن لم يكتب لحملته أن تستمر، بسبب تدخل رسول الخليفة العباسي المشار إليه آنفاً، الذي نجح في تقرير الصلح بين الطرفين للمرة الثانية[١].

وقد اتفق بموجب هذا الصلح على أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى العريش، وتبقى مصر بيد السلطان المعز[٢].

تبنى الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب إمارة الكرك استكمال الخطة التي ابتدأها الملك الناصر وهي استعادة مصر إلى حوزة الأيوبيين وإزاحة المماليك عنها، ففي عام٦٥٥هـ/١٢٥٧م قام بإرسال حملة عسكرية تجاهها، كانت بمعاونة المماليك البحرية المناوئين للدولة المملوكية في مصر، وقد كان مصير هذه الحملة الفشل بسبب تصدي الدولة المملوكية بأمر من الأتابك سيف الدين قطز، لها عند الصالحية في الشام[٣].

وفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م قاد الملك المغيث صاحب الكرك بتحريض من المماليك البحرية المناهضين للدولة المملوكية حملة أخرى نحو مصر[٤]، حيث التقى بالقوات المملوكية المصرية قرب الصالحية، وكانت النتيجة هزيمته وتراجعه إلى الكرك[٥].

يلاحظ مما تقدم أن مصر وبلاد الشام في عصر بيبرس المنصوري كانت تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩.
(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٩٨.
(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٣.

٢. الاجتياح المغولي للعراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام.

وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام ومصر تعاني من عدم الاستقرار السياسي، كانت القوات المغولية قد تغلغلت في بلاد فارس والعراق، حيث قامت بقيادة هولاكو بإسقاط الخلافة العباسية في بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[١].

أدى سقوط الخلافة العباسية في العراق إلى إيقاع الرعب في نفوس العديد من زعماء العالم الإسلامي الذين سارعوا إلى تقديم فروض الطاعة لهولاكو، ومن هؤلاء الزعماء الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي سار إلى هولاكو بالهدايا النفيسة، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن الذي حداه إلى ذلك "الشفقة على رعيته والخوف على أهل مملكته أن يستأصلهم التتار ويحل بهم ما حل بأهل بغداد من البوار"[٢]. ويبدو أن بيبرس المنصوري كان خلال هذه الفترة في الموصل استناداً إلى ما ذكره أنه قدم إلى مصر عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م من الموصل[٣].

كما اقتدى بفعل صاحب الموصل كل من الملك الناصر يوسف صاحب الشام الذي أرسل ولده إلى هولاكو بالهدايا الكثيرة والتحف النفيسة[٤]. وسلاطين سلاجقة الروم لا سيما عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان[٥].

اتخذ هولاكو من العراق الذي أحكم سيطرته عليه منطلقاً لاستكمال خطته العسكرية التي كان مكلفاً بتنفيذها من قبل أخيه الإيلخان منكو قاآن، وأقصد بذلك السيطرة

---

(١) موسى بن محمد اليونيني(ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان، صحح بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد١٩٦١م، ج١، ص٨٥؛ عباس إقبال، تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبدالوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي٢٠٠٠م، ص٢٠٠-٢٠٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٧١.

(٤) مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربية، (د.ط)، بغداد١٩٣٣م، ص٣٣٩.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٧؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٨٧.

على الشام ومصر[١]، فقد تمكن بالفعل من احتلال ميافارقين وقتل صاحبها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر غازي الأيوبي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م[٢]. كما احتل بقية مدن الجزيرة الفراتية؛ ماردين ونصيبين وحران والرها وسروج والبيرة ومنبج[٣].

بعد ذلك احتل هولاكو مدينة حلب وبذل السيف في أهلها بعد أن تركها صاحبها الملك الناصر يوسف عام٦٥٧هـ/١٢٥٨م تلاقي مصيرها أمام الغزاة المغول[٤]، ثم احتل هولاكو حماة[٥]، ومن ثمَّ توجهت القوات المغولية إلى دمشق؛ أهم المدن الشامية فاستولت عليها، دون أن تجد أية مقاومة من صاحبها الملك الناصر يوسف، فقد تخاذل وترك المدينة وأهلها إلى مصيرهم المحتوم[٦]، وهرب منها وأخذ يتنقل من مكان لآخر حتى قتله هولاكو[٧].

لم يستمر هولاكو في اجتياحه للعالم الإسلامي، فقد ردت قواته التي كان يقودها كتبغا نوين والبالغ تعدادها اثنا عشر ألف مقاتل لاحتلال مصر، على أعقابها في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م التي وقعت بينها وبين القوات المملوكية القادمة من مصر تحت قيادة السلطان المظفر قطز، واضطرت إلى الانسحاب والتراجع إلى العراق بعد مطاردة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري لها[٨].

---

(١) المقريزي، السلوك، ق٢، ج١، ص٣٨٣-٣٨٥؛ الصياد، المغول، ج١، ص٢٨٩.

(٢) اليونيني، ذيل، ج١، ص٩١؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص٣٤٠؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٠-٤١؛ الصياد، المغول، ج١، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٣) الصياد، المغول، ج١، ص٢٩٣-٢٩٤.

(٤) مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص٣٤٢؛ إقبال، تاريخ، ص٢٠٨.

(٥) ابن سباط، تاريخ، ج١، ص٣٨٧.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٠؛ المنصوري، التحفة، ص٤٣.

(٧) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٢.

(٨) اليونيني، ذيل، ج١، ص٣٦٠-٣٦١؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٩٥؛ ابن سباط، تاريخ، ج١، ص٣٩١-٣٩٢؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط٢، القاهرة١٩٧٦م، ص٣٢-٣٦.

وبموجب هذه الوقعة أصبحت بلاد الشام جزءاً لا يتجزأ من دولة المماليك البحرية[1]، وبالتالي ستكون المسرح الذي سيواجه به المماليك؛ المغول الذين أسسوا لهم في العراق دولة عرفت بالدولة الإيلخانية[2] جعلوها قاعدة عسكرية غايتها الدفاع عن نفسها، والتصدي لدولة المماليك البحرية التي أصبحت تشكل تهديداً حقيقياً للمغول بعد انتصارها في موقعة عين جالوت.

عاصر بيبرس المنصوري عقب موقعة عين جالوت خلال الفترة الممتدة بين سنتي (٦٥٩-٧٢٥هـ/١٢٦٠-١٣٢٤م) عهود كل من السلطان الظاهر بيبرس، والسلطان السعيد محمد بركة خان، والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل، والسلطان الناصر محمد (سلطنته الأولى) والسلطان العادل كتبغا المنصوري والسلطان المنصور حسام الدين لاجين، والسلطان الناصر محمد (سلطنته الثانية) والسلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والسلطان الناصر محمد(سلطنته الثالثة)[3].

وقد شهد خلال الفترة التي رافق فيها دولة المماليك البحرية والتي كانت في أوج قوتها، تحديين كبيرين هما:

١. التهديدات المغولية الإيلخانية.

سعى المماليك بعد موقعة عين جالوت إلى تدعيم أركان دولتهم الناشئة، فبدأوا بتوفير أسباب الأمن لها، وذلك بإيقاف تحركات العناصر المناوئة لهم آنذاك.

---

(١) الصياد، المغول، ج١، ص٣١٥؛ عاشور، العصر المماليكي، ص٣٦.

(٢) مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص٣٤٨.

(٣) أحمد بن علي المقريزي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة١٩٩٨م، ج٣، ص١٢٦-١٢٩.

ويعد المغول من أبرز تلك العناصر، إذ إن خطرهم ألجأ السلطان الظاهر بيبرس بعد تمركزهم في العراق إلى أن يتبنى مشروع استنقاذه (العراق) منهم، وإحياء الخلافة العباسية لإعادتها إليها.

تحقيقاً لهدفه رحب عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م بقدوم أحد الأمراء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد إلى مصر، حيث استقبله وبايعه بالخلافة بعد استكمال الإجراءات والتأكد من نسبه، ثم لقبه بالمستنصر بالله[١].

جهز السلطان الظاهر لاستنقاذ العراق من المغول حملة عسكرية جعل قيادتها للخليفة الجديد الذي من خلالها استطاع أن يخترق العديد من المدن العراقية، ولكن حملته لم يكتب لها النجاح بسبب تصدي المغول لها عند مدينة الأنبار، فقد تشتت قواته بعد أن قتل[٢]. وقد ذكر بيبرس المنصوري أن الحملة لما خرجت إلى بلاد الشام والعراق كان هو موجوداً في مصر[٣]، وكان يومئذ يبلغ أربعة عشر عاماً.

حصل بعد فشل استنقاذ العراق تحول في سياسة المغول والمماليك، كل تجاه الآخر، أما المغول، فقد تحولوا إلى سياسة الهجوم، وقاموا بشن هجمات على بلاد الشام، في حين أن المماليك تحولوا إلى الدفاع، وقاموا برصد التحركات العسكرية المغولية على جبهة الفرات، وتصدوا لها، ففي عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م شن المغول هجوماً على البيرة[٤] بقيادة درباي الذي تراجع عنها بعد وصول الخبر إليه بخروج السلطان الظاهر إليه[٥].

---

(١) اليونيني، ذيل، ج١، ص٤٤١-٤٤٢؛ العبادي، قيام، ص١٨٢-١٨٤.

(٢) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة(د.ت)، ق٢، ج١، مج٢، ص٢٥٠؛ سالم المولى، العراق في السياسة المملوكية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أحمد الحسّو، جامعة الموصل١٩٨٩م، ص١٨-٢٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧١.

(٤) البيرة: قلعة حصينة تقع في الجهة الشرقية الشمالية من نهر الفرات. انظر أبو الفداء إسماعيل بن علي(ت ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، دار صادر، (د.ط)، بيروت(د.ت)، ص٢٤٨.

(٥) محي الدين عبدالله بن عبدالظاهر(ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط١، الرياض١٩٧٦م، ص٢٢١-٢٢٤؛ محمد جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت)، ص٩٣-٩٤.

وفي عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م شن المغول هجوماً على حلب، ولكنهم لم يستمروا بهجومهم بسبب تصدي السلطان الظاهر لهم[١].

عاود المغول في عام ٦٦٩هـ/١٢٦٩م الهجوم على الساجور قرب حلب، فخرج إليهم السلطان الظاهر، وأنزل بهم هزيمة[٢]. ثم قاموا بعد ذلك بعام أي: سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م بشن هجوم على عين تاب وعمق حارم[٣]، وقد تمكن السلطان الظاهر من الإيقاع بهم وإحباط هجومهم[٤].

لم تتوقف هجمات المغول عند هذا الحد، ففي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م أغاروا على البيرة، واستطاع السلطان الظاهر أن يلحق بهم هزيمة عظمى بالقرب من الفرات[٥]. كما أغاروا في العام التالي (أي: ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) على بلاد الشام كرد على الهزيمة التي لحقت بهم في موقعة الفرات، وهنا أيضاً تصدى الظاهر لهم، وقفلوا عائدين إلى قاعدتهم العسكرية في العراق[٦].

كذلك عاودوا في عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م الهجوم على البيرة بقيادة أبطاي الذي لم يلبث أن تراجع عنها لوصول الخبر إليه بتحالف سلاجقة الروم مع السلطان الظاهر[٧]. كما أغاروا على كوكوصو (النهر الأزرق)[٨] عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، وقد استطاع السلطان الظاهر أن يتصدى لهم في موقعة الأبلستين[٩] ويلحق بهم وبسلاجقة الروم الذين

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٣-١٢٤؛ المولى، العراق، ص٣٠-٣١.

(٣) عمق حارم: بلدة صغيرة من أعمال حلب. انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٨.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٩٥-٣٩٦؛ سرور، دولة الظاهر، ص٩٦-٩٧.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٠٥-٤٠٨؛ ابن الوردي، تاريخ، ص٣١٥؛ إقبال، تاريخ، ص٢٢٧.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٠.

(٧) المصدر نفسه، ص١٤١.

(٨) كوكوصو (النهر الأزرق): وهو نهر موجود في بلاد سلاجقة الروم. انظر ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٧١.

(٩) الأبلستين: مدينة تقع في بلاد سلاجقة الروم. انظر شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، (د.ط)، بيروت١٩٧٩م، مجا، ص٧٥؛ صفي الدين

انقلبوا عليه بعد تحالفهم معه هزيمة كبرى[1].

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون أغار المغول على حلب سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، فتصدى لهم السلطان الجديد وقفلوا راجعين لبلادهم[2]، ثم تكرر هجومهم عليها سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وقد تمكن السلطان المنصور قلاوون من أن يلحق بهم هزيمة عظمى في موقعة حمص[3].

لم تتوقف هجمات المغول على بلاد الشام، فقد أغاروا عليها عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م بقيادة محمود غازان الذي استطاع أن يهزم السلطان الناصر محمد في موقعة مجمع المروج (وادي الخزندار)، وأن يجتاح بلاد الشام التي سرعان ما استعادها السلطان الناصر بعد ترتيب صفوف قواته[4].

وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه أثناء هجوم المغول هذا كان نائباً للسلطان الناصر في قلعة الجبل بالقاهرة، ولذلك عندما هُزم السلطان في الموقعة المشار إليها قام بادعاء أن السلطان قد انتصر على المغول بهدف إزالة الشكوك لدى العامة في مصر، وحتى لا يقوموا بفتنة[5].

عاود المغول هجومهم بقيادة محمود غازان على بلاد الشام للمرة الثانية عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وقد قام السلطان الناصر باتخاذ العديد من الإجراءات للتصدي لهم، ولكن الظروف الجوية حالت دون اصطدام الطرفين مما دفعهما للتراجع كل لبلاده[6].

= = عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي(ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١، بيروت ١٩٩٢م، مج١، ص١٧-١٨.

(١) المنصوري، التحفة، ص٨٤؛ سرور، دولة الظاهر، ص٩٩؛ إقبال، تاريخ، ص٢٢٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٤-٩٥.

(٣) عاشور، العصر المماليكي، ص٤٧؛ إقبال، تاريخ، ص٢٣١؛ شبارو، السلاطين، ص٨١.

(٤) عبدالله بن أيبك الدواداري(ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ط)، القاهرة١٩٦٠م، ج٩، ص١٥-١٧.

(٥) المنصوري، التحفة، ص١٥٦-١٥٧.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٥٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٠.

وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م أعاد محمود غازان هجومه للمرة الثالثة على بلاد الشام، فتصدى له السلطان الناصر الذي استطاع أن يلحق به هزيمة كبرى في مرج الصُّفَر[١] [بدمشق]، وبذلك يكون قد ثأر لهزيمته في مجمع المروج.

ويشير بيبرس المنصوري إلى أنه كان له مشاركة في هذه الموقعة، فقد كان في ميسرة الجيش المملوكي[٢].

٢. تصفية الوجود الإفرنجي (الصليبي) في بلاد الشام.

تراجع المماليك بعد عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م عن سياستهم الهادفة إلى استنقاذ العراق من المغول، وذلك بسبب خشيتهم أن يستغل الإفرنج غيابهم عن البلاد، والقيام باحتلال مصر، لذا فقد تبنى السلطان الظاهر ومن أعقبة من السلاطين خطة تهدف لاستئصال شأفة الإفرنج من بلاد الشام للتفرغ بعد ذلك لتحرير العراق وإزاحة الخطر المغولي[٣].

بدأ السلطان الظاهر تنفيذ خطته هذه بمهاجمة الإمارات الإفرنجية، ففي عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م تمكن من تحرير قيسارية[٤]، وأرسوف[٥] التي يذكر بيبرس المنصوري

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٥-٣٧٨؛المنصوري، التحفة، ص١٦٦-١٦٨؛ ؛ علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، (د.ط)، القاهرة(د.ت)، ص١٥٧-١٥٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٥-٣٧٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٥-١٦٦؛ بيبرس المنصوري الدوادار(ت٧٢٥هـ)، مختار الأخبار، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.ت)،(د.م)، ص١٢٤-١٢٦.

(٣) المولى، العراق، ص٣٩.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٠-٢٣١؛ عبدالله سعيد محمد الغامدي، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، (د.ط)، مكة المكرمة(د.ت)، ص١٦٩-١٧٠.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٥-٢٣٧. وأرسوف: بلدة تقع في فلسطين على ساحل البحر المتوسط. انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٣٩.

أنه شارك في تحريرها[1].

كما قام بالإغارة على القلاع المحيطة بطرابلس سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م وتحريرها من قبضة الإفرنج[2]، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه شارك في تحريرها[3]، ثم أعقبها السلطان بغزو مدينة صفد وتحريرها[4].

وفي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م هاجم السلطان الظاهر مدينة يافا، واستطاع أن يحررها بالصلح إثر مطالبة أهلها من الإفرنج بذلك[5]. كذلك هاجم في السنة ذاتها حصن شقيف أرنون[6] وأنطاكية[7]، واستطاع تحريرهما. وقد شهد بيبرس المنصوري تحرير المدينة الأخيرة كما يذكر هو نفسه[8].

لم يتوقف السلطان في خطته هذه عند هذا الحد، بل واصل غاراته على الإمارات الإفرنجية الموجودة على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، ففي عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م أغار على ثلاثة حصون إفرنجية هي حصن الأكراد[9]، وحصن عكار[10]، وحصن القرين[11]، وتمكن من تحريرها.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥١-٢٥٢.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٣-١٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص٥٦-٥٧.

(٤) ابن عبدالظاهر،الروض الزاهر، ص٢٦٠-٢٦٣؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص١٧٣-١٧٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩٢-٢٩٤.

(٦) المصدر نفسه،ص٢٩٥-٢٩٨. وشقيف أرنون: حصن موجود في دمشق. انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٤.

(٧) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر،ص٣٠٧-٣٠٩؛ الغامدي، جهاد المماليك، ص١٨٨-١٩١.

(٨) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١.

(٩) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٧٥-٣٧. وحصن الأكراد: قلعة حصينة تقع بالقرب من حمص. انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٨.

(١٠) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٣٧. وعكار: حصن يقع في حمص. انظر ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٢.

(١١) القرين: حصن يقع في صفد على ساحل البحر المتوسط. انظر ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٥-٣٨٦.

بعد ذلك بأربع سنوات، (أي: عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) قام السلطان الظاهر بغزو حصن القصير، وقد استطاع تحريره دون قتال[١].

تابع السلطان المنصور قلاوون الخطة التي ابتدأها سلفه الملك الظاهر تجاه الإفرنج، ففي عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م هاجم المنصور قلاوون حصن المرقب[٢]، وتمكن من تحريره[٣]. كما هاجم إمارة طرابلس في سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، واستطاع أن يحررها بعد أن قتل أعداداً كبيرة من أهلها[٤].

استمرت عملية التحرير بعد المنصور قلاوون، فقد تمكن خلفه السلطان الأشرف خليل من إنهاء الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وذلك سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، حين قام بتحرير عكا[٥]. وقد شهد بيبرس المنصوري هذا التحرير، وكان له دور بارز فيه كما ذكر هو نفسه[٦]، و سيتم تفصيل ذلك لاحقاً.

وفي أعقاب سقوط عكا قام الإفرنج في المدن التالية: صور وصيدا وعثليث وبيروت وحيفا بالتسليم للسلطان الأشرف خشية أن يفعل بهم كما فعل بأهل عكا من القتل[٧].

في ظل هذه الظروف ترعرع بيبرس المنصوري، فمن هو هذا الرجل؟ وما تأثير أحداث ومتغيرات عصره عليه، وما هو أصله وثقافته؟ وكيف انعكس ذلك على ثقافته ودوره في التأريخ لدولة المماليك البحرية؟

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٤٣-٤٤٤. والقصير: حصن يقع بالقرب من حمص ودمشق. انظر ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، (د.ط)، بيروت، ١٩٧٩م، مج٤، ص٤١٧.

(٢) المرقب: قلعة حصينة تقع بالقرب من سواحل حمص. انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٤.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٨-٢٨٠؛ المنصوري، مختار الأخبار، ص٩١-٩٢.

(٧) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٦١.

ثانياً: حياة بيبرس المنصوري

١. اسمه ونسبه

أوردت أغلب المصادر التي ترجمت لحياة بيبرس المنصوري الدوادار اسمه ونسبه بالصيغة التالية: بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار[١]، وفي حين أنها أغفلت اسم والده، فإن ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٣٠م) ذكر أنه: "بيبرس بن عبدالله"[٢]، ويبدو أن هذه الإضافة في نسبه قد جاءت جرياً على عُرف ساد في عصر المماليك يجيز إضافة اسم عبدالله لكل من لا يُعرف اسم أبيه على ما يذكر السخاوي[٣].

أما فيما يتعلق بأسرته، فيلاحظ أن المصادر المشار إليها لم تذكر أية معلومة عنها، سواء ما يخص والده- كما سلف- أو والدته أو إخوته أو أقاربه، بل أن بيبرس نفسه لم يذكر شيئاً عنهم، غير أن ما هو متفق عليه أن الأسرة ترجع في أصولها إلى قبائل

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت١٩٨٥م، ج٤، ص٧٤؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عمشه ومحمد موعد ومحمود سالم محمد، دار الفكر، ط١، دمشق ١٩٩٨م، ج٢، ص٧٩؛ حسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، (د.م)١٩٨٢م، ج٢، ص١٥٨؛ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، مصر١٩٦٦م، ج٢، ص٤٣؛ تقي الدين بن عبدالقادر التميمي الغزي الداري(ت١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي، ط١، الرياض١٩٨٣م، ج٢، ص٢٥٩؛ عبدالحي بن العماد الحنبلي(ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، بيروت(د.ت)، ج٦، ص٦٦؛ محمد بن عبدالرحمن بن الغزي(ت١١٦٧هـ/١٧٥٤م)، ديوان الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، ط١، بيروت١٩٩٠م، ج١، ص٢٠٧.

(٢) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، مصر١٩٨٥م، ج٣، ص٤٧٧.

(٣) محمد بن عبدالرحمن السخاوي(ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، (د.م)، (د.ت)، ج٣، ص٧٤.

الخِطا[1].

٢. مولده ونشأته

لم تحدد المصادر تاريخ ولادة بيبرس المنصوري، غير أنه بالإمكان إعطاء تاريخ تقريبي لذلك وهو عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م استناداً إلى أنه توفي عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، وهو يناهز الثمانين[2].

أما مكان ولادته، فليس ثمة معلومات في المصادر أيضاً عنه، أما ما ذكره الزركلي من أنه ولد في مصر[3]، فهو أمرٌ لا يمكن قبوله باعتبار أن بيبرس المنصوري نفسه يذكر أنه وصل مصر لأول مرة عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وهو صغير السن قادماً من الموصل[4].

---

(١) قبائل الخطا: وهي قبائل تركية كانت تقطن البلاد المتاخمة لبلاد الصين، وقد كانت هذه القبائل متفرقة، إلى أن ظهر من بينها زعيم قوي في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي استطاع أن يخضعها لسلطته، وينصب نفسه إمبراطوراً عليها بين سنتي ٣٠٤-٣١٥هـ/٩١٦-٩٢٧م، وهذا الزعيم هو تاي تسو، ثم تمكن خلفه من بعده أن يخضع شمال بلاد الصين، ومنح أسرته لقب لياو (Liao) نسبه إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم. وقد استمرت هذه الأسرة تحكم بين سنتي ٣٠٤-٥١٩هـ/٩١٦-١١٢٥م، ثم اضطرت بعدها إلى ترك موطنها الأصلي في شمال الصين والهجرة إلى إقليم تركستان، حيث أسسوا هناك دولة عُرفت بالدولة القراخطائية سنة٥١٩هـ/١١٢٥م، وقد بقيت هذه الدولة قائمة أكثر من قرن إلى أن أسقطها المغول سنة٦١٥هـ/١٢١٨م. انظر أحمد بن علي القلقشندي(ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت١٩٨٧م، ج٤، ص٤٨١؛ الصياد، المغول، ج١، ص٢٣؛ حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة ١٩٤٩م، ص٦٠ وما بعدها.

(٢) الذهبي، العبر، ج٤، ص٧٤؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، اعتناء جاكلين سوبله وعلي عمارة، ط٢، (د.م)١٩٩١م، ج١٠، ص٣٥٢؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٥٨؛ أحمد بن علي المقريزي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، ط١، بيروت١٩٩١م، ج٢، ص٥٣٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة ١٩٩٨م، ج١، ص٢٠٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٦.

(٣) خيرالدين الزركلي، الأعلام، دار العلم، ط٦، بيروت١٩٨٤م، ج٢، ص٨٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧١.

أما فيما يتعلق بنشأته، فقد ذكر هو نفسه أنه قدم مصر عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م[١] في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، ويمكن تقدير عمره آنذاك وحسب سنة ولادته المشار إليها سابقاً بأربعة عشر عاماً، وكان حين قدومه برفقة سيده الطواشي[٢] مجاهدالدين قايماز الموصلي خادم الملك الرحيم بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل، ولما شاهده الأمير سيف الدين قلاوون الألفي -الذي كان يقطن في حارة البندقائيين[٣] بالقاهرة- اشتراه منه.

قام الأمير سيف الدين قلاوون بعد شرائه ووفقاً للتقاليد المملوكية بترتيبه بـ"المكتب"[٤]، حيث تم فيه تدريسه القرآن الكريم، وفي هذا قال هو عن نفسه: "فرتبني [قلاوون] في المكتب فلطف الله بي، وعلمني كتابه العزيز وشرفني بدراسة القرآن الكريم لطفاً من رب العالمين".

ولما سافر الأمير سيف الدين قلاوون مع السلطان الظاهر إلى بلاد الشام عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م أبقاه في دار زوجته الخاتون قطقطية -أم الأشرف خليل الذي سيكون له معه صله فيما بعد- مع جملة الصبيان الصغار[٥].

يتضح مما تقدم أن بيبرس المنصوري لم يقدم معلومات وافية عن حياته قبل عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وتحديداً أثناء وجوده في الموصل بل اكتفى بذكر أنه كان مملوكاً فيها

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧١؛ انظر كذلك المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣١.

(٢) الطواشي: جمعه طواشية، وهم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص٤٥٥.

(٣) يقال خط البندقانيين، وكان في زمن الفاطميين أحد إسطبلاتهم، فلما زالت دولتهم اختط، وصارت فيه مساكن ودكاكين لعمل البندق، فعرف بذلك. انظر المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٤) المكتب: مكان مخصص لتعليم أبناء السلطان القراءة والكتابة. انظر المنصوري، التحفة، ص٧. (المقدمة حاشية رقم٣). ويؤكد بيبرس المنصوري في يومياته أن المكتب كان يربى فيه إلى جانب السلاطين المماليك الصغار، ودليل ذلك قوله: "وكان الملك السعيد قد قدمه- أي سيف الدين كوندك الساقي- وعظمه لأنه ربي معه في المكتب". انظر المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٣.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧١.

للطواشي مجاهد الدين قايماز الموصلي، ويمكن إرجاع إغفاله للحقبة التي عاش فيها في الموصل إلى:

أ. رغبته في اعتبار قدومه لمصر بداية لحياة جديدة له، وبخاصة أنه يبتدئ مؤلفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة بذكر خبر وصوله لمصر عام٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م.

ب. أو ربما مرحلة وجوده بالموصل، وما قبلها ترتبط بذكريات لم يرد الإشارة إليها.

٣. دوره في عهد إمرة الأمير سيف الدين قلاوون (٦٥٩-٦٧٩هـ/ ١٢٦٠-١٢٨٠م)

وحينما بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً اصطحبه معه الأمير سيف الدين قلاوون في ست حملات عسكرية وجهها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري نحو الأرمن والصليبين القاطنين على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، كان أولها عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م تجاه أرسوف، وقد أشار بيبرس المنصوري نفسه إلى دوره في هذه الحملة فقال: "وكنت إذ ذاك الوقت في خدمة الأمير سيف الدين المخدوم قلاوون أجر الجنيب[١] في سن المراهق أو قريب"[٢].

أما الحملة الثانية عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، فكانت موجهة نحو الحصون المحيطة بطرابلس، وكان بيبرس في هذه الحملة أيضاً يجر الجنيب للأمير سيف الدين قلاوون كما كان دوره في الحملة المشار إليها سابقاً[٣].

وما أن انتهت هذه الحملة حتى اصطحبه في حملته الثالثة على سيس[٤] في العام نفسه، وقد أشار بيبرس المنصوري إلى ذلك، فقال: "فسرنا حتى دخلنا الدربند ووافينا

(١) الجَنِيبُ: جمع جنائب، وهي الخيول الاحتياطية التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. انظر محمد قنديلي البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة، (د.ط)، (د.م)١٩٨٣م، ص٩٢؛ عاشور، العصر المماليكي، ص٤٢٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٣-١٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص٥٦-٥٧.

(٤) سيس: وهي قاعدة (عاصمة) أرمينية الصغرى. انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٤.

سيس، وقد صفوا [صفَّ] الأرمن صفوفهم على سطح الجبل، واستعدوا لنا بالبيض [السيوف] والأَسَل[1]... فلما شارفناهم على تلك الجبال، ترتب الجيش للقتال، وحملنا عليهم حملة واحدة، فانكسرت فوارسهم، وضربت قوانسهم[2]، وأخذ ليفون [بن هيثوم صاحب سيس] أسيراً وولده معه..."[3].

ومع أن بيبرس المنصوري لم يذكر دوره في هذه الحملة، إلا أنه يمكن أن يستشف أن دوره لم يتعد المهمة التي أوكلت له في الحملة السابقة، وهي جر الجنيب (الخيول)، ودليل ذلك يبرز من خلال ذكره أن هذه الحملة جاءت إثر الانتهاء من حملتهم على طرابلس.

أما رابع الحملات التي شارك فيها بيبرس المنصوري، فتمثلت في فتح إمارة أنطاكية الصليبية عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، ومع أن بيبرس أورد الفتح بحيثياته وملازمته للأمير سيف الدين قلاوون، إلا أنه أغفل دوره فيها، بحيث لم يذكر سوى قوله: "وكنت في هذه الغزاة المبرورة، فأما المخدوم [قلاوون] ومن معه، فإنه سار من أفاميه فصابحنا القصير صباحاً وناوشنا[4] أهله القتال غدواً ورواحاً، ورحلنا إلى أنطاكية ونزلنا عن غربيتها على سفح الجبل..."[5].

وبعد إسقاط إمارة أنطاكية الصليبية بثلاثة أعوام، أي سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م كانت الحملة الخامسة تجاه حصن الأكراد، وفي هذا يقول بيبرس المنصوري: "... وأقمنا

---

(١) الأَسَل: النَبْل. انظر جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور(ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، (د.ط)، بيروت(د.ت)، مادة أسل.

(٢) القوانس: وهي الحديدة الطويلة في أعلى الرأس. انظر ابن منظور، لسان، مادة قنس.

(٣) المنصوري، التحفة، ص٥٨.

(٤) المناوشة: أي تناول بعضهم بعضاً بالرماح دون أن يتدانوا كل التّداني. انظر ابن منظور، لسان، مادة نوش.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١؛ انظر بدرالدين محمود العيني(ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، القاهرة١٩٨٨م، ج٢، ص٢٢.

على ذلك [محاصرة الحصن المشار إليه] أياماً عشرة، فأخذت الأرباض، وزحف من العسكر عرباض، وارتقوا القلعة وتسلموها [من الصليبين]"[1].

أما الحملة السادسة التي ساهم فيها بيبرس المنصوري مع الأمير سيف الدين قلاوون عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، فقد كانت موجهة نحو سيس، وفي هذا قال بيبرس المنصوري: "فوصلنا إلى المصيصة على غرة من الأرمن، فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها فملكوها وقتلوا من بها وملكوا الجسر...[ثم] وصل السلطان [الظاهر] على الأثر... ودخل سيس..."[2].

ومن الملاحظ في الحملتين السابقتين أن بيبرس المنصوري لم يفصح عن دوره فيهما بل اكتفى بالإشارة إلى كيفية سيرهما نحو المدن وفتحها، ومع ذلك يمكن أن يتبيّن من سياق كلامه أنه يضع نفسه على قدم المساواة مع غيره بدليل أنه يقول: "وأقمنا"، "فوصلنا"، وهذا يعني أنه كان مشاركاً فيهما.

ولم تقتصر مشاركة بيبرس المنصوري على الحملات العسكرية المشار إليها تجاه الصليبين بل يلاحظ أنه ساهم أيضاً في المعارك التي خاضتها الدولة المملوكية ضد المغول وسلاجقة الروم، ودليل على ذلك مشاركته في موقعة الأبلستين عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م والتي اصطدمت فيها الدولة المملوكية بقيادة السلطان الظاهر مع التحالف المغولي السلجوقي.

ومع أن بيبرس المنصوري أورد خبر هذه الوقعة إلا أن دوره فيها يكتنفه الغموض، إذ لم يذكر سوى أنه عاد مع السلطان الظاهر وعساكره منها حيث يقول: "...ونزل [السلطان الظاهر بعد انتصاره في الوقعة المشار إليها سابقاً] قريباً من القرية المعروفة

---

(١) المنصوري، التحفة، ص٧٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٤-١٤٥؛ المنصوري، التحفة، ص٨٠-٨١؛ انظر كذلك العيني، عقد الجمان، ج٢، ص١٣٢-١٣٣.

برمان، وهي قريب الكهف والرقيم[١] ويطوف بها جبال كأنهار أسوار، ومررنا على قرية أوتراك ومنها على حصن سمندو[٢]، وأشرفنا على خان قرطاي بعد ذلك... ونزلنا على قريب عسيب... وركب السلطان في زمرته وذوي أمره وإمرته، وخرج أهل قيسارية كافة، فتلقوه..."[٣].

إضافة لذلك تحمل بيبرس المنصوري مسؤولية الإقطاع عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م، بعد أن نقله الأمير سيف الدين قلاوون من النقدية أرباب الجامكية الذين كانوا يتقاضون مرتباً شهرياً أو أجراً نقدياً يسمى جامكيه، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك، فقال: "وفي هذه السنة نقلني الأمير المخدوم من النقدية أرباب الجامكيه إلى الإقطاعية، فأعطاني خبزاً من أخباز[٤] عدته، عبرته مائة وخمسون إردباً[٥]، فهو أول خبز أكلته في خدمته"[٦].

وفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م تم ترقية بيبرس المنصوري، حيث فوض إليه الأمير سيف الدين قلاوون الشراب خاناه[٧] الخاصة به[٨].

توفي السلطان الظاهر عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، وخلفه في السلطنة ولده الملك السعيد

---

(١) يبدو أن بيبرس المنصوري قد قصد بالكهف والرقيم مدينة «أبْسُس» التي يذكر البغدادي أنها أحدى المدن الهامة في بلاد سلاجقة الروم، وهي التي تقع بالقرب من مدينة الأبلستين، يقال أن فيها أصحاب الكهف والرقيم. انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج١، ص١٥.

(٢) حصن سَمَنْدُو: حصن يقع في وسط بلاد سلاجقة الروم. انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج٢، ص٧٣٨.

(٣) المنصوري، مختار، ص٥٧-٦٠.

(٤) الأخباز: جمع خُبْز، ومعناه إقطاع من الأرض. انظر المقريزي، السلوك، ق١، ج١، ص٦٥.

(٥) الإردب: مكيال مصري للحنطة. انظر فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط٢، (د.م)، (د.ت)، ص٥٨-٥٩.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٦.

(٧) الشراب خاناه: يقصد بها بيت الشراب، وفيه شتى أنواع الأشربة التي يحتاجها السلطان، فضلاً عن الأواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر. ومن الملاحظ هنا أن الشراب خاناه قد كانت خاصة بقلاوون وليس السلطان. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٩؛ البقلي، التعريف، ص١٩٦.

(٨) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٥٢.

ناصر الدين بركة خان[1]، فما هو دور بيبرس المنصوري في عهده؟.

برز دور بيبرس المنصوري في هذه المرحلة عندما عزم أكابر الأمراء لا سيما الأمير بدرالدين بيسرى الشمسي والأمير سيف الدين قلاوون على خلع الملك السعيد من السلطنة، وذلك إثر المؤامرة التي دبرها الأخير مع مماليكه ضد الأميرين السابقين، والقاضية بإبعادهما عن الدولة والتخلص منهما[2]، وقد كان بيبرس المنصوري في هذا الصراع الدائر بين الطرفين من أكبر المرتبطين بالأمير سيف الدين قلاوون والمؤيدين له حينما اتجه لمصر لحصار قلعتها، وخلع الملك السعيد، فقد أشار هو إلى ما يوحي بذلك، فقال: "ولما رحلنا من الكسوة [قرب دمشق] جدّينا في المسير من غير ونية ولا تقصير، فوصلنا إلى الديار المصرية في أوائل سنة ثمان وسبعين وستمائة [٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩م]"[3].

٤. دوره بعد وصول الأمير سيف الدين قلاوون للسلطنة عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م

لوحظ مما تقدم كيفية نشأة بيبرس المنصوري في كنف الأسرة المنصورية وكيف أنه اكتسب ثقة الأمير سيف الدين قلاوون قبل أن يصبح سلطاناً، أما وقد تولى الأمير المشار إليه السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، فقد ابتدأت مرحلة جديدة من حياة بيبرس الذي صار بعد هذا التاريخ يلقب بـ"المنصوري" نسبة للمنصور قلاوون، فما هو الدور الذي قام به في عهد الأخير وعهد ولده الملك الأشرف خليل؟.

ابتدأ بيبرس المنصوري نشاطه في عهد السلطان الجديد الملك المنصور قلاوون في المشاركة في موقعة حمص عام٦٨٠هـ/١٢٨١م التي انتصر فيها السلطان على المغول، ويدل على ذلك ما ذكره هو نفسه من أنه كان أولاً برفقته منذ خروجه من مصر في ذي

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٠-١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦٦-١٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٩-١٧٢.

الحجة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م حتى نزوله على دمشق بجيشه الذي رتبه إلى ثلاثة أقسام كان هو (أي: بيبرس) في القسم الذي يترأسه السلطان وهو القلب تحت السناجق[١].

برز دور بيبرس المنصوري في هذه الموقعة عندما تعرضت ميسرة المغول للسلطان، فقد ذكر أنه كان من جملة المدافعين عنه "فأشار السلطان إلينا بأن نردفه، فردفناه جميعاً وجعلناه بجمعنا منيعاً، وقتلنا الذين قصدوه قتلاً ذريعاً، وبذلت فيهم السيوف، ودارت عليهم دائرة الحتوف، فانكسرت الميسرة كسرة تامة، وأيقّنا نحن بالنصرة العامة"[٢]. كما برز دوره بعد انتهاء الموقعة، فقد ذكر أن السلطان لما نزل على المنزلة قرب حمص عقب الموقعة وجد أن المغول نهبوا ما فيها، ومع ذلك لم يأبه بما فعلوه، فقد كان قبل اصطدامه مع المغول قد نزل عليها ووزع الأموال التي فيها على مماليكه أكياساً في كل كيس ألف دينار ليحملوه ريثما تنتهي الموقعة، وقد أشار بيبرس المنصوري إلى أن السلطان جعل معه كيساً منها وقت تفرقته، وأنه أعاده إليه بعد الموقعة سالماً[٣].

ولم يكد يمضي على الوقعة المشار إليها عامان حتى أصدر السلطان المنصور قلاوون في ١٤ ربيع الأول عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م مرسوماً بحق مملوكه بيبرس المنصوري تضمن ثلاث نقاط رئيسة هي:

أولاً: منحه خمسة عشر طواشياً، وهذا يظهر من قوله: "وأنعم السلطان عليّ بعدة خمسة عشر طواشياً".

ثانياً: ترقيته من خادم للسلطان إلى أمير من أمرائه، ويتبيّن ذلك من قوله عن نفسه: "... وشملتني سعادة آرائه بأن صيرتني من جملة أمرائه وكان هذا دأبه في سائر

(١) المنصوري، مختار، ص٧١-٧٤. والسناجق: جمع سنجق، وهي رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٧؛ عاشور، العصر المماليكي، ص٤٤٨؛ البقلي، التعريف، ص١٨٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٩.

خدامه أن يرفع مراتبهم في أيامه". ويفهم من هذه النقطة أنه أصبح بعيد ذلك يلقب بـ "الأمير" لأول مرة.

ثالثاً: ثناء السلطان عليه بدليل الألقاب التي خاطبه بها: "الأمير الأجل الكبير المختار المجاهد الأوحد الأعز المرتضى الأكمل ركن الدين مجد الإسلام شرف الخواص بهاء الأمة غرس الدولة واسطة المملكة اختيار الملوك والسلاطين"(١).

ويبدو أن ترقية بيبرس المنصوري إلى رتبة أمير كان بمثابة توطئة من قبل السلطان المنصور قلاوون لتدرجه في الوظائف الإدارية العليا في الدولة المملوكية، بدليل أنه أصدر بعد المرسوم المشار إليه مرسوماً أخر في ٥ شوال ٦٨٣هـ/١٢٨٥م بتوليته أمرة طبلخاناه(٢) على خمسين فارساً، وإعطائه إقطاع الأمير عزالدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار الذي نقله إلى مائة فارس(٣).

وكان لهذه الترقية تأثيرٌ حسنٌ على نفس بيبرس المنصوري، فقد عبر عن مشاعره حين تقلدها، فقال: "... فهي [إمرة الطبلخاناة] من نعم الله التي أجراها على يديه (السلطان المنصور قلاوون) وتصدق بها من جهته...، فأنا أحدث بها ما دمت حياً، وأثبتها في المهارق (الصحيفة) التي تنشر إذا طوتني الأيام طياً. وكيف أهمل ذكرها وأترك شكرها وهي باقيةٌ عليّ من السلف، نامية لدي من الخلف، فأنا كما قيل:

أقـــر جلـــدي بهـــا علـــيّ فما

أقـــدر حتـــى الممـــات أجحدها"(٤).

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٧؛ انظر كذلك العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٣٢٤-٣٢٦.

(٢) الطبلخاناه: يقصد بها بيت الطبل الذي يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات؛ ويحكم على ذلك أمير العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ويتولى أمرها في السفر. ويبدو أن الهدف منها إرهاب العدو في الحرب وتقوية جأش الجنود. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٣،٧؛ البقلي، التعريف، ص٢٢٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٠-٢٥١؛ العيني، عقد الجمان،ج٢، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١١٢.

وفي سنة٦٨٥هـ/١٢٨٦م انتدب السلطان المنصور قلاوون؛ بيبرس المنصوري ليكون رسوله إلى الكرك التي كانت في البداية قد منحت للسلطان السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس بعد عزله[١]، ثم منحت بعد وفاته لأخيه الملك المسعود جمال الدين خضر الذي لم يلبث أن بلغت السلطان قلاوون عنه وعن أخيه بدر الدين سلامش أمورٌ جعلته يقوم بتجريد حملة عسكرية بقيادة الأمير حُسام الدين طُرَنْطَاي تجاههما لاستعادة الكرك، ويظهر أن إحكام الخناق عليهما من قبل الحملة قد دفعهما أخيراً إلى طلب الأمان من الأمير حُسام الدين طُرَنْطَاي الذي" بادر بمطالعة الأبواب الشريفة السلطانية... بحصول المقصود والإذعان إلى الوفود، وإن الأمر بقي متوقفاً على مجئ أحد من خاصة السلطان بخاتم الأمان"[٢].

لما أخبر الأمير حُسام الدين طُرَنْطَاي السلطان المنصور بالأمر، كتب لهما الأخير أماناً عليه ختمه، وأختار واحداً من خاصته لحمله وهو بيبرس المنصوري الذي وصل إلى الكرك، وهو ما حدثنا عنه في يومياته، فقال: "فندبني السلطان إليهم ومعي أمانه الشريف فسرت على البريد إلى الكرك، فاجتمعت بالأمير حسام الدين [طُرَنْطَاي]، فاعلمهما(أي: الملك المسعود وأخاه بدرالدين سلامش) بحضوري فدخلت إليهما بالأمان وأبلغتهما رسالة السلطان بمواعيد الإحسان فطابت أنفسهما بذلك، وانشرحت صدورهما واطمأنت خواطرهما ووثقت ضمائرهما، ونزلا من قلعة الكرك إلى الأمير حسام الدين، فتلقاهما بالإجلال والأعظام والتبجيل... وركبا صبيحة ذلك اليوم إلى الصيد، فركب معهما [حُسام الدين طُرَنْطَاي] معاً وتصيدنا يومنا ذلك وعدنا إلى الوطاق[٣].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٤-٢٥٥؛ المنصوري، التحفة، ص١١٥.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٤-٢٥٥؛ المنصوري، التحفة، ص١١٥؛ انظر كذلك ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق ونجلا الدين، المطبعة الاميركانية، (د.ط)، (د.م)، (د.ت)، مج٨، ص٣٥-٣٦؛ المقريزي، السلوك، ق٣، ج١، ص٧٣٠-٧٣١؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٣٤٨-٣٤٩. والوطاق: لفظ تركي يعني الخيمة الكبيرة التي تعد للسلاطين.

بعد تسليم الكرك واستقرار أوضاعها الداخلية، عُين الأمير عز الدين أيبك الموصلي خشداش (أي: زميل) بيبرس[1] مؤقتاً نائباً للسلطنة فيها، إلى أن حضر السلطان المنصور قلاوون في أواخر سنة٦٨٥هـ/١٢٨٦م إليها ، فعزله وولاها بيبرس المنصوري الذي نقل لنا مجريات تعيينه، فقال: "... ثم أنه [السلطان المنصور] توجه إلى الكرك جريدةً[2] متصيداً... وعرفني أنه يقصد تربيتي [ترتيبي] في الكرك، فأخذت معي الطُّلب[3] والثقل[4]، وتوجهت في خدمته توجه المنتقل [المرتحل]، فوصلنا إليها في عشر شعبان من هذه السنة [أي عام ٦٨٥هـ]، ونزل السلطان على ظاهرها، وطلع إلى قلعتها ونظر في أحوالها... ورسم لي بالإقامة فيها نائباً فأقمت، وخرج منها الأمير عز الدين أيبك الموصلي"[5].

وقد أصدر السلطان المنصور بمناسبة تقليد بيبرس المنصوري منصبه الجديد مرسوماً بحقه تضمن في بدايته ثناء السلطان المنصور عليه ومخاطبته بأفضل الألقاب "الأمير الأجل الأسفهسلار[6] الأوحد المجاهد العضد ركن الدين فخر الإسلام شمس الأنام شرف الأمراء المقدمين عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار الملكي

انظر أحمد بن عبدالوهاب النويري(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت٢٠٠٤م، ج٣١، ص٢٤ (حاشية٢)

(١) ذكر بيبرس المنصوري أن عزالدين أيبك الموصلي قدم معه إلى مصر عام٦٥٩هـ/١٢٦١م، وباعهما سيدهما الطواشي مجاهد الدين قايماز الموصلي خادم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى الأمير سيف الدين قلاوون. المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧١.

(٢) جريدة: أي أن السلطان ركب منفرداً على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أثقالاً أو حشداً. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص٤٢٦.

(٣) الطُّلب: جمع أطْلاَب، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة. انظر البقلي، التعريف، ص٣٦.

(٤) الثقل: أي الأمتعة والأثقال التي تحمل عند الرحيل من مكان لآخر. انظر ابن منظور، لسان، مادة ثقل.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٣٥٠.

(٦) الاسفهسلار: لقب من الألقاب الخاصة بأمراء الطبلخاناه في عصر المماليك. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص٤١١.

المنصوري نائب السلطنة بالكرك". كما تضمن المرسوم منحه ثمانين فارساً، والأنعام عليه بإقطاع الأميرعلم الدين سنجر الدوادار الصالحي، وقد اشترط عليه السلطان فيه إعادة الأقطاعات التي كانت بيده في الديار المصرية(١)، والتي تمت الإشارة إليها فيما تقدم.

أما أهل الكرك، فقد توافدوا على بيبرس المنصوري للتهنئة والتبريك بالمنصب الجديد، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك، فقال: "وانتابت إليّ الوفود، فبذلت لهم المجهود، وأخذ الشعراء يمتدحون والناس بالإحسان والعدل يفرحون"(٢).

شرع بيبرس المنصوري بعد تسلمه زمام الأمور في الكرك بتفقد الأوضاع الداخلية لها بخاصة الاقتصادية، حيث وجد أن"أحوالها قاصرة وأعمالها داثرة وأراضيها بائرة وأهراءها [مخازنها] شاغرة" وأرجع ما آل إليه وضعها إلى سببين؛ أولهما "ما توالى عليها من المضايقة والمحاصرة"، وثانيهما "عجز من كان يتولى أمورها ويلي تدبيرها"(٣)، لذلك قام بترتيب أمورها وتنظيمها من خلال عمارة بلادها وتخضير أراضيها وزراعتها، وقد ساعده على ذلك كثرة الأمطار في تلك السنة التي قدم بها إلى الكرك(٤).

بقي بيبرس المنصوري في الكرك -كما يذكر- ما يقارب الخمس سنوات(٥)، أي: من عام ٦٨٥-٦٩٠هـ/١٢٨٦-١٢٩١م، غير أنه خلال هذه الفترة الطويلة نسبياً لم يقدم أية معلومات عن الأعمال التي قام بها فيها وفي ما يرتبط بها من مدن وقرى وقلاع مقتصراً على معلومات مقتضبة عن حياته فيها، تمثلت بالإصلاحات المشار إليها آنفاً حين قدومه إليها، ثم مشاركته بمعية أهلها في فتح عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، كما سيشار إليها تالياً.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٦-٢٥٧؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٣٥٢-٣٥٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٥٧.

ويبدو أن عدم ذكره لتفاصيل حياته في الكرك يعود إلى أنه أراد فقط أن يسلط الضوء في معلوماته على أبرز أعماله في الكرك- آنفة الذكر- دون الدخول في الجزئيات والتفاصيل الصغيرة الأخرى التي قام بها في الكرك.

٥. دوره في فتح عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وإعفائه من نيابة السلطنة بالكرك

توفي السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، وتولى السلطنة بعده ولده الملك الأشرف خليل[١]، فما هو دور بيبرس المنصوري في عهده مع الأخذ بنظر الاعتبار أن بيبرس كان نائباً في الكرك، وعلى معرفة بالأشرف خليل منذ طفولته عندما كان يعيش في بيت والدته الخاتون قطقطية كما ذكر سابقاً.

برز دور بيبرس المنصوري في هذه المرحلة عندما عزم السلطان الأشرف خليل على مهاجمة الصليبين في عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، حيث يروي بيبرس المنصوري في يومياته أنه(أي: السلطان) أرسل إلى أمراء بلاد الشام لإعداد الزردخانات[٢] والآلات لفتح عكا.

ولما عرف بيبرس المنصوري بذلك تاقت نفسه إلى الجهاد "وحنت إليه حنو الأرض الظامية إلى صوب العهاد"، فخاطب السلطان يطلب منه المشاركة في الفتح، فرحب السلطان بذلك[٣].

بدأ بيبرس المنصوري بالإعداد للقتال، من خلال تجهيز الآلات الحربية، وترتيب الجنود والرماة والحجارين من أهل الكرك، وبعد استكمال الاستعدادات توجه إلى غزة، حيث التقى هناك بالسلطان الأشرف الذي استقبله ورحب به، وانضم إليه بمن معه، وتوجهوا نحو عكا.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٠-٢٧٢.

(٢) الزردخاناه: وهو المكان المخصص لحفظ السلاح والعتاد الحربي(السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع). وقد يطلق هذا اللفظ على السلاح نفسه. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١١؛ عاشور، العصر المماليكي، ص٤٤٤؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، ط١، دمشق١٩٩٠م، ص٨٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٨-٢٨٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٦-١٢٧؛ المنصوري، مختار، ص٩١-٩٢.

لم يقتصر دور بيبرس المنصوري على ما تقدم بل أفاد من خبراته العسكرية التي اكتسبها زمن أمرة سيف الدين قلاوون، واستطاع أن ينقذ ما كان يواجهه الجيش من صعوبات في المعركة مع الصليبيين، حيث يقول هو: "وشُدد القتال... وأنا في ضمن ذلك أتأمل مكاناً تلوح الفرصة منه فاقصده وأتصفح جانباً تمكن منه الحيلة فلا أجده، وبينما أنا أميل فكرتي وأدير بصري وبصيرتي إذ لمحت برجاً من أبراجها قد أثرت فيه المجانيق، وأمكن إن يتخذ منه طريق وبينه وبين السور فسحة مكشوفة ظاهرة لا يمكن السلوك فيها، لأن الجروح[1] مسلطة عليها إلا باتخاذ ستارة تطولها وتشملها وتقي من يدخلها، فعمدت إلى اللبود فجمعتها جمعاً، ولفقت بعضها مع بعض لفقاً، فتصور منها سحابة[2] كبيرة طولاً وعرضاً، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صارمين من كلا الجانبين وجعلت على رؤوسهما بكراً كبكرات المراكب وحبالاً يتمكن بها الجاذب، ثم جذبت تلك السحابة من اللباد، فقامت كأنها سدّ من الاسداد، وأيقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنشاب، فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي اللبد تحتها، فيبطل زخمها والجروخ إذا رمتها لا ينفذ سهمها فتمكنا من المرور ووجدنا سبيلاً إلى العبور وضرب بيننا وبين الأعداء بسور، وشرعنا في ردم الخندق الذي بين السورين بمخالي[3] الخيل مملوءة بالتراب مع ما تيسر من الأخشاب، فصار طريقاً سالكاً،...وحصل الزحف عليهم من ذلك المكان، وغيره... وانكسروا كسراً ماله انجبار..."[4]. وبهذا تم دخول آخر معقل من معاقل الصليبين، وكتب لبيبرس المنصوري أن يستكمل مع السلطان الأشرف ما كان يسعى السلطان الظاهر والملك المنصور قلاوون لتحقيقه، وهو إنهاء الإحتلال الصليبي لبلاد الشام.

---

(١) الجروخ: لفظ عربي الأصل يطلق على آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة، ويقال لمستعملها من الجند جرخي. انظر: دهمان، معجم الألفاظ، ص٥٢.

(٢) السحابة: خيمة كبيرة مستطيلة على هيئة الجملون. انظر دهمان، معجم الألفاظ، ص٨٩.

(٣) مخالي: جمع مِخْلاه، وهي القطعة التي يوضع فيها الحشيش الذي يحتش من بقول الربيع للخيل (أي يوضع فيها طعام الخيل). انظر ابن منظور، لسان، مادة خلا.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٨-٢٨٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٦-١٢٧؛ المنصوري، مختار، ص٩١-٩٢.

كان تحرير عكا من الصليبين، هو آخر عمل قام به بيبرس المنصوري، وهو على رأس مملكة الكرك، فقد قام بعدها بالطلب من السلطان الأشرف أن يعفيه من العودة إلى الكرك، فأعفاه، وفي هذا قال بيبرس: "ورسم لي [السلطان بعد تحرير عكا] بالمسير إلى الكرك، فسألته أن أكون في خدمته وأعود في ركابه وصحبته واعتفيت من العود إلى الكرك، فأجاب إلى الإعفاء من العود إليها، ورتب الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي نائباً عن السلطنة فيها"(١).

يتضح مما سلف أن تنازل بيبرس المنصوري عن منصب نيابة السلطنة في الكرك عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م قد كان بر[illegible] منه ليكون قريباً من السلطان، وليس كما يفهم من فحوى رواية ابن تغري بردي، والمقريزي، وابن حجر العسقلاني من أن تنازله عنه قد كان برغبة السلطان الأشرف، وليس برغبة بيبرس(٢).

انتقل بيبرس المنصوري بعد إعفائه من منصب نيابة السلطنة في الكرك مع السلطان الأشرف إلى مصر، ليكون من جملة أمرائه(٣)، ولكن يظهر أن إقامته فيها لم تطل، فقد خرج في عام ٦٩١هـ/١٢٩١م إلى بلاد الشام، ليشارك مع السلطان الأشرف في فتح قلعة الروم(٤) التي يروي بيبرس كيف أنه استجدّ عليهم أمر أثناء حصارهم لها "ولما كنا في شدة الحصار والقتال والمضايقة والنزال أشرفت علينا من البر الشرقي طائفة من التتر [المغول] لائحة من بين الجبال... كانت قد جاءت تلتمس فرصة وتطلب من

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٣-٢٨٤؛ انظر كذلك العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٨٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص١٣٣؛ ابن الفرات، تاريخ، مج٨، ص١١٩؛ عبدالرحمن ابن خلدون(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت١٩٨٨م، ج٥، ص٤٦٤.

(٢) جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستاتسوماس، (د ط)ـ القاهرة(د.ت)، ج٨، ص٩؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ٢٦٩؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٥٣١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨.

(٤) قلعة الروم: قلعة حصينة تقع في غربي الفرات مقابل البيرة. انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج٣، ص١١١٨.

المسلمين غرة..."، لذلك قام السلطان بتجريد حملة استطلاعية بقيادة أربعة أمراء من مقدمي الألوف[1] مع مضافيهم [تابعيهم]، لكشف خبر المغول وتتبع أثرهم، وقد كان بيبرس أحد المشاركين في هذه الحملة الاستطلاعية، حيث يذكر أنه كان من مضافي الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح.

تحركت الحملة لتتبع المغول، وفي هذا يقول بيبرس: "... فسرنا جميعاً سيراً عنيفاً وعبرنا الفرات من مخاضة سُميصات [سُميساط] وسرنا في البر الشرقي عامة الليل والنهار، وقصصنا الآثار، فلم نجد أحداً من التتار [المغول]، فعدنا في الحال وحضرنا إلى المنازلة والقتال حتى افتتحنا قلعة الروم".

يعقب بيبرس المنصوري إلى أنه اتفق فيما بعد وصول الأمير سيف الدين جنكلي ابن البابا أحد أمراء التتار إلى الديار المصرية، فأخبره أنه كان في تلك السرية التي كانت تبلغ عشرة الآف فارس صحبة مقدم يسمى بيتمش، وأن السبب في تراجعهم هو كثرة أعداد العساكر الإسلامية المحاصرة لقلعة الروم[2].

وفي سنة٦٩٢هـ/١٢٩٢م خرج السلطان الأشرف إلى بلاد الشام للأطمئنان على سلامة أوضاعها، واصطحب معه عدداً من قواته لإبقائها في حمص بهدف "...حفظ الثغور الإسلامية واحترازاً من هجوم العدو [المغول] على الأطراف، وتأميناً للرعايا لكيلا تفرق من مفاجأته ولا تخاف..."[3]، وقد كانت قواته المُجرده إلى حمص صحبة ثلاثة من المقدمين وهم؛ الأمير بدر الدين أمير سلاح المشار إليه سابقاً، والأمير شمس الدين كرتيه، والأمير سيف الدين بلبان الحلبي، وقد كان بيبرس المنصوري كما يذكر

---

(١) أمراء المئين مقدمو الألوف: أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف، ويكون عدة كل منهم مائة فارس، وهو في الوقت نفسه له التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٤؛ عاشور، العصر المماليكي، ص٤١٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٨-٢٨٩؛ انظركذلك المنصوري، التحفة، ص١٣٠-١٣١؛ المنصوري، مختار، ص٩٢- ٩٣؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص١٢٠.

(٣) المنصوري، التحفة، ص١٣٣.

"...من مضافي الأمير بدر الدين أمير سلاح..."، وكانت مدة مكوثه معه في حمص ثلاثة أشهر[1].

وفي عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م قُتل السلطان الأشرف على يد بيدرا ومجموعة من الأمراء، ثم ما لبث أن قتل بيدرا على يد الأمير زين الدين كتبغا، وتولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة في مصر[2].

كان بيبرس المنصوري في هذه الأثناء ما زال في حمص، والسؤال المطروح الآن ما هو الدور الذي قام به بيبرس المنصوري في عهد السلطان الجديد وعهد من جاء بعده من السلاطين؟

٦. دوره في عهد السلطان الناصر محمد (سلطنته الأولى)، والسلطان العادل كتبغا، والسلطان حسام الدين لاجين(٦٩٣-٦٩٨هـ/١٢٩٣-١٢٩٨م).

رأينا آنفاً كيف رافق بيبرس المنصوري الدولة المملوكية خطوة بخطوة في التحديات التي واجهتها على المستويين الداخلي والخارجي، في عهد كلٍ من السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الأشرف خليل، فما هو الدور الذي قام به في عهد الناصر محمد بن قلاوون؟.

اتفق أثناء الأوضاع السياسية المشار إليها آنفاً (مقتل السلطان الأشرف وتولي الناصر محمد السلطنة) -كما يذكر بيبرس المنصوري- انقضاء مدة إقامتهم في حمص وكانت ثلاثة أشهر وعودتهم إلى مصر، وفي هذا يقول: "واتصلت بنا هذه الخطوب، ونحن بالصالحية، فأسرعنا بالحضور، فوجدنا الحال قد انتقل من شدة الحزن (أي: بمقتل الملك الأشرف) إلى غاية السرور (أي: بتولي الملك الناصر السلطنة)..."[3].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٣؛ انظر كذلك المنصوري، التحفة، ص١٣٣؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص١٥٧-١٥٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٥-٢٩٨.

(٣) المنصوري، التحفة، ص١٣٨.

جاءت عودة بيبرس المنصوري إلى مصر بمعية الأمير بدر الدين أمير سلاح، فرصة لتوليه مناصب مهمة في الدولة تمثلت أولاً بترقيته من قبل السلطان الجديد عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م إلى مرتبة أمير مائة فارس ومقدم ألف؛ أي أنه أصبح من أمراء الألوف الذين يشكلون أعلى المراتب العسكرية في الدولة المملوكية، ناهيك عن توليته ديوان الإنشاء للنظر في البريد الوارد والصادر من الأبواب السلطانية، وتنفيذ المهمات المتعلقة بالرسائل والمكاتبات والبريد[١]، وقد مُنِحَ في هذه الوظيفة لقب "الدوادار"[٢] الذي صار يُعرفُ به بعد هذا التاريخ.

وقد أصدر السلطان بهذه الوظائف المذكورة مرسوماً عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م ابتداه بذكر ولاء بيبرس المنصوري للدولة المملوكية، ثم مخاطبته بأفضل الألقاب، فضلاً عن ذكر الميزات التي توفرت في بيبرس، وساهمت في تقليده ديوان الإنشاء ومقدم ألف، وقد جاء في هذا المرسوم عن بيبرس: "أن ذُكرت البلاغة فهو إمامها والكتابة فبيده زمامها، وإن امتطت أنامله جواد القلم فهو به المجيد أو اشتملت راحته على السيف فمن ذا عن فتكه يحيد أو اعتقل رمحاً فلا يحمى منه حصن مشيد ولا عمر حديد يقول فتطرب الأسماع عند مقاله ويؤدي الرسائل فتعجب الأفكار من حسن استرساله لا يخرج فيها عما اعتاده من صدق اللسان ولا يتحمل منها إلا ما جمع بين الحسن والإحسان..."[٣].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٨؛ انظر كذلك العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٢٣٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص١٦٨؛ ابن الفرات، تاريخ، مج٨، ص١٧٢؛ المقريزي، المقفى، ج٧، ص١٦٢-١٦٣.

(٢) الدوادار: لقب مركب من لفظين؛ أحدهما عربي وهو الدواة، والمراد التي يكتب منها، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك. ويكون المعنى«ممسك الدواة». انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٣٤. ومن المهام التي يقوم بها الدوادار نقل الرسائل والأمور عن السلطان، وعرض القصص والبريد وأخذ الخط السلطاني على عامة المناشير، وقد اختلفت آراء السلاطين في الدوادار؛ فتارة كان من أمراء العشرات والطبلخاناه، وتارة كان من أمراء الألوف. ومن الملاحظ أن بيبرس المنصوري قد تولى الدوادارية وهو مقدم ألف.انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩-٢٠؛ المقريزي ،الخطط ،ج٣،ص٨٨؛ دهمان، معجم الألفاظ، ص٧٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٨-٢٩٩.

وربما يثار سؤال هنا هو: هل سبق أن تقلد بيبرس المنصوري وظيفة الدوادارية قبل هذه الفترة؟

لم تزودنا المصادر بمعلومات كافية تساعد على تقديم إجابة محددة. مع ذلك يروي المقريزي[١]، وابن حجر العسقلاني[٢] أن بيبرس المنصوري تولى الدوادارية في عهد السلطان الأشرف خليل، وهذا يعني أنه تقلدها قبل عهد السلطان الناصر محمد، ولكن ليس ثمة دليل على ذلك، الا أن من الممكن أن يكون تولاها في عهد المنصور قلاوون بدليل المراسيم التي أصدرها بحقه عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م[٣]، ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٤]، ٦٨٥هـ/١٢٨٦م[٥]، والتي يلاحظ من خلالها أنه(أي:السلطان قلاوون) كان يخاطبه فيها بلقب "الدوادار".

قام السلطان الناصر محمد إثر منحه بيبرس المنصوري المناصب المشار إليها آنفاً بتجريده إلى الإسكندرية، وقد بيّن بيبرس السبب من توجيهه إليها، فقال: "وجردت إلى ثغر الإسكندرية لحفظه وحفظ موانيه وصون سواحله وشوانيه[٦] [من اعتداءات الصليبين]، فتوجهت إليه وخيمت عليه"[٧].

بدأ بيبرس المنصوري حين وصوله الإسكندرية بتفقد الأحوال فيها، حيث وجد سفناً صليبية مصدرها مدينة جنوه [في إيطاليا] تقوم بالاعتداء على المراكب الإسلامية والاستيلاء عليها، لذلك قام باتخاذ إجراءات تمثلت بإرسال العيون لرصد حركة تلك السفن أولاً، ثم مطاردتها من قبل الشواني [السفن] في البحر المتوسط ثانياً، وقد أشار بيبرس لذلك فذكر أن أحد المراكب الصليبية الجنوية كانت قد اقتربت من سواحل

(١) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣١-٥٣٢.
(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.
(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٥١.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٥٧.
(٦) الشواني: جمع شيني (شينية) هي السفن الحربية. عاشور، العصر المماليكي، ص٤٥٢.
(٧) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٢.

الإسكندرية، فوضع خطة تدل على حنكته العسكرية تمكن من خلالها الاستيلاء عليه "...فأعلمت الحيلة عليه [المركب الجنوي] وبينت الرماة بالقسي في مراكب من الجوز الذي يأتي إليه، فأعان الله على أخذه قهراً والتمكن ممن كان فيه من الفرنج قتلاً وأسراً..."(١).

أرسل بيبرس المنصوري طاقم المركب الأسرى- وكان عددهم يقارب المائة- إلى السلطان الناصر محمد(٢) الذي لم يتسلمهم، لأنه كان قد خلع من السلطنة على يد الأمير زين الدين كتبغا عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م الذي جلس مكانه، وتلقب بالعادل، وقد ذكر بيبرس أنه كان أثناء ذلك مقيماً في الإسكندرية "وكنت يومئذ بالإسكندرية، فلم أشعر إلا وقد وردت البطائق [الرسائل] بجلوسه في السلطنة والخطبة له في جميع الأمكنة..."(٣).

وخلال وجوده في الإسكندرية كلفه السلطان الجديد بأن يتولى رعاية مصالح الصعاليك(٤) والفقراء فيها، وذلك أبان المجاعة التي حصلت في مصر عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م نتيجة لانخفاض مستوى نهر النيل، وفي هذا قال:" وكنت متولياً أمر توزيعهم [أي الصعاليك والفقراء] على التجار وأرباب المعايش والأيسار، ووظفت على نفسي منهم جماعة، وأجريت عليهم جارياً قام بأودهم إلى أن انقضت المجاعة، وتواصلت الغلال إلى الإسكندرية، وتواترت من جزيرة صقلية والقسطنطينية وبلد الفرنجية"(٥).

عاد بيبرس المنصوري بعد إنهاء مهمته في الإسكندرية إلى القاهرة التي كان قد تفاعل مع أوضاع أهلها جراء المجاعة التي عمت أرجاء مصر، ويظهر ذلك من قوله:" وعُدت... إلى الأبواب السلطانية، فوجدت حال أهل القاهرة قد آل إلى التلف من المرض الشامل والموت العاجل..."(٦).

---

(١) المنصوري، التحفة، ص١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٢.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٥.

(٤) الصعاليك: يطلق هذا المصطلح على كل من لا يملك شيئاً. انظر البقلي، التعريف، ص٢٢٢.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٥-٣٠٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٢٩٩-٣٠٠.

لم يطل مُكوث بيبرس المنصوري في القاهرة، فقد قام السلطان العادل في السنة نفسها بتجريده إلى برقه[١] للتحقق من صحة الخبر الواصل إليه، والمتمثل في "...أن العربان ببرقا (برقه) قد عبثوا بالمسلمين وباعوا منهم جماعة للفرنـج، وأن منصور ابن روق كان الباعث على بيعهم بسبب الغلاء الذي عمّ البلاد [نتيجة المجاعه] وأحوج الآبا [الآباء] الى بيع الأولاد...".

سار بيبرس المنصوري بمعية الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي وأصحابه إلى برقه لتحقيق الهدف المنشود، وعندما وصلوا تروجه[٢] جاء البريد لبيبرس مخبراً بخلع العادل زين الدين كتبغا من السلطنة، واستقرار الأمير حسام الدين لاجين المنصوري فيها، عندها عاد بيبرس المنصوري ومن معه بأمر من السلطان الجديد إلى القاهرة في أوائل سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م دون أن يتحقق ما خرجوا من أجله[٣].

لم يذكر بيبرس المنصوري أي دور له في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين، لأنه استبعد في عهده من قبل نائب السلطنة في مصر الأمير سيف الدين منكوتمر (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) إلى بلاد الأشمونين[٤]، مما يبدو أنه لم يكن مرضياً عنه.

إن المعلومات التي رواها بيبرس المنصوري سابقاً تنفي ما قاله ابن حجر العسقلاني من أن بيبرس المنصوري استمر دواداراً للسلطان المنصور حسام الدين لاجين[٥].

---

(١) برقه: منطقة كبيرة تقع في ليبيا، وتشتمل على مدن وقرى. انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، مج١، ص١٨٦-١٨٧.

(٢) تروجه: قرية بمصر من أعمال الإسكندرية. انظر الحموي، معجم البلدان، مج١، ص٢٠٠.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٣١٩.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١٥٥. والأشمونين: أصلها أشمون، ولكن أهل مصر يقولون عنها الأشمونين، وهي مدينة من مدن الصعيد الأدنى غربي نهر النيل. انظر الحموي، معجم البلدان، مج١، ص٢٠٠؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج١، ص٨٤.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

٧. دوره في سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٢م).

عاد بيبرس إلى القاهرة من بلاد الأشمونين التي أبعده إليها الأمير سيف الدين منكوتمر كما ذكر آنفاً، وقد ذكر أنه صادف يوم وصوله إليها يوم جلوس الملك الناصر في دست السلطنة إثر مقتل السلطان المنصور حسام الدين لاجين ونائبه الأمير سيف الدين منكوتمر، حيث يقول: "فحضرت من بلاد الأشمونين [عام٦٩٨هـ/١٢٩٨م]، وصادفت يوم جلوسه، وتلقاني الدهر بطلاقته بعد عبوسة، فحمدت الله إذ أبعدني عن الضراء وأدناني من السراء، فجلست يومئذ ومن حضر من الأمراء [الذين تم استبعادهم معه أيام السلطان المنصور لاجين]"(١).

يفهم مما تقدم أن بيبرس المنصوري أمضى أياماً عصيبة في بلاد الأشمونين، وأن عودة الملك الناصر محمد للسلطنة كانت بمثابة الفرج له لاستعادة هيبته التي ضاعت أيام السلطان المنصور حسام الدين لاجين ونائبه منكوتمر.

لما استقر السلطان الناصر بالسلطنة استدعى الأمراء والأكابر أرباب الآراء والمشاورة للاجتماع في القلعة لأقرار أسماء الأمراء الذين سيتولون المناصب السياسية والإدارية في الدولة، وقد أشار بيبرس إلى أنه كان أحد المدعوين لهذا الاجتماع، مما يعني أنه أصبح واحداً من خاصة السلطان الذين يقدمون الرأي والمشورة له(٢).

ابتدأ السلطان الناصر عهده الثاني -بعد إقراره مع الأمراء أسماء الذين سيتولون المناصب في الدولة- بالتوجه لبلاد الشام عام٦٩٨هـ/١٢٩٩م بهدف إحباط التحركات المغولية عليها(٣)، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان أقره في غيبته نائباً(٤) بقلعة

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٥٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٤٥٢.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٨-٣٢٩.

(٤) نائب الغيبة: هو الذي يترك (وشأنه في الحكم) إذا غاب السلطان والنائب الكافل، وليس إلا لإخماد الثوائر وخلاص الحقوق، فحكمه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨.

الجبل في القاهرة وانتهت السنة المشار إليها آنفاً وهو كذلك[1].

لما وصل السلطان الناصر الشام اصطدم مع إيلخان المغول محمود غازان بن أرغون في موقعة عُرفت بـ"مجمع المروج" عام٦٩٩هـ/١٢٩٩م، انهزم فيها السلطان الناصر، وقد أشار بيبرس إلى دوره حين علم بخبر الموقعة وكان يومئذ نائب السلطان بالقلعة "... ولما وصل البريد بهذا الخبر(أي: هزيمة السلطان) إلى القلعة...، أخفيت أمره وأظهرت ضده، وتقدمت بضرب الطبلخاناه وتحريك الكوسات، فزالت الأوهام وسكنت غوغاء العوام، ووصل السلطان إلى الديار المصرية وهي آمنه وأحوالها ساكنه..."[2].

بعد وصول السلطان الناصر مصر إثر الهزيمة التي مُني بها مع المغول قام بتجريد بيبرس المنصوري ومن كان مقيماً معه في القلعة ممن لم يشهد الوقعة المشار إليها آنفاً إلى الصالحية في الشام، بهدف تسكين خواطر النواب في تلك الجهات، وإخبارهم بأن السلطان سيرسل الإمدادات العسكرية إليهم، لإنقاذهم من المغول الذين بدءوا باجتياح بلاد الشام بقيادة غازان، وقد ذكر بيبرس أنه سار إليها وأنفذ المهمة بنجاح حتى حصل للنواب القوة والمنعة أمام المغول[3].

عمل السلطان الناصر على تهدئة الأوضاع الخارجية مع المغول بهدف التفرغ لحركات التمرد والعصيان التي كانت تقوم بها القبائل العربية في صعيد مصر، ففي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م اختلفت عربان بلاد البحيرة[4] مع بعضها البعض، فبعث السلطان إليهم حملة تأديبية بقيادة بيبرس المنصوري لإخماد فتنتهم وإطفاء جمرتهم، وقد جرد معه من أمراء الطبلخانات عشرين أميراً، وقد تمكنت الحملة من الوصول إلى تروجه

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٨-٣٢٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٤٦١؛ انظر كذلك النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٠؛ المقريزي، المقفى، ج٧، ص١٦٦-١٦٧.

(٢) المنصوري، التحفة، ص١٥٦-١٥٧؛ المنصوري، مختار، ص١١١-١١٢.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٤-٣٤٥.

(٤) بلاد البحيرة: كورة من كور الإسكندرية فيها قرى كثيرة. انظر الحموي، معجم البلدان، مج١، ص٣٥١؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج١، ص١٦٨.

كما يذكر بيبرس "... فسرنا سيراً حثيثاً، فوجدناهم قد اتقعوا وافترقوا، فتبعناهم فانهزموا وقصدوا الليونة وغربي الإسكندرية، فأخذنا مواشيهم من الجمال والأغنام، وسيقت إلى الباب الشريف، وأحضرنا هؤلاء العربان بالأمان، وقررنا قواعدهم ونظمنا الصلح بينهم، وعدنا إلى الأبواب الشريفة"[١].

وفي أعقاب ذلك ثار العربان في منطقة الصعيد، مما دفع السلطان الناصر محمد إلى تجريد الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إليها بهدف التحقق من ثورتهم، ثم بعث في أثره بيبرس المنصوري الذي يذكر أنه توجه إليها، واجتمع في منفلوط في الأمير المشار إليه آنفاً، وقاما بإحضار أعيانهم [العربان] "وقررت عليهم جناية من المال والخيل والجمال والسلاح، وجبيت فكانت ألف ألف وخمس مائة ألف درهم وألف رأس خيل وألفي جمل وعشرة ألف غنم، وحسمت مادتهم [ثورتهم]"[٢].

لم ينته تمرد العربان في الوجه القبلي [الصعيد]، فقد قاموا في العام التالي (أي: سنة٧٠١هـ/١٣٠١م) بالاعتداء على التجار وأرباب المعايش في أسيوط[٣] ومنفلوط[٤]، الأمر الذي دفع السلطان الناصر محمد إلى إرسال حملة إليهم تمكنت من تصفيتهم وإخماد ثورتهم، وقد ذكر المقريزي[٥]، وابن تغري بردي[٦] أن بيبرس المنصوري كان أحد المشاركين فيها.

ولما استقرت الأوضاع في صعيد مصر قام السلطان الناصر بإرسال ثلاثة وفود لأداء فريضة الحج، بلغ عددهم ثلاثين أميراً، وقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنه عُين أميراً

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٨-٣٤٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٢١-١٢٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٥١؛ المنصوري، مختار، ص١١٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٣٩-١٤٠.

(٣) أسيوط: مدينة تقع غربي نهر النيل من نواحي صعيد مصر. انظر الحموي، معجم البلدان، مج١، ص١٩٣؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج١، ص٧٩.

(٤) مَنْفَلَوط: بلده تقع في صعيد مصر في غربي نهر النيل. انظر الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص٢١٤؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج٣، ص١٣٢٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ق٣، ج١، ص٩٢٠-٩٢٢.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٤٩-١٥٤.

للحج على الوفد المصري، وهذا يظهر من قوله: "فندبت للتقدم على الركب المصري، وكان ركباً كبيراً قد جمع خلقاً كثيراً"[1].

ولما وصل بيبرس المنصوري مكة المكرمة اجتمع في المقر الأشرف الأميري الركني أستاذ الدار أمير الوفد الثاني، وقد ذكر بيبرس أنه حضر إليهم اثنان من أولاد الشريف نجم الدين أبي نُمي أمير مكة المتوفى، وهما عُطيفة وأبي الغيث، وشكيا من أخويهما أسد الدين رمُيثة وعزالدين حميضة أنهما وثبا بعد وفاة أبيهم عليهما واعتقلاهما، ففرا من الاعتقال، فقبض على رميثة وحميضة وحملا إلى مصر، واستقر عوضهما في إمارة مكة عُطيفة وأبي الغيث[2].

بعد أداء بيبرس المنصوري فريضة الحج عاد إلى مصر في الوقت الذي عاود فيه المغول حملاتهم على بلاد الشام، الأمر الذي دفع السلطان الناصر لعقد اجتماع طارئ اتفق فيه الأمراء على تجريد حملة عسكرية بهدف "... تقوية جأش أهل الشام، وتثبيتاً لجيوشه على المقام إلى أن يتضح الحال ويزول الإشكال...". وقد تم إرسال ستة من مقدمي الألوف على رأس هذه الحملة ذكر بيبرس المنصوري أنه كان واحداً منهم "... فكنا ستة من مقدمي الألوف وجماعة المضافين من الأمراء والمقدمين، فرحلنا من مسجد التبن في الثامن عشر من رجب...(٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وسرنا على اسم الله وبركته، فلما وصلنا قاقون تواترت الأخبار بصحة وصول التتار [المغول] وأن قازان كان فيهم..."[3].

أشار بيبرس المنصوري بعد ذلك إلى أن الحملة تقدمت إلى دمشق، فدخلوها في ١٠ شعبان ٧٠٢هـ/١٣٠٢م بهدف مراقبة تحركات المغول عن كثب، وقد صور بيبرس فرحة

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٤؛ انظر كذلك العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٩٥-١٩٦؛ المقريزي، السلوك، ق١،ج١، ص٩٢٤؛عمر بن محمد بن فهد(ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار المدني، (د.ط)، جدة، (د.ت)، ج٣، ص١٣٤-١٣٥.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٧.

العامة حين قدومهم إليها، فقال: "... [و] استبشر أهلها وفرحوا... "في الوقت الذي كانت فيه عساكر الولايات الشامية (حلب، حماة، طرابلس، دمشق) كما يذكر بيبرس قد تقدمت إلى القريتين التي اصطدموا فيها مع المغول الذين هُزموا بقيادة قطلوشاة.

بعد هذه الهزيمة اجتمع المغول مع بقية عساكرهم، واتفقوا على مباغتة العساكر الشامية والمصرية الموجودة في دمشق مستغلين عدم تحرك السلطان الناصر من مصر لمساندتهم، وقد قدم بيبرس صورة واضحة عن أوضاعهم حين علموا بتقدم المغول إليهم، فقال: "...فكثرت الأراجيف بمفاجأتهم والإنذار بمهاجمتهم هذا، والسلطان ومن معه لم يتحقق حالهم وعلم إقبالهم، فتقسمت الأفكار والظنون، وتطلعت لقدومه العيون، واجتمعنا للاستخارة واقتدحنا زناد الاستشارة، فاجمعنا على استطلاع الحال قبل العزم على الترحال".

أوكلت مهمة التحقق من قدوم المغول إلى بيبرس المنصوري، ومن معه من أمراء مصر الذين خرجوا من دمشق، وقد تحدث هو عن ذلك فقال: " فتوجهت مستكشفاً والأخبار متعرفاً، فلما وصلنا القطيفة صادفنا عسكر حلب وحمص وحماة...وأخبروا بأن العدو ساير [سائر] سير المجد في الرواح والغدو... فرجعنا إلى مرج راهط [بنواحي دمشق]... ريثما يحصل التوثق من وصول السلطان"[1].

تأخر السلطان في القدوم إلى الشام الأمر الذي أدى إلى اضطراب أحوال الأهالي والعساكر الشامية والمصرية، وقد بقوا على ذلك فترة حتى جاء البريد وفي هذا يقول بيبرس مصوراً وضعه في تلك الأثناء وكيف كان دوره في طمأنة الأمراء والأهالي: "... وبينا أنا مفكر في هذا الأمر [الأوضاع المشار إليها آنفاً]، مر بي بريد راكض، فساءلته عن السلطان، فأخبر باقترابه ووصوله في أطلابه[2]، فقصدت تحقيق روايته، والوقوف

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٣-٣٧٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٣-١٦٥.

(٢) الأطلاب: جمع طلب، وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، ويطلق كذلك على قائد المائة أو السبعين. انظر عاشور، العصر المماليكي، ص٤٥٥.

على كتبه، فأخذتها منه غصباً، وأوجعته ضرباً لما كنت فيه من التحرق على الإسلام، والقلق الذي منع الأجفان لذيذ المنام. فلما وقفت على الكتب، وتيقنت وصول السلطان عن كتب قرأتها على الأمراء، وأخذت في رد العساكر التي قصدت التأخير، وعجلت إلى الرجوع المسير ليعودوا إلى مرج الصُّفَر، فتراجعوا إليه..."[1]

وما إن وصل السلطان حتى قسم العساكر الشامية والمصرية ثلاثة أقسام هي: القلب والميمنة والميسرة، واصطدم في موقعة مع المغول عُرفت بـ "مرج الصُّفَّر" عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م أسفرت عن هزيمة المغول، أما دور بيبرس المنصوري فيها، فقد ذكر هو عن نفسه أنه كان في ميسرة الجيش[2].

أرسل بيبرس المنصوري إلى النواب في مصر كتاباً تضمن البشارة بالنصر على المغول[3]، ثم عادوا بعد ذلك من الشام لمصر كما يذكر فأقاموا فيها، وقد أغدق عليهم السلطان المنح والهدايا بمناسبة النصر على المغول[4].

لم يلبث بيبرس المنصوري طويلاً في القاهرة، فقد صدرت أوامر السلطان الناصر في أعقاب عودته من الشام عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م بتوجيهه إلى ثغر الإسكندرية لترميم أسواره وخنادقه وعمارة ما تساقط من مبانيه ومرافقه بسبب الزلزال الذي ضرب مختلف أرجاء مصر، وكان أكثر تأثيراً في ثغر الإسكندرية الذي كان الناس يظنون أن عمارته تحتاج للمال الكثير والوقت الطويل، ولكن بيبرس المسؤول عن عملية الإعمار يقول: "... فيسر الله تعالى مرامه، وعُمر في أقرب مدة بأيسر مؤونة، وأقل نفقه بسعادة مولانا السلطان..."[5].

---

(١) المنصوري، مختار، ص١٢٣-١٢٤.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٥-٣٧٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٥-١٦٦؛ المنصوري، مختار، ص١٢٤-١٢٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦-٢١؛ ذكر المقريزي هذه الموقعة ومشاركة بيبرس المنصوري فيها، ولكن أطلق عليها اسم موقعة شقحب. انظر المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٨-٥٣٩. ج٧، ص١٨٠-١٨٥.

(٣) المنصوري، مختار، ص١٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٥) المنصوري، التحفة، ص١٧٣؛ ذكر ابن إياس أن بيبرس المنصوري حين توجه إلى ثغر الإسكندرية ==

كان لهذا الإنجاز، وما قام به بيبرس المنصوري من إنجازات أخرى في سلطنة الناصر محمد الأولى والثانية الأثر الكبير في أن يقوم الأخير بترشيحه سنة٧٠٣هـ/١٣٠٣م لحمل الشتر (الجتر)[١] السلطاني في المواكب الشريفة، وفي هذا يقول بيبرس "... فشكرت نعمته التي أحلتني هذا المحل، وأيادي بره التي غمرتني منه (الناصر محمد) ومن أبيه (السلطان المنصور قلاوون) من قبل..."[٢]. كما كان لها الأثر في جعل السلطان الناصر يقوم بانتدابه سنة٧٠٤هـ/١٣٠٥م لرئاسة الوفد المصري المتوجه إلى مكة لأداء مناسك الحج[٣].

وما أن عاد بيبرس من مكة حتى وجه السلطان الناصر سنة٧٠٥هـ/١٣٠٦م حملة عسكرية نحو سيس بسبب رفض صاحبها دفع الضريبة المقرره عليه للدولة المملوكية، وقد كانت هذه الحملة برئاسة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح الذي ذكر بيبرس المنصوري أنه عُين كمساعد له في هذه الحملة للقيام بمعظم مهامه خاصة المتعلقة منها بالبريد كونه دوادار "...وكنت في المجردين، فرسم لي بالحديث معه في تقدمة العسكر وتدبير أحوال التجريد، وتلقي الوارد والصادر من البريد لأن المشار إليه كان قد تمكن منه الكبر وخانه الثقتان ؛ السمع والبصر، فلم يكن يستبين شخصاً ولا يسمع لمخاطب نصّاً، فتحدثت في التقدمة وأسبابها وحملت عنه جميع أتعابها، ولم أقطع أمراً دون عرضه عليه، وتوصيله إليه رعايةً لقدمته وحفظاً لسابقته".

خرجت الحملة بعد استكمال استعداداتها من القاهرة في منتصف شعبان سنة

= لعمارته وجد أن عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشر برجاً، ونحو ستة وأربعين بدنة. انظر محمد بن أحمد بن أياس الحنفي(ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة١٩٨٢م، ق١، ج١، ص٤١٦-٤١٧.

(١) الشتر(الجِتر): وهي المِظَلَّة أو قُبَة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائرٌ من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٦.

(٢) المنصوري، التحفة، ص١٧٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٠٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص١١؛ ابن فهد، اتحاف الورى، ج٣، ص١٤٠-١٤٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٦٦-٣٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢١٥.

٧٠٥هـ/١٣٠٦م، ووصلت غزة، حيث تمركزت فيها، ومن هناك أرسل بيبرس المنصوري العديد من الكتب إلى الأمير شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة بحلب يخبره فيها بوصولهم إلى غزة، وبقي الوضع على ما هو عليه حتى جاءت أوامر السلطان الناصر بعودة الحملة إلى مصر، وذلك بسبب وصول الخبر إليه من نائب حلب بأن صاحب سيس لما سمع بقدوم الحملة أنصاع لطاعة السلطان ودفع ما كان مترتب عليه من الضرائب، وفي هذا يقول بيبرس: "... فاقتضى الحال عودنا... من غزة أخر شوال، والوصول إلى [مصر] أول ذي الحجة..."[١].

وربما يثار هنا سؤال هو: هل عُزل بيبرس المنصوري في عهد السلطان الناصر من وظيفة الدوادارية؟

لقد أورد المقريزي وابن حجر العسقلاني رواية مفادها أن بيبرس المنصوري عُزل من وظيفة الدوادارية عام٧٠٤هـ/١٣٠٥م، بسبب أنه أرسل إلى القاضي شرف الدين عبدالوهاب كاتب السر أن يكتب إلى نائب الشام كتاباً، فأخبره أنه لا بد من مشاورة السلطان أو النائب، فغضب بيبرس المنصوري واستدعاه وعنفه وضربه على رأسه، فخرج من عنده إلى الأمير سلار النائب، فأخبره بما حدث، فأقره عنده، ثم اجتمع بالأمراء بمن فيهم الأمير بيبرس الجاشنكير، واتفقوا على بيبرس المنصوري، حيث أخذ سيفه وعوق من بكرة النهار إلى الظهر، وعنف تعنيفاً زائداً، وعزل عن الدوادارية[٢].

إن ما تقدم يتعارض مع سياق الأحداث، وما صرح به بيبرس المنصوري نفسه آنفاً عند حديثه عن دوره في حملة سيس، مما يحمل الباحث على عدم قبول هذا الخبر، ولا سيما كذلك أن ما سيأتي عن دور بيبرس المنصوري في التوفيق بين الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سيف الدين سلار يتناقض مع هذه الرواية.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٣-٣٨٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٧٧-١٧٨؛ العيني،عقد الجمان، ج٤، ص٣٨٢-٣٨٣؛ المقريزي،السلوك، ق١،ج٢، ص١٦-١٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٨؛ ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

وما أن دخلت سنة٧٠٦هـ/١٣٠٧م حتى بدأت الأوضاع الداخلية في البلاط المملوكي بالتأزم، فقد حدث تنافر بين القائمين بأمور الدولة المملوكية لا سيما الأمير بيبرس الجاشنكير[١] والأمير سلار بسبب الأمير علم الدين سنجر الجاولي الذي تغير عليه الأمير بيبرس الجاشنكير بفعل وشاية التاج ابن سعيد الدولة الكاتب، وقد كان الجاولي صديقاً للأمير سلار الذي قاطع الأمير بيبرس الجاشنكير من أجله، مما دفع هذا الوضع الأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري إلى السعي في الإصلاح بين الطرفين، وقد أشار إلى ذلك المقريزي "... وما زالو بهما حتى سكن الشر، وأُخرج الجاولي إلى الشام... فعاد بيبرس [الجاشنكير] إلى ما كان عليه من موادة سلار"[٢].

ومن الملاحظ أن بيبرس المنصوري كان رجلاً يوفق بين الآخرين، فقد قام في سنة٧٠٧هـ/١٣٠٧م بمحاولة التوفيق بين السلطان الناصر وكلٍ من الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار إثر نفي الأميرين المذكورين بعض مماليك السلطان إلى القدس ظناً منهما أنهم كانوا السبب في تحريض السلطان عليهما، وفي ذلك يقول بيبرس أنه أشار عليهما" سراً وجهراً بان تعاد مماليك السلطان إليه، ويرد كل منهم مخلوعاً عليه لتزول الأثرة وتنجلي الغمرة...".

لم يقبل الأميران برأي بيبرس المنصوري الذي يذكر أنهما علما فيما بعد"... أن الرشاد فيما قلته والصواب فيما رايته..."[٣]. لذلك قاما باستدعاء أحدهم من القدس، وفي ظل هذه الظروف كان الأمير جمال الدين اقوش الافرم نائب السلطنة بدمشق قد كتب كتاباً إلى الأمراء بضرورة التدخل في الإصلاح بين الطرفين، وفي هذا يذكر بيبرس أنه أرسل إليه الجواب بأن الأمور قد استقرت بينهم، وأن هذه الفتنة لم تكن سوى نوع من العتاب[٤].

---

(١) الجاشنكير: هو الذي يتصدى لتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدسّ عليه فيه سُم، ويتألف اللفظ من كلمتين فارسيتين؛ جاشنا، ومعناها: الذوق، وكير، ومعناها: المتناول(المتعاطي). انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢١، ٤٦؛ البقلي، التعريف، ص٨٠؛ دهمان، معجم الألفاظ، ص٥٠.

(٢) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٤١؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٢٣-٢٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٩٢-٣٩٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٨٢.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٩٢-٣٩٣.

وفي إطار العلاقات الخارجية كان له رأي جرئ عندما بلغه أن الأمير سيف الدين سلار عام٧٠٧هـ/١٣٠٧م ينوي الخروج بجيش لغزو اليمن، حيث قال: "... إن هذا الأمر مضرته أضعاف منفعته، وكلفته أمثال عائدته، وأن فيه فساداً ظاهراً وتكليفاً حاضراً، ولم يكن هناك باعث يوجبه ويقتضيه، ولا كبير أمر يلجئ إلى الدخول فيه، وأن تخلو البلاد من أعيان العساكر ويستنفد جل ما في الذخائر لأمر يغني فيه الكتب عن الكتائب والرسائل عن الذوابل، ويترك الوجه الشرقي الذي يقدم بضبطه الاهتمام وتبدي أمره كل المهام..."[1].

٨. دوره في الصراع الذي حدث بين الملك الناصر محمد وكلٍ من بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار (٧٠٨-٧١٠هـ/١٣٠٨-١٣١٠م).

وفي سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م قرر السلطان الناصر محمد مفارقة الديار المصرية للتخلص من سيطرة الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار، وأظهر أنه يريد الذهاب إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، وفي الحقيقة كان ينوي الذهاب إلى الكرك.

ومع أن السلطان الناصر اخفى خطته هذه، إلا أن الأميرين المشار إليهما عرفا أن السلطان ينوي من ذلك الإنتقال إلى الكرك، ولهذا عقدا اجتماعاً حضره بيبرس المنصوري الذي رد فيه عليهما بأن السلطان سيبقى سلطاناً بغض النظر عن مكان إقامته ما دمتما على طاعته وحفظ بيعته[2].

وفي أعقاب ذلك، دعا السلطان الناصر الأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري في ١٥ رمضان ٧٠٨هـ/١٣٠٩م إلى اجتماع أوصاهم فيه بالاتفاق وعدم الشقاق في غيبته، فأجابوا بالسمع والطاعة[3].

---

(١) المنصوري، التحفة، ص١٨٣-١٨٤

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٠٣-٤٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٨٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٠٣-٤٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٨٨.

توجه السلطان الناصر بعد ذلك بمعية العديد من الأمراء إلى الكرك، فوصلها يوم الأحد ١٠ شوال ٧٠٨هـ/١٣٠٩م فأقام بها، ثم أعاد بعض الأمراء الذين رافقوه إلى مصر وبرفقتهم كتاب صادر منه تضمن تنازله عن السلطنة ورغبته في البقاء في الكرك، ناهيك عن أذنه لهم بإقامة من يصلح للسلطنة من بينهم.

وصل الأمراء بكتاب السلطان الناصر إلى مصر، وعند ذلك اجتمع الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار والأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري للتشاور فيما تضمنه كتاب السلطان، وقد أشار بيبرس المنصوري على الأميرين المشار إليهما بأنه ينبغي مراسلة السلطان ومراجعتة واستعطافه ليعود إلى السلطنة، وأن يتوجه إليه في هذه الرسالة كبار الأمراء، فأجاب الأميران أنه "... متى حصلت المراجعة والمفاوضة يخشى من عبث الجمهور والاضطراب في الأمور، ونحن نجتمع في القلعة وقت الظهيرة، وننظر في هذه المشورة...". عند ذلك أمسك بيبرس عن الجواب، ورجع كل إلى منزله[1].

عاود الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سيف الدين سلار الاجتماع بالأمراء على اختلاف طبقاتهم وقت الظهيرة للتشاور فيمن يلي السلطنة، فأشار بيبرس المنصوري وعدد من الأمراء إلى أنه يجب عرض الأمر على الخليفة والقضاة لمعرفة رأيهم قبل اتخاذ أية خطوة "فخرج الطلب لهم، وحضروا، فقرئ عليهم كتاب السلطان، وشهد عند قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي الأميران عز الدين الخطيري والحاج آل ملك، ومن كان معهم من الأمراء، بنزول الملك الناصر عن المملكة، وترك سلطنة مصر والشام"[2].

وبعد قراءة كتاب السلطان أشار الأمراء بمن فيهم بيبرس المنصوري على الأميرين المشار إليهما بأنهما كانا "المدبرين لسلطنته [أي للناصر محمد] والأمر إليكما في غيبته، فتفاوضا فيمن يقوم... بالأمر [السلطنة]...".

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٠٤-٤٠٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٨٩-١٩١.

(٢) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٤٥-٤٦.

أعلن الأمير بيبرس الجاشنكير نفسه سلطاناً للدولة المملوكية وتلقب بالمظفر، بعد مشاورته للأمير سلار الذي أصبح نائباً له[1].

لم يلق تقلد بيبرس الجاشنكير السلطنة استجابة عدد كبير من الأمراء الموالين للسلطان الناصر في مصر، الأمر الذي دفعهم لتركها عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م واللحاق بالسلطان في الكرك[2].

وما إن علم السلطان المظفر الجاشنكير بهروب الأمراء إلى الكرك حتى اصدر أمره بالقبض عليهم وعلى المتبقين منهم في مصر لاتهامه إياهم بالمواطأة معهم فضلاً عن مصادرته أقطاعاتهم[3].

لم تلق سياسة السلطان المظفر الجاشنكير هذه قبولاً لدى بيبرس المنصوري فقد اعترض، وأشار على أولئك الذين دفعوا السلطان إليها "... بان لا يفعلوا لأن في ذلك إجحافاً وإصابةً للأبرياء وأفساداً للخواطر فلم تقبل هذه الإشارة، ولما تحقق وصولهم إلى السلطان [الناصر] أشرت بان المصلحة تقتضي التلطف وأن تعين لهم أقطاعات تقوم بهم في خدمته، فلم يعرجوا على ذلك"[4].

وإذا كان بيبرس المنصوري قد وقف إلى جانب تهدئة الأوضاع في مصر ودفعها بعيداً عن التأزم كما هو واضح مما تقدم، فإنه فعل الشيء ذاته عندما دعاه السلطان الجاشنكير للتشاور بشأن إرسال تجريده إلى بلاد الشام لضرب أمرائها الذين حلفوا للملك الناصر محمد عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م على أن يؤيدوه في استعادة ملكه، فقد أشار عليه بوجوب إطفاء الفتنة والتنازل عن السلطنة للملك الناصر محمد[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٠٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٩٤.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٩٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٩٤.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٤-٤١٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٩٤-١٩٥؛ انظر كذلك المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٥١-٥٥٣،ج٧، ص١٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٦٨-٢٧٢، ج٩، ص٣-٥.

لم يأخذ السلطان الجاشنكير برأي بيبرس المنصوري الأمر الذي جعل الأوضاع الداخلية للدولة المملوكية تتأزم، فقد أرسل رسالة تتضمن التهديد والوعيد للناصر محمد الذي قام بدوره بمراسلة أمراء بلاد الشام يستحثهم على مساعدته في استعادة ملكه[١]، وقد بعث هذه الرسائل مع جندي يسمى تاج الدين أوران الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه كان يخدم عنده أيام ولايته على الكرك عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م[٢].

اكتشف السلطان الجاشنكير هذه الرسائل الأمر الذي أثار حفيظته، ويذكر بيبرس المنصوري أنه كلما اجتمع بالسلطان الجاشنكير كان يقوم بنصحه في حفظ نظام الدين وحقن دماء المسلمين وإخماد الفتن بطلب المسالمة، ولكن حين يخرج من عنده يقوم أتباعه بتحريضه على قتال الناصر محمد.

استجاب أمراء الشام لنداء الملك الناصر محمد الذي قام على إثر ذلك بالتوجه من الكرك إلى دمشق حيث اتخذ الاستعدادات المناسبة لاستعادة عرشه في مصر، وفي ظل هذه الظروف يذكر بيبرس المنصوري أنه كان ما يزال يقدم النصح للسلطان الجاشنكير "... بأن في السلم السلامة وفيما سواه ندامة..."[٣].

بعد ذلك توجه الملك الناصر في يوم الثلاثاء ٩ رمضان ٧٠٩هـ/١٣٠٩م من دمشق إلى غزة بهدف استعادة عرشه في مصر، الأمر الذي دفع السلطان الجاشنكير إلى استشارة الأمير سيف الدين سلار وبكتوت الجوكندار وقمجاز السلاح دار فيما يفعله، فأشاروا عليه بأنه يجب "مراسلة السلطان بالاستعطاف والتوبة والاستغفار والتماس مكان يأوي إليه هو [الجاشنكير] وألزامه وعياله قبل إدراك العساكر وإشهار البواتر واستحكام القهر والغلبة وتعذر الإجابة إلى هذه الطلبة..."[٤].

وافق الجاشنكير على هذا الرأي، فانتدب اثنين من كبار دولته وهما؛ بيبرس المنصوري والأمير سيف الدين بهادر آص ليكونا سفيريه إلى الملك الناصر، حيث

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٥-٤١٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٩٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٦.

(٣) المنصوري، التحفة، ص١٩٧-١٩٨.

(٤) المنصوري، التحفة، ص٢٠١.

حملهما كتاب تضمن طلبه الأمان منه وإقطاعه أحد الأماكن الثلاثة التالية؛ الكرك أو حماة أو صهيون. ناهيك عن تنازله عن السلطنة للملك الناصر[١].

ومن الجدير بالذكر أن الحاشنكير قرر مع سفيريه أنه ينزل من القلعة ويقيم قريباً من إطفيح[٢] إلى أن يعودا بأمان الملك الناصر[٣].

سار بيبرس المنصوري كما يذكر مع الأمير بهادر آص برسالة الجاشنكير إلى الملك الناصر، حيث وصلا غزة واجتمعا به وأخبراه بمضمون الرسالة، فاستبشر بحقن الدماء وسكون الفتنة، وأغدق على السفيرين الأموال، ثم أعادهما بالجواب إلى الجاشنكير ورحل الملك الناصر تجاه مصر[٤].

عاد بيبرس المنصوري والأمير بهادر آص إلى قلعة الجبل بالقاهرة في ٢٥ رمضان ٧٠٩هـ/١٣٠٩م ومعهما أمان الملك الناصر للسلطان الجاشنكير الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه حين وصولهما لم يجده مقيماً في الموضع الذي اتفقا معه عليه للالتقاء وهو إطفيح، بل وجداه قد غادره مع مماليكه وخاصته والأموال التي كانت في خزينة الدولة والخيول التي كانت بالإسطبلات السلطانية خوفاً من الملك الناصر إلى إخميم، لذلك قاما بإرسال أمان الملك الناصر محمد إليه مع أحد الأشخاص ليلحقه به، وعادا ليلتحقا بالملك الناصر الذي كان قد وصل إلى بركة الحاج فعيد بها عيد الفطر، ثم توجه إلى قلعة الجبل في القاهرة[٥]، حيث جلس في يوم الخميس ٢ شوال ٧٠٩هـ/١٣٠٩م في دست السلطنة[٦].

---

(١) المنصوري، التحفة، ص٢٠٢.

(٢) إطفيح: بكسر الألف، بلد يقع في صعيد مصر في الجهة الشرقية من نهر النيل. انظر الحموي، معجم البلدان، مج١، ص٢١٨.

(٣) المنصوري، التحفة، ص٢٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(٥) المنصوري، التحفة، ص٢٠١-٢٠٤؛ انظر كذلك أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٩٨-٣٩٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٠٩-١١٠، ١١٥؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٣٦٧-٣٦٨؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص٤٨٤-٤٨٥.

(٦) المنصوري، التحفة، ص٢٠٦.

٩. دوره في عهد السلطان الناصر محمد(سلطنته الثالثة٧٠٩-٧٢٥هـ/١٣٠٩-١٣٢٤م).

لم يترك الملك الناصر بعد عودته للسلطنة الجاشنكير وشأنه، فقد بعث إليه بيبرس المنصوري والأمير بهادر آص لاستعادة الأموال التي أخذها من خزينة الدولة عند رحيله، وقد أشار بيبرس نفسه إلى ذلك، فقال: "فسرت إليه أنا والأمير سيف الدين بهادر آص حتى انتهينا إلى إخميم[1] وألفيناه بها في عيش ذميم... فتلطفنا في استخراج الخزائن من حرزه وأعلمناه إنه لا مندوحة له عن أبواب مولانا السلطان والتماس العفو والإحسان ولعله يمتن عليه بمكان. فسأل أن يعين له المكان ويشمله الأمان، ويتوجه إليه من غير مثول بين يديه خوفاً من سطواته، وتحذراً من نقماته لعلمه بما أدركه من العدوان، وأن مثل ذنبه يتجاوز الغفران، ويقرر مسيره راجعاً خاضعاً. وفارقناه على ذلك، وكان معه طائفة من صبيانه فهموا ذات ليلة بالوثوب علينا فوقت منهم العناية الربانية، والسعادة السلطانية، وأحضرنا الخزائن برمتها والأموال بجملتها"[2].

من الواضح مما تقدم أن بيبرس المنصوري ورفيقه قد اتبعا سياسة لينة مع الجاشنكير لاسترجاع الأموال التي أخذها من خزينة الدولة، بالرغم من المؤامرة التي دبرت ضدهما من قبل صبيان الجاشنكير.

وما أن استقرت الأوضاع الداخلية للبلاط المملوكي، حتى أصدر السلطان الناصر سنة٧٠٩هـ/١٣٠٩م أمراً بتقليد بيبرس المنصوري نيابة دار العدل الشريف[3]، والنظر

---

(١) إخميم: مدينة من مدن صعيد مصر. انظر الحموي، معجم البلدان، مج١، ص١٢٣؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج٢، ص٨٤١.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٢٠٧.

(٣) دار العدل: هي المكان الذي كان يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء ومعه كُتّاب الدست (الموقعون) يحضرون مع السلطان أو من ينوب عنه جلسات النظر في المظالم لقراءة المظالم التي يحملها الدوادار إلى المجلس، وإذا لم يتخذ قراراً في هذه المظالم أثناء وجود السلطان أو من ينوب عنه، فإنها تحمل إلى ديوان الإنشاء لبحثها، ومنه ترسل إلى الجهات المختصة للتنفيذ ويوقع عليها بذلك، ويكون هذا التوقيع من قبل رئيس الديوان، وأما بمراجعة السلطان أو بغير مراجعة. انظر البقلي، التعريف، ص١٣٠.

على الأوقاف المنصورية في الديار المصرية والشامية (الأحباس)، وفي هذا يقول بيبرس نفسه: "... فباشرتها مستجلباً صالح الأدعية للسلف والخلف جاهداً في تنقيل الأجور وتخفيف الكلف، فجرت أحوالها بسعادة مولانا السلطان على النظام المستقيم وعمت بيسارها كل ظاعن ومقيم وولي الوظائف أهلوها من العلماء والفقهاء والمدرسين والمفسرين، وأجريت أرزاق أربابها أجمعين وأصبحوا للصدقات السلطانية شاكرين وببقائها على الدوام داعين"[1]. وبهذا تكون هذه الوظيفة أول وظيفة يتقلدها بيبرس المنصوري في سلطنة الناصر الثالثة.

وقد أوردت المصادر معلومات عن تسلم بيبرس المنصوري وظائف أخرى في سلطنة الناصر الثالثة. فالنويري[2] ذكر أن بيبرس تولى وظيفة النظر على البيمارستان [المستشفى] المنصوري. أما المقريزي[3] وابن حجر العسقلاني[4]، وابن تغري بردي[5]، فقد ذكروا أنه أعيد لتولي وظيفة الدوادارية.

إن ما تقدم يحمل الباحث على التردد في قبول هذه الروايات، ولاسيما أن بيبرس المنصوري نفسه لم يذكر شيئاً عن تقلده مثل تلك الوظائف.

وفي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م بلغ السلطان الناصر عن الأمير سلار في الشوبك أمور جعلته ينتدب أحد خاصته وهو بيبرس المنصوري لإحضاره، وفي ذلك يقول بيبرس نفسه: "ومما اتفق لي من المحاورة مع سلار عند التوجه إليه... لإحضاره، أنني أجريت معه وجوب طاعة مولانا السلطان عليه، وأذكرته سوابق إحساناته إليه، فقال [سلار]: إنما مثلك مثل النعوت [وهو الفرس العتيق السريع] التي تسوق الأغنام واحداً بعد واحد إلى الموت

(١) المنصوري، التحفة، ص٢١٠-٢١١؛ انظر كذلك المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٧٥، ٢٦٩؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٢، ج٧، ص٢٠١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١، ٢٦٣.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨.

(٣) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٢، ج٧، ص٢٠١.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١.

وترجع سليمة..." فأجابه بيبرس بقوله: "... إنما ساقكم إلى الموت و قادكم واحداً تلو واحد إلى الفوت إفراطكم في حب الدنيا واحتشادكم من حطامها...". بهذا الخطاب انتهت المحاورة بين الطرفين، ثم تم القبض على سلار وأُحضر للسلطان الناصر الذي أمر بوضعه في السجن، فتوفي فيه[1].

وفي سنة ٧١١هـ/١٣١١م كلف السلطان الناصر محمد؛ بيبرس المنصوري بنيابة السلطنة في مصر، فكانت هذه الوظيفة ذروة ما تولى بيبرس من مناصب في الدولة المملوكية، وقد ذكر بيبرس ذلك فقال:"ورتب في نيابة سلطنته الشريفة عبد نعمته الناشئ في صدقة والده [قلاوون] وصدقته [السلطان الناصر] بيبرس الدوادار...، وشرفني بتشريفها المعلم وقلدني سيفها المخدم ومنطقتها المرصعة باللآلئ وذواتها التي تزهو أقلامها على الغوالي، وأمطاني جواداً من السوابق حصاناً كريماً من العوائق..."[2].

لم يبق بيبرس طويلاً في المنصب المشار إليه آنفاً، فقد قام السلطان الناصر في عام ٧١٢هـ/١٣١٢م -كما تجمع المصادر- بعزله منه بل واعتقاله[3]، والسبب في ذلك أن

---

(١) المنصوري، التحفة، ص٢١٤-٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٨؛ انظر كذلك أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٤٠٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٣٣؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢١١، ٢١٨؛ الذهبي، العبر، ج٤، ص٢٧، ٧٤؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٦٩؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص٣٩، ١٥٨؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص٤٨٧؛ إبراهيم بن محمد بن دقماق العلائي(ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي، عالم الكتب، ط١، بيروت١٩٨٥م، ج٢، ص١٥١؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٠، ٢٦٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٤٤٠.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٤١٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨؛ ابن ايبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٤٣؛ الذهبي، العبر، ج٤، ص٣٢؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠؛ ابن كثير، البداية،ج١٤، ص٧٤؛ ابن حبيب، تذكرة النبية، ج٢، ص٤٧؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص٤٨٧؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٤٤١.

الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة في دمشق والأمير أقوش الأفرم نائب السلطنة في الشام ساءت علاقتهما بالسلطان الناصر، فاتهم بيبرس المنصوري وعدد من الأمراء بالميل إليهما، فأمسكوا مع بيبرس الذي كان يومئذ نائباً للسلطنة في مصر[1].

أما عن مكان اعتقاله، فقد انقسمت المصادر حول ذلك مع أنها اتفقت على سجنه عام ٧١٢هـ/١٣١٢م إلى ثلاثة مجاميع هي:

١. مصادر ذكرت أنه سجن في قلعة الجبل في القاهرة، وعلى رأسها ابن أيبك الدواداري[2]، والصفدي[3]، وابن تغري بردي[4].

٢. مصادر ذكرت أنه سجن في قلعة الكرك، وقد مثلها النويري[5]، وابن كثير[6]، وابن خلدون[7]، والمقريزي[8].

٣. مصادر ادعت أنه سجن في ثغر الإسكندرية لمدة خمس سنيين، وقد انفرد بهذه الرواية ابن حجر العسقلاني[9].

وبالرغم من تباين المصادر حول مكان اعتقال بيبرس المنصوري، إلا أنه يمكن القول إن بيبرس المنصوري ربما سجن في البداية في قلعة الجبل لفترة مؤقتة، ثم نقل منها إلى سجن الكرك، حيث بقي فيه إلى أن أطلقه السلطان الناصر أبان زيارته للكرك

---

(١) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٤٣؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص١١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٣-٣٤.

(٢) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٤٣.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٣-٣٤.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٩٣.

(٦) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٧٤.

(٧) ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص٤٨٧.

(٨) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص١٧٢.

(٩) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

عام ٧١٧هـ/١٣١٧م، وأنعم عليه بإمرة وتقدمة ألف[١]. وبهذا يكون قد أمضى خمس سنوات من حياته في السجن. أما ما ذكره ابن حجر العسقلاني من أنه سجن في ثغر الإسكندرية، فهي رواية لا يمكن قبولها لأسباب:

١. أن ابن أيبك الدواداري وهو مؤرخ معاصر لبيبرس المنصوري يذكر أن السلطان الناصر عندما اعتقل العديد من الأمراء سيرهم إلى سجن ثغر الإسكندرية ماعدا بيبرس المنصوري[٢].

٢. أن أغلب المصادر ذكرت أن إطلاق سراح بيبرس المنصوري كان من قلعة الكرك كما ذكر مقدماً، وليس من ثغر الإسكندرية.

٣. إنفراد ابن حجر العسقلاني بهذه الرواية، إضافة إلى أنه من المؤرخين المتأخرين.

وفي عام ٧١٨هـ/١٣١٨م قام السلطان الناصر بالإنعام على بيبرس المنصوري بإقطاع مغلطاي بن أمير مجلس بإمرة ثمانين فارساً[٣]، ومن ثمَّ أجلسه في رأس الميسرة[٤]؛ ويعني ذلك أنه أصبح كبير أمراء المشورة المتقدمين في السن.

وبعد قرابة خمس سنوات أي: في سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م قام بيبرس المنصوري بأداء فريضة الحج[٥].

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٩٣؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص١٧٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٥٦.

(٢) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٤٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص١٨٥؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨؛ الذهبي، العبر، ج٤، ص٧٤؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٣٥٢؛ ابن حبيب، تذكرة النبية، ج٢، ص١٥٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٢٠٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٦.

(٥) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٢٥٠؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٧٧.

هكذا عاش بيبرس المنصوري حياته، فما هي ثقافته ومذهبه؟ وما هي المكانة التي كان يتمتع بها في دولة المماليك البحرية؟ ومتى توفي؟ وأين؟.

١٠. ثقافته ومؤلفاته

نشأ بيبرس المنصوري في كنف أسرة ذات مكانة سياسية واجتماعية وثقافية، وهي الأسرة المنصورية التي وفرت له بيئة منحته الاهتمام بالعلم، فقد التحق بيبرس المنصوري منذ صغره بالمكتب لتعلم القرآن الكريم بأمر من سيده الأمير سيف الدين قلاوون.

بعد ذلك بدأ الأمير سيف الدين قلاوون يصطحبه معه في رحلاته تجاه بلاد الشام، فقد تنقل مع سيده في الكثير من البلاد الإسلامية الخاضعة آنذاك للصليبين والأرمن، لا سيما أرسوف وطرابلس وسيس وأنطاكية، أضف إلى ذلك إخراجه معه لبلاد سلاجقة الروم الأبلستين كما ذكر آنفاً.

أكسبت هذه الرحلات هذا الرجل معرفة جغرافية بالمناطق التي مر بها، وهذا يبرز من خلال إيراده لأسمائها حين يتحدث عن حياته، كما أكسبته خبره عسكرية وإدارية استفاد منها في جوانب كثيرة من حياته، فمن الناحية الإدارية عندما تولى نيابة الكرك وجدها في حال يرثى له، فقد قام بترتيب أمورها وتنظيمها، ومن الناحية العسكرية، اكتسب الخبرة العسكرية التي استفاد منها في جميع مشاركاته العسكرية مع الدولة المملوكية، فقد أظهرت مشاركته في فتح عكا على أنه رجل على قدر عالٍ من الثقافة. كذلك مشاركته في حماية ثغر الإسكندرية من الاعتداءات الصليبية، فقد وضع خطة للقضاء عليها تنم عن الثقافة التي كان يتمتع بها. كما أكسبته هذه الرحلات معرفة بالشعوب التي مر بها.

لم تكن هذه الرحلات المصدر الوحيد لثقافته فحسب، بل أن تقليده ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر يدل على أنه رجل كان على قدر عالٍ من الثقافة، بخاصة الكت

والقراءة، كما ساهم مركزه هذا على إطلاعه على كافة المراسلات الصادرة من الدولة والواردة إليها، الأمر الذي مكنه من إنتاج عدد من المؤلفات التي شغل التاريخ الجانب الأهم منها، وهذه المؤلفات سيشار إليها لاحقاً. أضف إلى ذلك أن وجوده في الديوان جعله على صلة بطبقة الكُتَّاب والمثقفين والعلماء كصلته بكاتب السر القاضي شرف الدين عبدالوهاب المتقدم ذكره.

ومما يدل على أنه كان على مستوى عالٍ من الثقافة، إشارته الواسعة إلى مصادر الأدب العربي في يومياته، فقد استشهد بأبيات من الشعر لعدد كبير من شعراء العرب.

ومن الأعمال التي تدل على ثقافته وعلمه، قيامه بإنشاء مدرسة في القاهرة، أطلق عليها اسم المدرسة الدوادارية[1]، وقد كان يدرس فيها المذهب الحنفي، ثم أنه جعل داره وقفاً لتلك المدرسة يعود ريعها عليها[2].

كما أن انطباعات المؤرخين المعاصرين والتالين عنه لتدل على أنه على مستوى عالٍ من الثقافة، ليس فقط في التاريخ بل في العلوم الأخرى، فقد وصفه ابن أيبك الدواداري وهو مؤرخ معاصر لبيبرس المنصوري بقوله: "وكان رحمه الله من أكابر الموالي الأمرا [الأمراء]، ومن جملة العلما [العلماء] الأفاضل، يدري شيئاً من العربية واللغة، ومن العلوم الدينية"[3]، وقال عنه المقريزي: "وكان أميراً حشماً كثير الأدب عاقلاً، له صدقات ومعروف... وكان يخرج من داره في السحر ومعه الدراهم، فيتصدق بها سراً... وكان يجلس رأس الميسرة، وكان حنفي المذهب له اشتغال بالفقه، وأجيز بالفتوى والتدريس، وكان يلازم الصلوات الخمس في الجماعة، ويحي ليله صلاة وقراءة، ويقضي

---

(١) المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٢٦٩؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦٣؛ وقد ذكر ابن حبيب أن هذه المدرسة كانت تقع تحت قلعة الجبل بالقاهرة. انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٥٨.

(٢) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣.

(٣) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣١٩.

نهاره بسماع الحديث والبحث في العلوم، وكان دائم البشر طلق الوجه لا يسمع غيبة أحد، ولا يرى بالهمة مع العفة والديانة... وكان يخرج زكاة ماله"[1].

وقال عنه الشيء ذاته ابن حجر العسقلاني، وكان "كثير الأدب حنفي الدين عاقلاً قد أجيز بالافتاء والتدريس، وله بر ومعروف، كثير الصدقة سراً، ويلازم الصلاة في الجماعة، وغالب نهاره في سماع الحديث والبحث في العلوم، وليله في القرآن والتهجد مع طلاقة الوجه، ودوام البشر"[2].

أما ابن تغري بردي، فذكر أنه "كان أميراً عاقلاً، فاضلاً، معظماً في الدول... وكان له أوقاف على وجوه البر"[3]. وقال عنه في موضع آخر: "وكان عاقلاً، فاضلاً، بارعاً، عارفاً، سيوساً ذا مشاركة وفضل"[4].

ويقول ابن إياس عنه: "وكان الأمير بيبرس الدوادار، سعيد الحركات، وكان عالماً فاضلاً، فقيهاً، نحوياً، ينظم الشعر، وله شعر جيد، وألف له تاريخاً سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وجمع فيه جملة محاسن وفوائد، ومن شعره:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
الناس في نظر العيون كما ترى
صورٌ وإن قليلهم من يفهم"[5].

مكنت هذه الثقافة بيبرس المنصوري من إنتاج عدد من المؤلفات التي شغل التاريخ الجانب الأهم فيها، وهي:

---

(١) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣-٥٣٤.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦٣.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ق١، ج١، ص٤٠٨.

١. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة.

أتفقت المصادر على أن بيبرس المنصوري قد ألف كتاباً أطلق عليه اسم زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ولكنها في الوقت ذاته اختلفت وتباينت في عدد مجلداته، بحيث انقسمت إلى قسمين؛ القسم الأول اتفق على أن مجلداته كانت أحد عشر مجلداً[١]، في حين أن القسم الثاني اتفق على أن مجلداته كانت خمسة وعشرين مجلداً[٢].

ويجب التنويه هنا إلى أن أغلب المصادر ذكرت أن هذا المصنف قد كتب بمساعدة كاتب بيبرس المنصوري وهو "شمس الرياسة بن كبر النصراني"[٣]، أما السخاوي، فقد شكك في أن يكون بيبرس المنصوري قد عول في كتابة تاريخه على شخص نصراني، وهذا يستشف من قوله: "وبيبرس المنصوري الدوادار له تاريخ في خمس وعشرين مجلداً بالمؤيدية وبعضه في الكتب الفهدية سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة انفرد الصفدي بقوله أعانه عليه كاتب له نصراني يقال له ابن كبر مع ترجمة غير واحد له بفضل وخير وتهجد وتلاوة وغيرها مما يمنع اعتماده إياه"[٤].

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨-١٣٩؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٢٦٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦٣-٢٦٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧؛ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي(ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة ١٩٦٧م، ج١، ص٥٥٥؛ مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة(ت١٠٦٧هـ/١٧٥٤م)، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دار الفكر، (د.ط)، (د.م)١٩٨٢م، مج٢، ص٩٥٢؛ إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، (د.ط)، بيروت١٩٩٠م، مج٥، ص٢٣٣.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٦-٦٧؛ السخاوي، محمد بن عبدالرحمن(ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عني بنشره القدسي، مطبعة الترقي، (د.ط)، دمشق١٣٤٩هـ، ص١٥٠؛ الداري، الطبقات السنية، ج٢، ص٢٥٩؛ ابن الغزي، ديوان، ج١، ص٢٠٨.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨-١٣٩؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٣٥٢؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٢٦٩؛ المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣؛ حاجي خليفة فيما ينقله عن العيني، كشف الظنون، مج٢، ص٩٥٢.

(٤) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص١٥٠.

أما بيبرس المنصوري نفسه، فقد أشار في مقدمة كتابه المسمى التحفة الملوكية في الدولة التركية -والذي سيأتي الحديث عنه- إلى أنه صنف تاريخاً سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة "انتهى به الاختصار وسياقة الأخبار إلى الدولة التركية، وبدئها بالديار المصرية بعد انقراض المملكة الأيوبية، فجعلتها جزءاً واحداً مستقلاً بحجمه، مستبداً بنثره ونظمه"[1].

يفهم مما تقدم أن المصادر أصابت في أن بيبرس المنصوري ألف كتاباً اسمه زبدة الفكرة، ولكن ادعاءها أنه اعتمد في كتابة مصنفه المشار إليه على ابن كبر النصراني فهو أمرٌ يحمل الباحث على عدم قبوله، لأن بيبرس نفسه يذكر أنه عول على ابن كبر النصراني في كتابة مصنفه مختار الأخبار فقط -الذي سيأتي الحديث عنه تالياً- "ووافى إلينا من الديار المصرية جواب عن كتاب صدر منا بالبشرى إلى نوابنا، تضمن أبياتاً أرسلها مُسطر [كاتب] تاريخنا [مختار الأخبار] هذا [يقصد ابن كبر]، لأنه كان من ألزامنا"[2]. وبهذا يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين، ناهيك عن أن اعتراف بيبرس نفسه بهذا ينفي ما قاله السخاوي.

كذلك يفهم أن زبدة الفكرة هو كتاب عام عن التاريخ الإسلامي، لم يحدد فيه عدد أجزائه، ولكنه يذكر أنه خصص جزءاً مستقلاً منه لتاريخ الدولة المملوكية البحرية، وقد اعتمد الباحث عليه في هذه الدراسة، حيث يلحظ أنه مرتب حسب السنين، وأنه يقف عند مشارف سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، في حين أن المصادر تذكر أنه انتهى في هذا التاريخ إلى عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م[3]. وهذه الفترة بين عامي ٧٠٩-٧٢٤هـ/١٣٠٩-١٣٢٣م ربما

---

(١) المنصوري، التحفة، ص٢٣. (المقدمة).

(٢) المنصوري، مختار، ص١٢٩.

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧؛ حاجي خليفة فيما ينقله عن العيني، كشف الظنون، مج٢، ص٩٥٢؛ انظر كذلك كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى اللغة العربية محمود فهمي حجازي بالتعاون مع حسن محمود إسماعيل، مطابع الهيئة العامة للكتاب، (د.ط)، مصر، ١٩٩٥م، ق٦، ص١٦؛ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، بيروت١٩٩٢م، ج٣، ص١٩٥-١٩٦؛ مارجو ليوث، بيبرس المنصوري، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها باللغة العربية أحمد

تكون قد فقدت.

أما عن الأجزاء المتبقية من هذا المصنف، ومحتواها، ومكان وجودها، فهي على النحو الآتي:

أ. الجزء الثالث: يتناول الفترة الممتدة ما بين سنتي ٤٢-١٢١هـ/٦٦٢-٧٣٨م. ويوجد مخطوط في المتحف البريطاني[١].

ب. الجزء الرابع: يتناول تاريخ العباسيين بين سنتي١٣٢-٢٥٢هـ/٧٤٩-٨٦٦م. ويوجد مخطوط في أبساله (أبسالا)[٢].

ج. الجزء الخامس: يتناول الفترة الممتدة من عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م حتى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م. ويوجد في المكتبة الأهلية بباريس[٣].

د. الجزء السادس: يتناول السنين حتى ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. ويوجد في مكتبة بودليان في أكسفورد[٤].

ه. الجزء السابع: يتناول السنين ٤٠٠-٤٨٩هـ/١٠٠٩-١٠٩٥م. ويوجد مخطوطاً في فيض الله [٥]١٤٥٩.

و. الجزء التاسع: يتناول السنين ٦٥٥-٧٠٩هـ/١٢٥٧-١٣٠٩م. ويوجد في المتحف

الشتناوي وإبراهيم زكي يونس، (د.ط)، (د.م)، (د.ت)، مج٤، ص٣٦٩؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١١٤.

(١) بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥.

(٢) بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥؛ زيدان، تاريخ، ج٣، ص١٩٥-١٩٦؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج٤، ص٣٦٩.

(٣) زيدان، تاريخ، ج٣، ص١٩٥-١٩٦؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج٤، ص٣٦٩.

(٤) بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥؛ زيدان، تاريخ، ج٣، ص١٩٥-١٩٦؛ ليوث، بيبرس المنصوري، مج٤، ص٣٦٩.

(٥) بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥

البريطاني بلندن[1]. ويتحدث عن دولة المماليك البحرية، وهو ما اعتمدت عليه الدراسة. أما ما ذكره كارل بروكلمان وجرجي زيدان من أن الجزء التاسع يتناول السنين من ٥٩٩-٧٤٤هـ/١٢٠٢-١٣٤٣م، ويوجد مخطوطاً في (بودليان) بأكسفورد ١/٧٠٤[2]، فهو أمر لا يقبل لأن بيبرس المنصوري توفي عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، فكيف يكون أرخ حتى سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م، ولكن يظهر أنه اختلط الأمر عليهما بدليل ما ذكره مارجو ليوث من أنه يوجد مصنف في مجموعة بودليان بأكسفورد عنوانه زبد الفكرة ينتهي بعام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م ألفه شخص غير بيبرس المنصوري[3]. وأن الجزء العاشر الذي تحدثا عنه هو نفسه الجزء التاسع بدليل أنه يتناول الفترة من ٦٥٥-٧٠٩هـ/١٢٥٧-١٣٠٩م. ويوجد في المتحف البريطاني[4].

٢. التحفة الملوكية في الدولة التركية.

أورد بيبرس المنصوري نفسه أنه ألف كتاباً سماه التحفة الملوكية في الدولة التركية[5]. أما بقية المصادر فلم يعثر فيها على أية معلومة تتعلق بهذا المصنف بعكس مصنفه المشار إليه آنفاً.

أما ما ذكره محقق التحفه الملوكية عبدالحميد صالح حمدان من أن هذا الكتاب ليس مختصراً لكتاب بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وإنه مصدر مستقل عنه[6]، فهو أمر غير مقبول باعتبار أن بيبرس نفسه يذكر أن التحفة الملوكية مختصر لكتابه زبدة الفكرة: "... ثم اختصرت من الجزء المذكور [زبدة الفكرة] جزءاً... قربت

(١) ليوث، بيبرس المنصوري، مج٤، ص٣٦٩.

(٢) بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥؛ زيدان، تاريخ، ج٣، ص١٩٥-١٩٦.

(٣) ليوث، بيبرس المنصوري، مج٤، ص٣٦٩.

(٤) بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥؛ زيدان، تاريخ، ج٣، ص١٩٥-١٩٦.

(٥) المنصوري، التحفه، ص٢٣، ٢٣٩.

(٦) المصدر نفسه، ص١٣.

ألفاظه ومعانيه [يقصد التحفة]..."[١]. فضلاً عن ذكر النويري وهو مؤرخ معاصر أن بيبرس المنصوري ألف كتاباً سماه زبدة الفكرة أختصر منه مجلدين[٢]، ويبدو أن التحفة كان أحدها.

أما عن طبيعة الكتاب، فهو كتاب مختص بتاريخ السلاطين المماليك، ويبدأ بعام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وينتهي بعام ٧١١هـ/١٣١١م. أما ما تذكره المراجع الحديثة من أنه ينتهي بعام ٧٢١هـ/١٣٢١م[٣]، فهذا غير مقبول باعتبار أن بيبرس نفسه يذكر في الكتاب نفسه قوله: "هذا آخر ما انتهيت إليه في هذه المجلدة المختصرة [يقصد أنه انتهى بهذا التاريخ حتى أحداث عام ٧١١هـ/١٣١١م]...، وأرجو أن فسح الله في الأجل، أن أبلغ في سياقة مآثرها الشريفة الأمل [يقصد سيرة السلطان الناصر محمد]..."[٤].

يفهم مما تقدم أن بيبرس المنصوري كان لديه النية في استكمال كتابه هذا، إلا أن قيام السلطان الناصر باعتقاله عام ٧١٢هـ/١٣١٢م وإيداعه في السجن حال دون ذلك. ومع ذلك يلاحظ أن بيبرس المنصوري حين خروجه من السجن حاول أن يؤرخ لأحداث عام ٧٢١هـ/١٣٢١م، ولكن هذه المحاولة توقفت في البداية[٥]. ويبدو أن محاولته هذه قد جعلت المراجع الحديثة تظن أنه أرخ لتاريخ السلاطين المماليك حتى نهاية عام ٧٢١هـ/١٣٢١م.

٣. مختار الأخبار.

لم يعثر في المصادر على أية معلومة أو إشارة تتعلق بكتاب بيبرس المنصوري المسمى مختار الأخبار، ولكن ثمة نصاً أورده النويري وهو مؤرخ معاصر قد يستدل منه على أن

---

(١) المنصوري، التحفة، ص٢٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨-١٣٩.

(٣) الزركلي، الأعلام، ج٢، ص٨٠؛ زيدان، تاريخ، ج٣، ص١٩٥-١٩٦؛ بروكلمان، تاريخ، ق٦، ص١٦٥؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٠٩.

(٤) المنصوري، التحفة، ص٢٣٩.

(٥) المصدر نفسه، ص١٤-١٥. عن هذه المحاولة انظر ص٢٤٠.

مختار الأخبار هو كتاب مختصر لكتابه الآخر زبدة الفكرة، وهذا النص هو: "... ألف [بيبرس المنصوري] كتاباً سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة... وتاريخاً مختصراً منه في مجلدين..."[١]. ويبدو أن هذين المجلدين هما التحفه الملوكية ومختار الأخبار.

ويبدو أن هناك التباساً في هذا الكتاب، يتمثل في صحة نسبته لبيبرس المنصوري، فقد ذكر محقق هذا الكتاب عبدالحميد صالح حمدان أن هذا المصنف نسب خطأً إلى كاتب بيبرس المسمى ابن كبر النصراني، وأن هذا الخطأ نشأ من جراء قيام مفهرس المخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة الأمبروزيانا بنسبة هذه المخطوطة إلى القس ابن كبر اعتماداً على ورود اسمه في العنوان، الذي جاء على النحو التالي: "هذا مختصر تاريخ المقر الركني بيبرس الدوادار تغمده الله برحمته ويسمى مختار الأخبار عنى بجمعه القس الشمس ابن كبر نيَّحَ الله روحه". ويذكر أن هذا العنوان قد أضيف في تاريخ لاحق، وبيد مختلفة وبعد كشط ما كان مدوناً في الأصل[٢].

ومهما يكن من أمر، فإنه بعد دراسة الباحث للكتاب المذكور اتضح ما يلي:

أولاً: أن هذا المصنف هو من مؤلفات بيبرس المنصوري بدليل ورود اسمه صريحاً في عدة مواضع من هذا الكتاب، كقول: "قال المؤلف"[٣]، و"قال المصنف المقر الركني بيبرس الدوادار"[٤]، و"قال المصنف"[٥].

ثانياً: أن دور القس ابن كبر النصراني اقتصر على عملية النسخ والتبيض بدليل ما قاله بيبرس نفسه في المصنف ذاته: "ووافى إلينا من الديار المصرية جواب عن كتاب صدر منا بالبشرى إلى نوابنا، تضمن أبياتاً أرسلها مُسَطِرُ تاريخنا هذا، لأنه

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨-١٣٩.

(٢) المنصوري، مختار، ص ي، ك(المقدمة).

(٣) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٦، ١١٢.

(٥) المصدر نفسه، ص١١٦، ١٢٩.

كان من ألزامنا"[1].

ثالثاً: بمقارنة مضمون مختار الأخبار مع مؤلفات بيبرس المنصوري الأخرى يتبين أن الأحداث التي يرويها فيه هي نفسها في كتاباته الأخرى، ناهيك عن الأسلوب الذي يستخدمه فيه هو الكلام المعتمد على السجع كما هو أسلوبه في كتاباته الأخرى.

رابعاً: أن محقق مختار الأخبار المذكور آنفاً يذكر أن هذا الكتاب ربما يكون هو نفسه الكتاب المنسوب إليه والذي لم يصلنا وهو "اللطائف في أخبار الخلائف" الذي نسبه إليه أيضاً السخاوي[2]. وبالرجوع إلى المصادر لم يعثر على اسم بهذا الكتاب لبيبرس، باستثناء إشارة العيني له، حيث قال: "وذكر بيبرس في كتابه المسمى اللطائف"، و"كذا ذكره بيبرس في كتابه اللطائف"، و"في كتاب اللطائف"[3]. وصفوة القول إنه لا يمكن القطع بأن مختار الأخبار هو نفسه كتاب اللطائف إلى أن يظهر ما يثبت ذلك.

أما عن محتوى الكتاب، فقد ضم عدة تواريخ هي:

أ. التاريخ من آدم إلى إبراهيم وموسى وملوك بني إسرائيل.

ب. تاريخ ملوك الروم واليونان.

ج. تاريخ الخلفاء من عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

د. تاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر حتى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، حيث تتوقف المخطوطة لضياع بقيتها[4]. وهذا القسم هو الذي اعتمدت عليه الدراسة.

---

(١) المنصوري، مختار، ص١٢٩.

(٢) المنصوري، التحفة، ص ي، ل(المقدمة).

(٣) انظر: العيني، عقد الجمان، ج٣، ص١٢، ١٠، ج٤، ص٣٧٨.

(٤) المنصوري، مختار، ص(ل) المقدمة.

يفهم مما تقدم أن هذا الكتاب يتناول الفترة منذ بدء الخليقة حتى عام٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢م (المماليك البحرية).

٤. مواعظ الأبرار.

ألف بيبرس المنصوري بعد خروجه من السجن، كتاباً سماه: مواعظ الأبرار، وهذا الكتاب -كما يذكر عبدالحميد حمدان- عبارة عن تفسير للقرآن الكريم، فسره بيبرس تفسيراً صوفياً[١]. وقد أشار السيوطي عندما تكلم عن بيبرس المنصوري إلى أنه: "صاحب التاريخ المسمى زبدة الفكرة في أحد عشر مجلداً والتفسير"[٢]، وكذلك ذكر الشيء ذاته إسماعيل باشا البغدادي[٣]. ويبدو أن التفسير الذي قصد فيما تقدم، هو نفسه كتاب مواعظ الأبرار، لأن هذا الكتاب لا يخرج عن كونه تفسيراً لسور القران الكريم حسب قول محقق التحفة الملوكية[٤].

١١. مكانته في الدولة المملوكية.

حظي بيبرس المنصوري في الدولة المملوكية بمكانة مرموقة عند سلاطينها، خاصة في عهد السلطان المنصور قلاوون وولده الملك الناصر محمد، وما تقدم من معلومات عن هذا الرجل، لا سيما منحه المناصب السياسية والإدارية، والاعتماد عليه في الكثير من مهام الدولة المملوكية، ومواقفه ونصائحه للسلاطين يوضح ذلك.

أما انطباعات المؤرخين المعاصرين والتالين عن بيبرس المنصوري، فقد دلت على أنه كان يتمتع بمكانة رفيعة عند السلاطين، فقد أشاد به النويري وهو مؤرخ معاصر فقال: "كان الأمير بيبرس الدوادار المنصوري، من أكابر مماليك السلطان الملك المنصور سيف

---

(١) المنصوري، التحفة، ص١١.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٥٥٥.

(٣) البغدادي، هدية العارفين، مج٥، ص٢٣٣.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١٢.

قلاوون في زمن إمرته، وكان رحمه الله تعالى أجل الأمراء في وقته لا يتخطاه أحد، ولا يجلس في مرتبته، وهو رأس الميسرة، وتأمر في ابتدأ الدولة المنصورية السيفية، ثم فوض السلطان الملك المنصور إليه نيابة قلعة الكرك... ونقل منها إلى الديار المصرية في جملة الأمراء في الدولة الأشرفية الصلاحية، وردّ إليه في ابتداء الدولة الناصرية أمر ديوان المكاتبات... وتنقل في المراتب، فكان ينوب عن السلطنة الشريفة في الغيبة..."(١). وقال عنه الصفدي: "كان فاضلاً في أبناء جنسه، عاقلاً لا يستشير في أمره غير نفسه، وافر الهيبة، واضح الشيبة له منزلته مكنية [مكانته] عند السلطان، ومحلة لا يشركه فيها غيره في النزوح والاستيطان، يقوم له إذا أقبل، ويقول له:اجلس فإنك أكبر من هؤلاء وأنبل..."(٢). أما ابن تغري بردي، فقد ذكر أنه:" كان أميراً عاقلاً فاضلاً معظماً في الدول، وكان إذا دخل على الملك الناصر يقوم له إجلالاً"(٣). كذلك أشاد به ابن تغري بردي في موضع آخر، وقارن بين أمراء عصره في دولة المماليك الجراكسه وبين بيبرس المنصوري، فقال: "كان يستحق هذا وأكثر [أي أن يقوم له السلطان ويجلسه] لما أحتوى عليه من العلم والفضل والعقل والكرم، والسياسة، فهؤلاء هم الأمراء، لا مثل أمراء عصرنا..."(٤).

ويقول عنه أيضاً الداري: "وكان من مماليك المنصور، وتنقل في الخدم، وكان فاضلاً في أبناء جنسه، وكان السلطان يقوم له ويجلسه"(٥).

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٣٥٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٨؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٢٠٥.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٨.

(٥) الداري، الطبقات السنية، ج٢، ص٢٥٩.

١٢. مذهبه

ذكر المقريزي[١] أن بيبرس المنصوري كان على المذهب الحنفي، وقد اتفق معه في ذلك ابن حجر العسقلاني[٢]، والداري[٣]، وابن الغزي[٤]، وابن العماد الحنبلي[٥]. أما بقية المصادر، فلم تحدد ذلك.

١٣. وفاته

ذكر النويري أن وفاة بيبرس المنصوري كانت في ليلة الخميس ٢٥ رمضان ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[٦]، وقد اتفق معه في ذلك كل من المقريزي[٧]، وابن تغري بردي[٨]، في حين أن ابن أيبك الدواداري[٩] ذكر أنه توفي في يوم ١٥ من الشهر والسنة المشار إليها، أما الذهبي[١٠]، والداري[١١]، فلم يحددا تاريخ اليوم الذي توفي فيه، أما أغلب المصادر[١٢]، فقد حددت وفاته في العام المذكور دون ذكر اليوم والشهر.

---

(١) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

(٣) الداري، الطبقات السنية، ج٢، ص٢٥٩.

(٤) ابن الغزي، ديوان، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٧.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٨.

(٧) المقريزي، المقفى، ج٢، ص٥٣٣.

(٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦٣.

(٩) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣١٩.

(١٠) الذهبي، العبر، ج٤، ص٧٤؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد سكتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، عني بطبعه ونشره عبدالله ابن إبراهيم الأنصاري، مطابع قطر الوطنية، (د.ط)، قطر١٩٨٨م، ج٢، ص٢٣٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٣.

(١١) الداري، الطبقات، ج٢، ص٢٥٩.

(١٢) الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٣٥٢؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٥٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٥٥٥؛ ابن الغزي، ديوان الإسلام، ج١، ص٢٠٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٦؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج٢، ص٩٥٢.

أما مكان وفاته، فقد اتفقت المصادر على أنها كانت في مصر (القاهرة)، وكان يومئذ قد بلغ الثمانين من عمره[1]، وقد ذكر الصفدي أنه دفن بحضور نائب السلطان والأمراء في المدرسة التي أنشأها تحت قلعة الجبل[2].

قام السلطان الناصر بعد دفن بيبرس المنصوري بتوزيع إقطاعاته على الأمراء في مصر، فالأمير علاء الدين مُغلطاي الجمالي منح خمسين فارساً من فرسانه، وقدمه على ألف فارس بدلاً منه، في حين أُعطي الأمير سيف الدين بلبان السنائي أمرة الطبلخاناه، أما الأمير عز الدين أيدمر الخطيري، فقد جلس مكانه في رأس الميسرة[3].

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧؛ الذهبي، العبر، ج٤، ص٧٤؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٣٥٢؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٥٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٦٦.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٨٠.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٣٩؛ المقريزي، السلوك، ق١، ج٢، ص٢٦٩.

الفصل الثاني

منهج بيبرس المنصوري وأسلوبه
في كتابة تاريخ دولة المماليك البحرية



أولاً: منهجه في بناء مادته التاريخية

اعتمد بيبرس المنصوري في كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة طريقة الحوليات، كما هي عادة مؤرخي عصره، وذلك أنه كان يذكر الأحداث التاريخية مرتبة حسب السنين في إطار وحدة موضوعية، بحيث يتعرض لسنة بعد أخرى مبتدئاً بسنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م شارحاً أهم أحداثها، وما يكون قد تم فيها من أمور سياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية ونحو ذلك، ثم يختتمها بذكر تراجم أعيان من توفي فيها، وهكذا...

وهذه الطريقة اتبعها بيبرس المنصوري في كتاباته الأخرى[١]، ولكن دون أن يختتم السنة فيها بذكر تراجم أعيان قد توفوا، وبمعنى آخر أنها خلت من تراجم الأعيان.

وقد درج بيبرس المنصوري في كتاباته على تسهيل مهمة القارئ بتوضيح إطار عمله التاريخي، فقد ذكر في مقدمة كتابة: التحفة، أنه ألف جزءاً مستقلاً في حجمه عن الدولة التركية سماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ابتدأه بذكر الدولة المعزية (أي: الدولة المملوكية في عهد المعز أيبك) وما تقدمها من أسباب التمكين لطبقة المماليك البحرية، ثم ذكر أنه "ساقها مملكة تلو مملكة، ونسقها دولة تلو دولة حتى انتهى إلى دولة السلطان الملك المنصور قلاوون ثم اختتمه بذكر دولة السلطان الناصر محمد"[٢].

ومن الجدير بالذكر أن بيبرس المنصوري كان حين يتكلم عن سلطان يتتبع الأحداث التاريخية في عهده، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

أما عن الأسس المنهجية التي اعتمدها بيبرس المنصوري في بناء مادته التاريخية، فيمكن أجمالها حسب المسح الدقيق لمادته بما يلي:

---

(١) اتبع بيبرس المنصوري طريقة الحوليات في كتابيه التحفه الملوكية ومختار الأخبار.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٢٣. (المقدمة).

١. تقييم المصادر التي عول عليها في معلوماته.

اعتمد بيبرس المنصوري في معلوماته على مصادر عديدة حرص فيها على ذكر تقييمه لها من حيث الموثوقية والخبرة، فعلى سبيل المثال حين استقى معلوماته عن إسلام بركة ملك التتار قال: "والذي ذكرته الرواة ونقلته الثقاة عن إسلامه"[١]. كذلك يتضح ذلك من خلال وصفه لبعض مصادره بالخبرة، كقوله حين استقى معلوماته عن أخبار التتار في البلاد الشرقية من شخص اسمه مؤمن أغا: "... وكان خبيراً بأحوال التتار وذراريهم..."[٢]. وقوله أيضاً في وصف مصدر آخر: "حدثني من أثق إليه"[٣]، وقوله: "وحدثني بعض الثقات"[٤].

أما بالنسبة للمصادر الأخرى التي استقى معلوماته منها، فقد أظهر موقفه الحيادي منها، ولم يذكر تقييمه لها، ويتضح ذلك من قوله: "وحكي إن"[٥]، وقوله: "ذكر بعض أهل المعرفة بالأخبار"[٦]، وقوله: "ولقد أخبرني مخبر"[٧]، وقوله: "ولقد ذكر لي"[٨]، وقوله: "قال بعض المؤرخين"[٩].

٢. الحياد والموضوعية.

حرص بيبرس المنصوري في كتاباته على نقل الأحداث التاريخية بموضوعية وحيادية، فالبرغم من ميوله في كتاباته للسلطان المنصور قلاوون وولده السلطان الناصر محمد

---

(١) المنصوري، التحفة ، ص٨٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢١٦.

(٣) المنصوري، مختار، ص٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٦، ٣٧٩.

(٦) المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٠٢.

(٨) المصدر نفسه، ص٣١١.

(٩) المنصوري، مختار، ص٢٧.

والإشارة إليهما "بمولانا السلطان"، والإشارة للسلاطين الباقين بأسمائهم مجردين من لقب "السلطان"، فإن الإشارات التي تدل على حياديته وموضوعيته عديدة، فعلى سبيل المثال يلحظ حين تكلم عن موقعة مجمع المروج عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م بين السلطان الناصر محمد والمغول أنه لم يخف الحقيقة مع ميوله وتشيعه للسلطان المشار إليه، فقد ذكر أن السلطان هزم في هذه الموقعة، وأن السبب في ذلك هو نحس يوم الأربعاء[١]. كذلك يدل على موضوعيته أنه حين افلتت أمور الدولة من يد السلطان الناصر، وسيطر عليها الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير انتقد السلطان المشار إليه بقوله "واتفق المثول بين يدي مولانا السلطان للمشورة [في الحملة على اليمن عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م]، وكان أعز الله نصره، كمن سلم إلى سلار ورفيقه حالهما ليفعلا ما أرادا ولم يحتز لهما عناداً..."[٢].

٣. التحقق والتثبت من معلوماته.

حرص بيبرس المنصوري على التحقق والتثبت من المعلومات التي جمعها في طيات مصنفاته، ولعل ما ساعده على ذلك أنه كان شاهد عيان لأغلب الأحداث التاريخية التي دونّها، أما التي لم يحضرها فقد تحقق منها، وهذه السمة المنهجية يلحظ أنه أشار إليها في مقدمة كتابه التحفة الملوكية، حيث يقول: "... وجعلتها [التحفة الملوكية] خمسين مقاماً ذهبية لا خمسين مقامة حريرية، كلها مبني على التحقيق، عريٌّ عن التلفيق، مستقرين بالمباشرة لأكثره، والاستثبات لما لم أحضره من أيسره..."[٣]. ويمكن هنا إيراد العديد من الأمثلة على منهجه هذا من مؤلفاته، ففي ذكره لأسماء أولاد هولاكو قال: "وهذه أسماء الأولاد أثبتناها من السفار والواردين من تلك الأقطار، وهم أبغا..."[٤].

---

(١) المنصوري، التحفة، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٣-١٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥.

وقد فعل الشيء ذاته في ذكره للوحشة التي حصلت بين السلطان الناصر محمد وكل من الأمير سيف الدين سلار والأمير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، حيث قال: "ولم أكن شاهد هذا الخطب عند حدوثه، فوصلت من بعض نواحي الوجه البحري، فوجدت الحال كما لا أرضى والأمر قد أفضى إلى ما أفضى..."[1]. كذلك فعل الشيء نفسه حين حدثت المجاعة في القاهرة بسبب قصر نهر النيل عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، حيث قال للتأكيد على صحة الخبر: "وعدت من الإسكندرية إلى الأبواب السلطانية فوجدت حال أهل القاهرة قد آل إلى التلف من المرض الشامل والموت العاجل..."[2]. كما فعل ذات الشيء حين تأخر السلطان الناصر محمد عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م في الوصول إلى الشام لمساندتهم ضد المغول، حيث قال: "... وبينا أنا مفكر في هذا الأمر مر بي بريد راكض، فسألته عن السلطان، فأخبر باقترابه ووصوله في أطلابه، فقصدت تحقيق روايته، والوقوف على كتبه، فأخذتها منه غصباً، وأوجعته ضرباً لما كنت فيه من التحرق على الإسلام، والقلق الذي منع الأجفان لذيذ المنام. فلما وقفت على الكتب، وتيقنت وصول السلطان عن كثب قرأتها على الأمراء..."[3].

٤- توجيه النقد الأدبي للنصوص الشعرية وتعديلها.

اهتم بيبرس المنصوري إلى جانب اهتمامه بالإحداث التاريخية بالنصوص الشعرية التي أوردها في مؤلفاته، ذلك أنه لم يتركها على علاتها، فقد كان يقوم بتوجيه النقد إليها، فإذا ما توافر له ما يقتضي تعديلاً أو تصويباً، قام بذلك مع الإشارة إلى السبب وراءه، ففي وقعة حمص عام ٦٨٠هـ/١٢٠٥م نظم الشعراء الكثير من الشعر فيها، وكان من بينهم الأمير ركن الدين بيبرس الفارقاني أحد أمراء العشرات الذي قال فيها:

---

(١) المنصوري، التحفة، ص١٨٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٩.

(٣) المنصوري، مختار، ص١٢٤.

وجزنا الشام في جيشٍ عظيم
سوى جيش الاعارب والحشود
فقصّ القاصدون حديث قوم
بأرض الروم مع خيل البريد
فسرنا حين ساروا والتقينا
على حمص مسربلة الحديد
وصار النصر للمنصورعونا
بهمّة خالد بن الوليد
إذا ما شئت أن تحيا هنيئاً
فبادر للسناجق والبنود
ترى من تحتها ملكاً حليماً
وفيّاً بالمواثق والعهود
هو المنصور خوّاص المنايا
إذا ما الحرب تسعر بالوقود
أتى مثل الغمام بجيش مصرٍ
وكوسات كأصوات الرعود
لها وقع ترنّ الأرض منه
وترعد منه آفاق الوجود
واسياف لها لمع كبرق
تقدّ بها العظام مع الجلود
فسائل من هلاون عن قلاون
وسائل للبرنس وللكنود

فلا برحت يداه في عداه

مصرّفة باسعاف السعود

ولا زالت ملوك الأرض جمعا

له ما عاش أمثال العبيد

ويجزيه الإله عن البرايا

ويسكنه بجنّات الخلود

يوجه بيبرس المنصوري في أعقاب ذكره لهذه الأبيات النقد لها، فيقول: "وكانت هذه الأبيات كثيرة اللحن [الخطأ في الأعراب] مع صحة الوزن، فأصلح ما أمكن إصلاحه من إعرابها عند كتابتها"[1].

٥. تقديم معلومات تاريخية جديدة.

بدراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية، يلاحظ أنه يورد معلومات جديدة لا نجدها عند غيره من المؤرخين[2].

٦. عدم ترجيح رواية على أخرى.

في حالة ذكر بيبرس المنصوري أكثر من رواية عن موضوع معين كان لا يرجح

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) قارن مادة بيبرس المنصوري حول ما كتبه عن فتح عكا عام٦٩٠هـ/١٢٩١م(زبدة الفكرة، ص٢٧٨-٢٨٠)(التحفة، ص١٢٦-١٢٧)(مختار، ص٩١-٩٢) مع ما كتبته المصادر التالية عن ذلك: أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٣٣٦-٣٣٧؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص٤٧٠. وقارن مادة بيبرس المنصوري حول ما كتبه عن فتح قلعة الروم عام٦٩١هـ/١٢٩٢م(زبدة الفكرة، ص٢٨٨-٢٨٩)(التحفة، ص١٣٠-١٣١)(مختار، ص٩٢-٩٣) مع ما كتبته المصادر التالية: عن ذلك: أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٦٢-٣٦٣؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٣٣٨؛ مؤلف مجهول، الحوادث الجامعة، ص٤٧٤.

رواية على الأخرى، ولا حتى يعطي وجهة نظره على ذلك، فعلى سبيل المثال حين قتل الأمير الخزندار قال: "واتفق موت الأمير بدر الدين الخزندار بعد أيام يسيرة وعوجل بمحتومه ولحق بمخدومه، فقيل إنه مات حتف أنفه، وقيل بل اغتيل حسداً على منصبه والله أعلم أي الحالين كان"[١]. كذلك عندما تحدث عن مصير الأمراء الذين جردهم نائب السلطنة الأمير بمصر سيف الدين منكوتمر إلى سيس، قال: "وأما بقية الأمراء الذين كانوا في ذلك التجريد، فمنهم من مرض وقضى، ومنهم من عاد متمرضاً، وقال الناس:أنهم اغتيلوا هنالك، والله أعلم بذلك"[٢].

ثانياً: أسلوبه الأدبي في عرضه لمادته التاريخية

١. لم يخرج بيبرس المنصوري في أسلوبه عما هو مألوف في عصره، فقد استخدم في مؤلفاته أسلوباً أدبياً يعتمد على المحسنات البديعية خاصة السجع في سرد الأحداث التاريخية من غير تكلف، وبطريقة لا تخل في المعنى، وهي طريقة معروفة عند علماء عصره، ومن الأمثلة التي تدل على أسلوبه المشار إليه هذه العبارات والجمل المقتطفة من مؤلفاته كقوله: "...ودفعوا هذا العدد الشديد الذي أفنى العديد، وأباد كل من طاوله في الأمد القريب من المدى البعيد"[٣]، وقوله: "قدر الله تعالى بجميل تقديره ولطيف تدبيره"[٤] وقوله: "ولما التقت الصفوف وأسلت السيوف، وأصليت الأبطال نيران الحتوف، برز الملك المظفر بمن ظافرة من أهل الإيمان وآزره من الفرسان..."[٥]، وقوله: "أشرق كوكب السعود، وبزغ هلال أضاء بإبداره الوجود، وبشر السلطان بأسعد ولد وأعظم مولود"[٦]، وقوله: "لما كانوا عليه من سوء التدبير،

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٠-٥١.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٥) المنصوري، التحفة، ص٤٣.

(٦) المنصوري، التحفة، ص١١٣.

وفرط التبذير، وإضاعة ما كان والدهم خزنه بها من الأموال الجزيلة، والذخائر الكثيرة"[1]، وقوله: "وأعيد له الجواب بما اقتضاه الصواب"[2].

وقد أشار ابن تغري بردي إلى أسلوبه هذا، فقال: "ومما يدل على فضله ما أورده في تاريخه من الكلام المسجع"[3].

ومع أن كتابات بيبرس المنصوري تمتعت بتداعي الأفكار بأسلوب فصيح، فقد قدم اعتذاره عن التقصير في العبارة والجمل كما هو واضح في كتابه: التحفة الملوكية في الدولة التركية، حيث قال: "وأنا أسال الصفح عن التقصير في العبارة والجمل على أن هذه الأدوات ليست لي غريزة بل مستعارة إذ كان هذا المضمار ليس بميدان الأتراك ولا لهم في حلبته اشتراك، فأنا متعلق بالأذيال في النسج على هذا المنوال:

إن تجد عيباً فسد الخللا

جل من لا عيب فيه وعلا"[4].

٢. أما السمة الثانية التي اتسم بها أسلوب بيبرس المنصوري في كتاباته، فهي استخدامه التشبيه والاستعارة في وصفه للكثير من الأحداث التاريخية من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنية أو الأبيات الشعرية أو الأمثال العربية، وهذا الأسلوب ساعد على إضفاء بصمة جميلة على الأحداث، فعلى سبيل المثال على أسلوبه ما ذكره عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م من: "هبوب ريح سموم عاصفة وقت الحصاد، فأفسدت زروع البلاد، فهافت الغلة ورجعت كثرتها إلى القلة، وجف الزرع بكل مكان وخف الضرع من كل حيوان... وقد كان الناس مستبشرين بإقبال سنتهم وامتداد نيلهم، وخصب زراعتهم، فلم يفجأهم إلا همودها وتلافها وهيفها وجفافها، فكانوا كما قال الله

---

(١) المنصوري، مختار، ص٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٨.

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٧٧.

(٤) المنصوري، التحفة، ص٢٤٠.

تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]".

كذلك من الأمثلة على أسلوبه قوله: "وبلغ [يقصد الملك الظاهر بيبرس] من الدرجات الملوكية أعلاها ومن التصرفات السلطانية أسناها فكان كقول أبي الطيب المتنبي رحمه الله:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مرةٍ
بلغت من العلياء كل مكان"[2].

٣. ولم يقتصر أسلوب بيبرس المنصوري على ما تقدم بل اتسم أسلوبه بسمة ثالثة تمثلت بالإيجاز والاختصار في نقل الأحداث التاريخية، وهذا واضح في كتاباته، ففي كتابه التحفة الملوكية قال: "وقصدت اختصارها لتعجيلها وإيجازها للإضراب عن تطويلها لتحلو مواقعها وتسهل على من يطالعها، ولو سردت تفاصيل السيرة الشريفة لأطنبت، ولو ذكرت غرائب آثارها لأسهبت..."[3]. كما يمكن أن يستدل على أسلوبه هذا من خلال الإطلاع على تراجمه في كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، حيث يلحظ أنه لم يتحر في سرده لأسماء تراجمه رسم صورة واضحة عنهم، فقد كان يكتفي في أغلبها بذكر الكنية ثم الاسم فسلسلة النسب حتى انتمائه المذهبي -إن وجد-، ثم اللقب -إن وجد-، ثم التخصصات العلمية -إن وجدت- ثم الوظائف

(١) المنصوري، التحفة، ص١٨٢-١٨٣. والآية التي وردت في النص هي الآية ٢٤ من سورة يونس.
(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٩.
(٣) المنصوري، التحفة، ص٢٣٩.

الإدارية والسياسية -إن وجدت-، ومكان الوفاة وسنتها[١]. أما بقية تراجمه، فقد جاءت مقتضبة مجردة من أي أمر من الأمور الآنفة الذكر، بحيث كان يكتفي فقط فيها بذكر الاسم والنسب، وأحياناً الوظائف الإدارية والسياسية ومكان الوفاة وسنتها[٢].

ومما يدل أيضاً على اختصاره في تراجمه أنه كان يقول أثناء ذكره لها: "وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره"[٣].

ولم يقتصر إيجازه واختصاره على مؤلفاته السابقة بل يلحظ من دراسة مصنفه مختار الأخبار أنه أورد فيه معلومات مقتضبة ومختصرة.

ثالثاً: مصادره

يتضح من دراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية أنه اعتمد في استقاء معلوماته فيها على نوعين من المصادر هما:

١. المصادر الشفوية:

اعتمد بيبرس المنصوري في استقاء معلوماته في معظم الأحداث التاريخية التي لم يكن فيها شاهد عيان على مصادر شفوية انقسمت إلى قسمين:

أ. مصادر شفوية كان لها مشاركة في صنع تلك الأحداث أو على اطلاع بها، اتصل بها وحدد أسماءها، ويتضح ذلك في العديد من الحالات منها قوله: "وها أنا أذكر

---

(١) انظر: المنصوري، زبدة الفكرة، تراجم ص٨، ٩، ١١، ١٥، ١٦، ١٨، ٢٣، ٣٣، ٤٤، ٥٧-٥٨، ٧٣، ٧٧، ١٠٢، ١٠٦-١٠٧، ١١٦، ١٢٢-١٢٣، ١٢٦-١٢٧، ١٣٢-١٣٣، ١٣٥... الخ.

(٢) انظر: المنصوري، زبدة الفكرة، تراجم ص١٥٩، ١٦٥، ١٨٠، ١٨٤، ١٩٠، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦١، ٢٩١، ٣١٢، ٣٢٩، ٣٥٠، ٣٩١-٣٩٢، ٤٠١، ٤٠٨-٤٠٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ترجمة ص٧٧.

خبراً أخبر به السلطان الشهيد المخدوم الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله..."[١]، وقوله: "وكان مؤمن أغا هذا يتردد إليّ يقص ما يعلمه من أخبار البلاد الشرقية عليّ، وهو الذي حدثني بمقتل منكوتمر وما جرى له وكان خبيراً بأحوال التتار وذراريهم..."[٢]، وقوله: "ورد سيف الدين جنكلي إلى الديار المصرية في الدولة الناصرية، واخبرني من لفظه بذلك..."[٣]، وقوله عن المصدر نفسه خبراً أخر: "ولقد اتفق فيما بعد وصول الأمير سيف الدين جنكلي بن البابا أحد أمراء التتار إلى الديار المصرية، فاخبرني أنه كان في تلك السرية..."[٤]، وقوله: "ولقد حدثني الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، تغمده الله برحمته، وكان بالميسرة، أنه..."[٥].

ب. مصادر شفوية كان لها مشاركة في صنع تلك الأحداث أو على اطلاع بها اتصل في معظمها، بيد أنه لم يحدد أسماء أصحابها، ويظهر ذلك من قوله: "وحكي أن"[٦]، وقوله: "ذكر بعض أهل المعرفة بالأخبار"[٧]، وقوله: "أخبرني من حضر هذه الوقعة أن..."[٨]، وقوله: "ولم أشهد هذه الغزاة، ولكن أخبرني من باشرها ونقل إليّ أمرها من حضرها"[٩]، وقوله: "ولم أكن بالقاهرة عند هذه الحادثة... وإنما بلغني أمرها ممن شهدها..."[١٠]، وقوله: "ولقد ذكر لي"[١١]، وقوله: "ولقد حكي عن شيخ من

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤-٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٦.

(٣) المنصوري، التحفة، ص١٠٩.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٩؛ المنصوري، التحفة، ص١٣١.

(٥) المنصوري، مختار، ص١١١.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٦، ٣٧٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٨) المصدر نفسه، ص١٨٣.

(٩) المصدر نفسه، ص٢٦٦.

(١٠) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٤-٣٠٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٣.

(١١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١١.

أهل الفلاحة ببلد أشموم"[١]، وقوله: "ولقد حكى من شهد الوقعة..."[٢]، وقوله: "قال بعض المؤرخين"[٣]، وقوله: "حدثني من أثق إليه"[٤]، وقوله: "حدثني بعض الثقات"[٥].

٢. المشاهدة والملاحظة.

جاءت معلومات بيبرس المنصوري في هذا الجانب على قسمين؛ القسم الأول: وهي المدة التي لم يعاصرها، وقد اعتمد فيها على بعض المصادر المدونة، وهذا يتضح من قوله: "وذكر عزالدين بن عساكر في تاريخه"[٦]، وقال في موضع آخر عند ترجمته للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء: "وله أي: ابن عبد الظاهر السيرة الظاهرية التي أبدع فيها نظماً ونثراً، وغير ذلك، وقد ذكرنا مقطعات من أشعاره الواردة هذه السيرة، ونبذاً من توقيعاته الأثيرة"[٧]. وقال في موضع ثالث: "فحضرتني حكاية رويتها عن عيسى ابن مريم عليه السلام مدونة في كتاب موسوم بعيون الحكايات"[٨].

أما القسم الثاني، فهي الفترة التي شاهد أحداثها ولاحظها وشارك فيها، فالمتصفح ليومياته يلاحظ أشارته لذلك بصراحة من خلال الكثير من العبارات، كقوله: "وحضرت هذه الغزاة"[٩]، وقوله: "فوصلنا إلى المصيصة"[١٠]، وقوله: "ولما حصل اجتماعنا"[١١]،

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٤.

(٣) المنصوري، مختار، ص٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٠.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٨) المنصوري، التحفة، ص٢١٥.

(٩) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(١١) المصدر نفسه، ص٣٦٤.

وقوله: "فجمعونا للاستشارة"[1]، وقوله: "وكنت فيمن أبعده منكوتمر"[2]، وقوله: "واجتمعت بالقوم"[3]، وقوله: "فذكرت ما عندي في هذا الأمر"[4]، وقوله: "وكلما تهيأ لنا الاجتماع عنده"[5]، وقوله: "وكنت أشاهدهم"[6].

رابعاً: تاريخ تأليفه مؤلفاته

بدراسة مقدمة التحفة الملوكية في الدولة التركية يتضح أن تدوين مؤلفات بيبرس المنصوري لاسيما زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، والكتاب المشار إليه آنفاً قد كان في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبإشراف منه عليهما كما يصرح المؤلف نفسه، بدليل قوله: "... إذ كان تصنيف أصله وفرعه في أيامه[7]، وتأليف وضعه بما أفاضة من فواضل إنعامه ليشرفه بمطالعته ويعطره بملاحظته ويجتلي منه أنوار سلفه الشهيد [الملك المنصور قلاوون]، ويجتني ثمار تصرفه السعيد، ويتذكر ما آتاه الله من الرأي السديد والملك الذي لا يبيد"[8].

ومع أن بيبرس المنصوري ذكر زمن تدوينها، إلا أنه لم يحدد تاريخ كتابتها، ولكن يمكن القول أن زبدة الفكرة قد كتبت قبل التحفة الملوكية بفترة قصيرة، وتحديداً قبل أن يتم سجن بيبرس المنصوري من قبل السلطان الناصر محمد عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، والدليل على ذلك قوله: "... ثم اختصرت من الجزء المذكور [يقصد زبدة الفكرة] جزءاً... قربت ألفاظه ومعانيه [يقصد التحفة الملوكية]..."[9].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤١٤.

(٢) المنصوري، التحفة، ص١٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٨٣-١٨٤.

(٥) المصدر نفسه، ص١٩٧.

(٦) المنصوري، مختار، ص١١٤.

(٧) يقصد المؤلف بأصله كتابه زبدة الفكرة، أما فرعه فيقصد به التحفة الملوكية، وفي أيامه يعني في زمن السلطان الملك الناصر محمد.

(٨) المنصوري، التحفةه، ص٢٤.

(٩) المصدر نفسه، ص٢٤.

أما كتابه مختار الأخبار، فإن فقدان معظم أجزائه حال دون الرجوع لمقدمته للتعرف على تاريخ تصنيف هذا المؤلف، ولكن يبدو أن تأليفه كان بعد تدوين التحفة الملوكية في عهد السلطان الملك الناصر محمد، بدليل أنه كان يكرر كلمة "مولانا السلطان" في هذا الكتاب، ناهيك عن عدم ذكر المؤلف لهذا الكتاب في مقدمة كتابه التحفة الملوكية الأمر الذي يوحي للباحث أنه كتب بعد التحفة.

خامساً: أثره في الدراسات المعاصرة له والتالية

حظي بيبرس المنصوري ومؤلفاته باهتمام المؤرخين المعاصرين له والتالين، فقد أفاد منه من مؤرخي القرن الثامن الهجري، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) وهو مؤرخ معاصر لبيبرس وأشار إلى ذلك في مصنفه نهاية الأرب في فنون الأدب، حيث قال في ترتيب العساكر المملوكية في وقعة حمص عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م مع المغول: "... ورتب [السلطان المنصور قلاوون] العساكر المنصورة الإسلامية على ما نذكره، بمقتضى ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري في تاريخه هو الميمنة المنصورة...الميسرة المباركة... مقدمة القلب..."[١]. ويبدو أن النويري قد قصد بتاريخ بيبرس كتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة لأن مقارنة النص الذي اقتبسه النويري مع كتاب بيبرس المشار إليه يثبت أنه نفس النص.

كما جاء النويري على ذكر بيبرس المنصوري في مؤلفه المشار إليه آنفاً كمصدر من مصادر معلوماته، فقال: "وأخبرني الأمير ركن الدين بيبرس، في ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة، أنه ضرب على رأسه بدبوس وأراني أثر الضربة. وكان قد ذكر لي [كما يقول النويري] ذلك في أثناء ذكره السالف خدمة السلطان، وما لقيه وقاساه"[٢].

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣١، ص١٧٣.

أما مؤرخو القرن التاسع الهجري، فقد أفاد منه ابن الفرات ناصرالدين محمد ابن عبدالرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م) الذي استقى منه معلومات في كتابه تاريخ ابن الفرات تتعلق بترتيب العساكر المنصورة في وقعة حمص المشار إليها آنفاً، حيث قال: "... ورتب [السلطان المنصور قلاوون] العساكر المنصورة الإسلامية على ما نذكره بمقتضى ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري في تأليفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة وهو...الميمنة المنصورة...والميسرة المباركة..."[١].

أما العيني بدرالدين محمود (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، فقد عول كثيراً على مؤلفات بيبرس المنصوري، بحيث أسهب في الاقتباس منها، والمسح الدقيق لكتابه عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان يثبت ذلك، فقد استقى منه حوالي مائة وتسع روايات لا يتسع المجال هنا لذكرها، ومن الملاحظ أن العيني في هذه الروايات التي أفاد منها لم يحدد أياً من مؤلفات بيبرس التي أطلع عليها، فقد اكتفى في كل رواية بذكر "قال بيبرس في تاريخه"[٢]، و"قال بيبرس"[٣]، و"في تاريخ بيبرس"[٤]، باستثناء روايتين صرح أنه استقاهما من كتاب بيبرس المسمى "اللطائف"[٥].

ومن مؤرخي القرن التاسع الهجري الذين اطلعوا على كتابات بيبرس المؤرخ ابن تغري بردي جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) الذي أشار في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة إلى معلومات استقاها منه تتعلق بمقتل لاجين عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، فقال: "وقال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه:وكان سبب قتل

---

(١) ابن الفرات، تاريخ، مج٧، ص٢١٥.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٦، ٣١، ٤٤، ٦٠، ٦٣، ٧٣، ١٦٧، ١٨٠، ٢٠١، ٢٤٤، ٣٤٩؛ ج٣، ص٦٥، ٨٣، ١٢٠ ، ١٥٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٩٩، ٣٠٤، ٣١٩، ٣٤٥، ٣٩٤، ٤٢١؛ ج٤، ص١٥، ٦٦، ٧١، ٧٦، ١٢١، ١٨٥، ١٩٥، ٢٦٠،٢٢٥، ٣٠٩،٢٩٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٤٣-٢٤٥، ٣٥٩، ٣٨٥، ٤٠٨، ٤٤٩، ٤٥٨، ٤٦٨، ٤٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٧، ٨، ٢٢، ٤٧، ٥٨، ٩٢، ١١٥، ١٢٨، ١٤٠، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٨٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٨، ٣٧٨؛ ج٣، ص٣٠٤، ٤٤٧؛ ج٤، ص٢٠٤، ٢٣٥، ٢٨٦، ٢٩١، ٣٠٨، ٤٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٨١، ٢٦٢، ٣٨٢، ج٣، ص٢٠٥.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٠، ج٤، ص٣٧٨.

لاجين أمور..."[1]. كما جاء على ذكره في نفس كتابه المشار إليه آنفاً، حيث اقتبس منه معلومات تتعلق بأسماء الأمراء الذين تولوا الوظائف الإدارية في مصر والشام عند تقلد زين الدين كتبغا السلطنة، ويظهر ذلك من قوله: "قال بيبرس: فلما تسلطن رتب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً..."[2]. فضلاً عن اقتباسه منه معلومات تتعلق بهروب بعض المماليك من مصر إلى الكرك للالتحاق بالملك الناصر محمد بعد خلعه من السلطنة المرة الثانية، ويتبن ذلك من قوله: "قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: تسحب من الديار المصرية إلى الكرك المحروس سيف الدين نوغاي القفجاقي أحد المماليك السلطانية وسيف الدين تقطاي الساقي وعلاء الدين مغلطاي القازاني، وتوجه معهم... مائة وستة وثلاثون نفراً..."[3]. كما استقى منه معلومات أخرى فقال: "وقال بيبرس في تاريخه: وأرسل السلطان [الناصر] إلى الأفرم رسلاً بالأمان والإيمان..."[4]. أيضاً اقتبس منه معلومات تتعلق بذهابه إلى السلطان الناصر لإخباره بنزول الجاشنكير عن السلطنة، وبطلبه الأمان منه، وهذا يظهر من قوله:" قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: وأما نحن فانا تقدمنا على البريد فوصلنا إلى السلطان يوم نزوله على غزة فمثلنا بين يديه وأعدنا المشافهة عليه، وطالعناه بنزول الركن عن السلطنة والتماسه مكاناً من بعض الأمكنة..."[5].

كما فعل ابن تغري بردي الشيء ذاته في كتابه المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي الذي أورد فيه رواية استقاها من بيبرس المنصوري تتعلق بالسلطان الظاهر بيبرس فقال: "قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: وكان القمر قد كسف كسوفاً كاملاً، أظلم له الجو، وتأول ذلك المتأولون بموت رجل جليل القدر، فقيل إن السلطان لما بلغة

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص١٠٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٨، ص٢٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ج٩، ص٤.

ذلك حذر على نفسه، وخاف..."[1]. ومن الملاحظ فيما تقدم أن ابن تغري بردي لم يحدد أياً من مؤلفات بيبرس التي استقى منها معلوماته.

وفي القرن التاسع الهجري أيضاً كان المؤرخ ابن فهد عمر بن فهد بن محمد (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م) من الذين اطلعوا على مؤلفات بيبرس المنصوري، فقد أشار إلى ذلك في مؤلفة إتحاف الورى بأخبار أم القرى، حيث قال فيما يتعلق بقدوم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل إلى مكة للحج، ثم انصرافه إلى اليمن: "... فرحل من مكة إلى اليمن في العشر الثاني من ذي القعدة، كذا ذكر بيبرس الدوادار"[2]. كما فعل ابن فهد الشيء ذاته في كتابه المشار إليه آنفاً، حيث استقى من بيبرس معلومات أخرى تتعلق بأخبار الركب المصري الذي خرج للحج عام ٧١١هـ/١٣١١م، وما حصل بين أبناء أبي نُمَي شريف مكة وأميرها من خلاف حين وصول الركب، وقد ذكر ابن فهد الرواية وقال في نهايتها: " كذا قال بيبرس الدوادار"[3]. ومن الملاحظ إن ابن فهد لم يحدد أياً من مؤلفات بيبرس التي استقى منها معلوماته.

لم يقتصر الاهتمام بمؤلفات بيبرس المنصوري على المؤرخين في الشرق العربي السالف ذكرهم بل تعدى ذلك للمؤرخين في المغرب العربي، فمن الذين اطلعوا على مؤلفات بيبرس المنصوري وأفادوا منها المؤرخ المقري أحمد ابن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م) الذي أشار لذلك في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حيث قال في ترجمته لابن الصائغ: "وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً، له تصانيف في الرياضيات والمنطق..."[4].

---

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٦٣.

(٢) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٩.

(٣) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٣٥.

(٤) أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، بيروت١٩٨٨م، مج٧، ص٢٨.

تلك منهجية وأسلوب بيبرس المنصوري في كتابة تاريخ دولة المماليك البحرية، فالسؤال المطروح الآن كيف أرخ لدولة المماليك البحرية على صعيد سياستها الخارجية والداخلية؟.

الفصل الثالث

السياسة الخارجية لدولة المماليك البحرية
كما أرخ لها بيبرس المنصوري



أولاً: تمهيد

يقتضي قبل الحديث عن دور بيبرس المنصوري في التأريخ لدولة المماليك البحرية الإجابة عن السؤالين التاليين:

١. ما هي مؤلفات بيبرس المنصوري التاريخية التي عول عليها الباحث في هذه الدراسة؟.

٢. ما المقصود بدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري؟.

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول، فقد اقتصرت مادة بيبرس المنصوري التاريخية على ما دونه في كتبه الثلاثة التالية:

أ. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (الجزء التاسع الخاص بتاريخ دولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م).

ب. التحفة الملوكية في الدولة التركية.

ج. مختار الأخبار (الجزء الخاص بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م).

وقد قام الباحث بإيراد معلومات مهمة عن هذه المؤلفات في الفصل الأول. إضافة لقيامه بمسح دقيق لتلك المؤلفات، ومقارنتها مع بعضها البعض، لبيان نسبة المادة التاريخية التي تضمنتها عن دولة المماليك البحرية، ولا سيما فيما يتعلق بسياستها الخارجية والداخلية.

أما بالنسبة للسؤال الثاني، فيقصد بدولة المماليك البحرية كما أرخ لها بيبرس المنصوري مجموعة الروايات التي سجلها المؤرخ بيبرس المنصوري عن الدولة المملوكية

تجاه غيرها، سواء كان ذلك على صعيد سياستها الخارجية والداخلية في إطار زمني يمتد بين سنتي (٦٤٨-٧١١هـ/١٢٥٠-١٣١١م). وهذا ما تعنى هذه الدراسة بتسليط الضوء عليه.

ثانياً: سياسة الدولة المملوكية تجاه الدولة المغولية الإيلخانية

جاءت السياسة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين في مقدمة اهتمامات بيبرس المنصوري، فقد دونّ في هذا الجانب كماً هائلاً من المعلومات تقدر نسبتها بـ٤٠٪ من إجمالي المادة التي كتبها عن السياسة الخارجية.

ابتدأ بيبرس المنصوري مادته التاريخية عن السياسة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين بإعطاء نبذه عن الواقع السياسي لبلاد الشام قبيل موقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م[١]، ولا يتسع المجال هنا للدخول في التفصيلات، لأن ذلك يعد خارج إطار هذه الدراسة.

تدرج بيبرس المنصوري بعد ذلك بتدوين المعلومات المتعلقة بموقعة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م دونما توسع في المادة التي كتبها عن هذه الموقعة، فقد أوضح بدايةً موقف السلطان المظفر قطز من رسل قائد المغول كتبغا نوين الذين قدموا إليه برسالة يطالب فيها منه ببذل الطاعة، وتعبئة الضيافة، فذكر أنه: "أمر... بقتلهم، فقتلوا وطُوِّفَتْ رؤوسهم الأسواق"[٢]. كذلك وضح بيبرس المنصوري العبء الذي وقع على كاهل السلطان المظفر قطز ودولته الفتية إثر اجتياح المغول لبلاد الشام حيث "لم يبق من يدفعهم عن العباد والبلاد إلا عسكر الديار المصرية"[٣] على حد قوله. فأبرز دوره في اتخاذ الاستعدادات المناسبة لمواجهة هذا الخطر الذي أحدق بالبلاد الإسلامية،

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤-٥٠؛ المنصوري، التحفة، ص٣٣-٤٢؛ المنصوري، مختار، ص٩-١١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٠؛ المنصوري، التحفة، ص٤٣-٤٤.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٠.

وقال إنه: "اتفق... مع الأمراء والأكابر على تجهيز العساكر، وصمموا على لقاء العدو المخذول، واستعانوا بالله وبالرسول، وجمعوا الفارس والراجل من العربان، وغيرهم، واستعدوا أعظم استعداد، وبايعوا الله على الجهاد"[1].

ومع ذلك يلحظ أن بيبرس المنصوري في تأريخه لهذه الموقعة يتجاهل الحديث عن كيفية تصفية الخلافات التي كانت بين أمراء المماليك البحرية وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري والدولة المملوكية ممثله بسلطانها المظفر قطز، فنجده يجمل ذلك، فيقول: "وخرجوا من القاهرة المحروسة بأعظم أهبة وأجمل زي وأكمل رهبة، وقد أخلصوا النيات وأصفوا الطِ ' "[2]. ويبدو أن تجاهله يعود لعدم رغبته في الإطالة حتى ينسجم ذلك مع تسمية مؤلفه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة.

على الرغم من تجاوز بيبرس المنصوري بعض المعلومات المتعلقة بالموقعة، فإنه أرخ لجرياتها ونتائجها، فقد :كر أن السلطان المظفر، بعد أن حشد قواته، التقى بقوات كتبغا نوين قائد المغول وكان تعدادهم ١٢ ألف فارس في عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[3] "فلما التقى الجمعان واتصل الضراب والطعان حمل المظفر بنفسه، وألقى خوذته عن رأسه، وحملت الأمراء البحرية والعساكر المصرية حملة صادقة كانت للعدو صاعقة، فكسروهم أشد كسرة... فقتل كتبغا نوين في المعركة"[4].

كما أرخ بيبرس المنصوري لدور الأمير بيبرس البندقداري قائد المماليك البحرية في تتبع المغول المنهزمين والقضاء على الإمدادات الواصلة لهم من عند هولاكو فذكر أنه: " تبع المنهزمين وأتى عليهم قتلاً وأسراً حتى استأصل شافتهم، فلم يفلت أحد منهم، وصادف طائفة من التتار جاءت من عند هولاكو مدداً لكتبغا، فلما وصلت هذه النجدة إلى بلد حمص صادفت التتار المنهزمين على أسوأ الأحوال والخيول تجول في طلبهم كل

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥١؛ المنصوري، التحفة، ص٤٣-٤٤؛ المنصوري، مختار، ص١١.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥١؛ المنصوري، التحفة، ص٤٣-٤٤.

مجال، فلم تمكنهم الهزيمة، فكانوا للسيوف غنيمة، وكانت عدتهم ألفين، فلم يبق لهم أثر ولا عين"[1].

يعلق بيبرس المنصوري في نهاية حديثه عن الموقعة على أنها تعد أولى الوقائع بين دولة المماليك البحرية والمغول الإيلخانيين، مبرزاً أنه بموجبها تمكنت دولة المماليك البحرية من بسط نفوذها على بلاد الشام[2]، ويعني بذلك امتداد الحكم المملوكي إليها لتصبح جزءاً من دولة المماليك البحرية.

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة المغول الإيلخانية بعد موقعة عين جالوت، فبيّن أنه ما أن تولى السلطان الظاهر السلطنة- بعد تخلصه من المظفر قطز كما سيأتي بيانه لاحقاً- حتى قام بإحياء الخلافة العباسية وتبني مشروع إعادتها إلى بغداد إثر طلب الخليفة أبي العباس أحمد الملقب بالمستنصر بالله منه في أول خطاب له في القاهرة بقوله:" وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول"[3].

بدأ السلطان الظاهر باتخاذ الإجراءات المناسبة للقيام بحملة عسكرية لاستنقاذ العراق من المغول الإيلخانيين، حيث بيّن بيبرس المنصوري من خلال مادته التاريخية التي دونها عن ذلك أولاً حرص السلطان الظاهر على ألا يخرج الخليفة بالحملة إلا بعد استكمال الاستعدادات العسكرية والإدارية، وفي هذا يقول:" فكان ما أنفقه على كلفته ألف ألف وستون ألف دينار مصرية"[4].

وما أن استكملت الاستعدادات الخاصة بالحملة في مصر، حتى توجه كل من الخليفة والسلطان في السادس من شوال من عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م على رأسها نحو بلاد الشام[5]،

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥١؛ المنصوري، التحفة، ص٤٣-٤٤.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥١-٥٢؛ المنصوري، التحفة، ص٤٤.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٣-٦٥.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٥؛ المنصوري، التحفة، ص٤٧؛ المنصوري، مختار، ص١٧.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٦-٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص٤٧؛ المنصوري، مختار، ص١٨-١٩.

وقد ذكر بيبرس المنصوري أن أبناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كانوا برفقتهما في الحملة مبيناً أن القصد من اصطحابهم هو إرسالهم إلى الموصل " لتقرير ما تغير من القواعد، وإعادة الأحوال بدار السلام وممالك الإسلام على العوائد"[1].

بعد وصول الحملة لبلاد الشام، ركز بيبرس المنصوري على كيفية قيام السلطان الظاهر بإمداد الخليفة المستنصر بالله بقوات عسكرية ترافقه حتى حدود العراق، فقال:" وجرد معهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي والأمير شمس الدين سنقر الرومي وهما من أكابر الأمراء وأعيان ذوي الآراء، وجرد معهما طائفة من العساكر وأوصاهما أن لا يزالا مع الخليفة إلى أن يوصلاه إلى الفرات، فإذا عبر الفرات يقيمان ببره الغربي وبجهة البلاد الحلبية لانتظار ما يتجدد من جهة الخليفة حتى إذا احتاج إليهما أو أرسل من يستدعيهما يبادران إليه بمن معهما من العسكر ولا يدعان أحداً يتوقف عنه ولا يتأخر"[2]. واعتبر المنصوري أن السلطان الظاهر تحرى في خطته هذه "تشييداً لدعائم الإسلام ورغبة في حفظ نظام الإمامة والإمام"[3]

تابع بيبرس المنصوري بعد ذلك التطورات التي استجدت إثر خروج الحملة من بلاد الشام للعراق في ثلاثة اتجاهات:

١. ما يتعلق بمصير الخليفة العباسي المستنصر بالله:

توجه الخليفة بعد وداع السلطان الظاهر له في دمشق بالحملة نحو العراق، حيث عبر الفرات، ولم ينتظر ريثما يستطلع أخبار المغول ظناً منه على حد قول بيبرس المنصوري"أنهم قد انتزحوا عن العراق، وفارقوا تلك الآفاق على عوائدهم المعهودة منهم وقواعدهم المألوفة عنهم أنهم يخربون ويذهبون، ولم يدر أنهم في البلاد ساكنون وبها كامنون"[4].

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٦-٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص٤٧؛ المنصوري، مختار، ص١٨-١٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٦-٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص٤٧-٤٨؛ المنصوري، مختار، ص١٨-١٩.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٨؛ المنصوري، التحفة، ص٤٨.

ولم يتوان بيبرس المنصوري عن إيراد معلومات تتعلق بكيفية رد المغول على حملة الخليفة ومصيره، فقد ذكر أنه ما أن تقدم الخليفة في العراق حتى علم المغول بقدومه "فجردوا إليه عسكراً... فأدركوه، وقد بلغ عانا (عانه)، فحاربوه حرباً عوانا، فصابرهم جهده، وثبت لصدمتهم... ثم تكاثروا عليه، وتبادروا إليه، فلم يكن له قبل بكثرتهم، ولا طاقة بمنعهم لمنعتهم، فأخذته السيوف، وأدركته الحتوف، فمات شهيداً وتولى حميداً وقتل أكثر من كان معه، وتفرق العديد بديداً"[1].

٢. ما يتعلق بمصير السلطان الظاهر، وموقفه من مقتل الخليفة:

ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر بقي في بلاد الشام بعد مغادرة الحملة نحو العراق[2]، دون أن يحدد أسباب عدم مشاركته فيها. أما موقف السلطان الظاهر من مقتل الخليفة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر ساءه ذلك "وتأسف غاية الأسف لو أنه أجدى"[3].

٣. ما يتعلق بمصير أبناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل:

أما أبناء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنهم عادوا للموصل بعد انفصالهم عن حملة الخليفة أثناء الطريق[4]، ليواجهوا بعد ذلك حصاراً من قبل المغول استمر مدة تسعة أشهر وانتهى بمقتل الملك الصالح ابن الرحيم ودخولها الموصل[5]، وأما أخواه المجاهد والمظفر، فقد رجعا إلى الشام[6].

يسلط بيبرس المنصوري بعد ذلك الضوء على كيفية تعامل دولة المماليك البحرية مع الاعتداءات التي بدأ يشنها الغزاة المغول على بلاد الشام إثر فشل المماليك في استرجاع

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٨؛ المنصوري، التحفة، ص٤٨؛ المنصوري، مختار، ص١٩.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٨؛ المنصوري، التحفة، ص٤٨.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٦-٦٨؛ المنصوري، التحفة، ص٤٧-٤٨؛ المنصوري، مختار، ص١٨.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٨؛ المنصوري، التحفة، ص٤٨-٤٩؛ المنصوري، مختار، ص١٩.

(٦) المنصوري، مختار، ص١٩.

العراق منهم، فقد بلغت حسب ما دونه بيبرس المنصوري في الفترة الممتدة بين سنتي (٦٦٠-٦٨١هـ/١٢٦١-١٢٨٢م) عشرة اعتداءات، فيما يلي بيانها وكيفية تعامل دولة المماليك البحرية معها:

١. اعتداء المغول على البيرة عام٦٦٣هـ/١٢٦٤م:

أورد بيبرس المنصوري معلومات مفصلة عن هذا الاعتداء، فذكر أن المغول قاموا بقيادة درباي بشن حملة عسكرية على البيرة التي تم محاصرتها سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م، مما دفع السلطان الظاهر إلى أن يجرد" الأمير عز الدين يوغان الملقب بسم الموت بمقدمة العساكر، ومن جرد معه من الجند المتوجهين جرائد، فتوجهوا في رابع ربيع الأول"[١]. ويبدو أن السلطان الظاهر كان يهدف من تلك الحملة التي بعثها التمويه على المغول حتى يخرج بنفسه لمواجهتهم، ودليل ذلك يتضح من خلال الاستعدادات العسكرية التي بدأ يعدها إثر خروج الحملة المشار إليها" فشرع...في التجهيز، وإحضار الخيول من الربيع... ورحل في سابع ربيع الآخر، فوصل غزة في العشرين منه"[٢].

لم يتابع السلطان الظاهر مسيره إلى البيرة، بسبب ورود كتاب الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام إليه بالعودة، لأن المغول تراجعوا لما شاهدوا عدد القوات المملوكية" فانهزموا، وكان درباي... قد نَصَبَ على البيرة سبعة عشر منجنيقاً، فلما ولّوا هاربين عدّى العسكر(المملوكي) الفرات، ونهبوا المجانيق وسائر الآلات"، وبهذا استبشر السلطان الظاهر وغيّر وجهته بقواته إلى المدن الإفرنجية[٣].

٢. اعتداء المغول على مدينة الرحبة وحلب عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م:

لم يفصل بيبرس المنصوري في معلوماته عن هذا الاعتداء، فقد ذكر أن المغول في العام المشار إليه قاموا بشن هجمة على الرحبة وحلب، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك -

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٥.

وكان يومئذ في صفد- أسرع باتجاه دمشق لإعداد العدة لمواجهتهم، ولكن ورود الرسائل بتراجع المغول عنها، جعله يعود إلى صفد لإكمال عمارة قلعتها[1].

ومع أن العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة المغول الإيلخانية كانت سيئة كما يتضح مما تقدم، إلا أن بيبرس المنصوري لم ينس إيراد معلومات مهمة عن محاولة الدولتين لتحسين العلاقة بينهما، فقد ذكر أنه لم يمض على اعتداء المغول على الرحبة عامين(أي: عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م) حتى قام إيلخان المغول أبغا بإرسال رسول بمعية التكفور صاحب سيس إلى السلطان الظاهر الذي استقبلهما وأكرمهما، وتسلم كتاباً من رسول أبغا تضمن معاني الصلح[2].

أعاد السلطان الظاهر مع الرسول الواصل إليه من أبغا رده على الكتاب الذي بعثه، وكان يتضمن في فحواه أيضاً معاني الصلح[3].

٣. اعتداء المغول على الساجور قرب حلب عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م:

وبالرغم من محاولة الدولتين تحسين العلاقات بينهما، إلا أن ذلك لم يجدِ، فقد قام المغول بالتحالف مع الفرنج الساحلية، والاعتداء على الساجور قرب حلب سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، حيث" استاقوا مواشي العربان"[4].

هذه السياسة العدائية دفعت- على حد قول بيبرس المنصوري- السلطان الظاهر إلى أن يتوجه بنفسه لمواجهة هذا العدوان" فتوجه جريدةً في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول...إلى غزة، ومنها إلى دمشق، فانهزم التتار ومقدمهم صمغار"[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٧؛ المنصوري، مختار، ص٣٥.

(٢) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٧-١١٨؛ المنصوري، التحفة، ص٦٥؛ المنصوري، مختار، ص٣٨.

(٣) انظر نص جواب السلطان: المصادر نفسها.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٣-١٢٤؛ المنصوري، مختار، ص٤٣.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٣-١٢٤؛ المنصوري، مختار، ص٤٣.

٤. اعتداء المغول على عين تاب وعمق حارم عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م:

تابع بيبرس المنصوري تطور الاعتداءات الإيلخانية على بلاد الشام، حيث ذكر أنه ما أن انتهى هجوم المغول على الرحبة وحلب حتى اتبعوه بعد عامين بهجوم آخر بقيادة صمغار على عين تاب وحارم، وقد بيّن بيبرس المنصوري موقف دولة المماليك البحرية من هذا الهجوم، فقال: "وكتب السلطان الظاهر إلى الديار المصرية يستدعي الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي وثلاثة آلاف فارس من العسكر، فوصل البريدي إلى الأمير بدر الدين الثالثة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من ربيع الأول، فتجهز، وخرج بكرة الأربعاء هو والعسكر المطلوب، وسافروا جميعاً، فوصلوا دمشق في رابع ربيع الآخر"[١].

بعد وصول القوات للسلطان الظاهر بدمشق، سار بهم إلى حلب، ومن هناك يذكر بيبرس المنصوري أنه جرد إلى كل جهة حملة صحبة أمير من أمرائه كرد على المغول والفرنج، وقد كان بيبرس المنصوري أكثر تركيزاً على الحملة التي جردها السلطان بقيادة الحاج طيبرس الوزيري وعيسى بن مهنا إلى مرعش وحران، حيث قال: "فقتلا من وجداه بها من التتار، وانكفوا بحركة السلطان"[٢]. فضلاً عن تركيزه على الحملة التي تم تجريدها تجاه قاقون للقضاء على الفرنج الذين تحالفوا مع المغول للهجوم على عين تاب وحارم[٣].

في أعقاب هذا الاعتداء وصلت للسلطان الظاهر سفارتان من عند المغول الأولى أوجز بيبرس المنصوري في معلوماتها، فذكر أنه حضرت رسل الأمير معين الدين سليمان البرواناة نائب سلاجقة الروم ورسل صمغار مقدم المغول المقيم آنذاك في بلاد الأول إلى السلطان الظاهر سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م متجاهلاً ذكر السبب من قدومهم، مع أبرازه كيفية رد الأخير على تلك السفارة "... فجهز الأمير فخر الدين أياز المقري

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٣-١٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٧٣؛ المنصوري، مختار، ص٤٧-٤٨.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٤؛ المنصوري، مختار، ص٤٨.

والمبارز الطوري أمير طبر صحبة رسلهما بهدية إليهما وإلى أبغا، فدخلا قيسارية، واجتمعا بصمغار والبرواناة، وأوصلا إليهما الهدية، وأبلغهما جواب الرسالة، وتوجها إلى الأردو واجتمعا بأبغا، وأوصلا إليه هديته، وهي؛ جوشن ريش قنفذ وخوذه كذلك وسيف وقوس وتركاش وتسع فردات"[1].

أما السفارة الثانية، فقد كانت في سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م، ويذكر بيبرس المنصوري أن هذه السفارة الواصلة من عند أبغا لم تحقق مبتغاها، وهو الصلح مع السلطان الظاهر، لأن أبغا اشترط على السلطان الظاهر أن يحضر بنفسه إليه لعقد الصلح الأمر الذي اغضب السلطان الظاهر "وأعاد الرسل إلى مرسلهم"[2].

٥. اعتداء المغول على البيرة للمرة الثانية عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م:

بعد فشل مداولات الصلح بين السلطان الظاهر والإيلخان المغولي أبغا، قام المغول بقيادة دربيه بشن هجوم على البيرة عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م، وقد بيّن بيبرس المنصوري أنه أثناء المحاصرة للبيرة قام دربيه بتجريد طائفة من جيشه بقيادة جنغر تجاه الفرات وتحديداً إلى مخاضة القاضي، بهدف إقامة حاجز من الخشب لمنع القوات الإسلامية من الوصول إليهم[3].

أما موقف السلطان الظاهر ودولته من هذا الهجوم، فيذكر بيبرس المنصوري أن السلطان ما أن سمع بهم حتى تحرك بقواته المصرية والشامية تجاه المخاضة المذكورة "وأشرف على التتار من أعلى الجبل وهم عليهم نازلون وبها محيطون" عند ذلك استشار أمرائه بكيفية اقتحامها، فتقدم إليه الأمير المخدوم قلاوون، وقال: "هؤلاء أهون علينا من أن نستشير في أمرهم أو أن نتوقف دونهم، وأنا أعبر إليهم وأهجم عليهم، وأنما احتاج دليلاً يعرفني المخاضة"[4].

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٧٤؛ المنصوري، مختار، ص٤٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٦؛ المنصوري، التحفة، ص٧٥.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٧؛ المنصوري، التحفة، ص٧٥؛ المنصوري، مختار، ص٤٩.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٧؛ المنصوري، التحفة، ص٧٥-٧٦.

ركز بيبرس المنصوري إثر ذلك على دور الأمير المخدوم قلاوون في موقعة الفرات مع المغول، حيث بيّن أن الأخير تقدم بقواته فاقتحم الفرات بالسفن، واشتبك مع المغول الذين انهزموا أمامه، وقتل قائدهم جنغر[1].

بعد هزيمة جنغر قائد المغول، اقتحم السلطان الظاهر الفرات، واجتمع مع قوات الأمير قلاوون الأمر الذي دفع دربيه القائد العام لجيوش المغول بالتراجع عن حصار البيرة تاركاً وراءه كما يقول بيبرس المنصوري "آلاته التي أعدها للحصار، فنزل أهل البيرة وأخذوها واقتسموها وغنموها"[2].

٦. اعتداء المغول على بلاد الشام عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م:

قام المغول بقيادة الإيلخان أبغا في عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م بشن هجوم تجاه بلاد الشام كرد على الهزيمة التي لحقت بقواته في موقعة الفرات في العام الماضي، حيث أوضح بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر ما أن علم بتحركهم حتى عمل على اتخاذ الاستعدادات المناسبة لمواجهتهم، فقد كتب للأمير بدرالدين الخزندار باستدعاء القوات المصرية[3]، فضلاً عن إصداره أمراً "بأن جميع من في مملكته ممّن له فرس يركب للغزاة، وأن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل القرية، ويقومون بكلفتهم"[4].

كما قام السلطان الظاهر بتجريد حملة عسكرية بقيادة الأمير عيسى بن مهنا تجاه الدولة الإيلخانية كرد على اعتداءهم، حيث ذكر بيبرس المنصوري أنها وصلت الأنبار الأمر الذي دفع أبغا إلى التراجع عن بلاد الشام خشية من مباغتة السلطان له[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٧؛ المنصوري، التحفة، ص٧٥-٧٦؛ المنصوري، مختار، ص٤٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٧؛ المنصوري، التحفة، ص٧٥-٧٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٠؛ المنصوري، التحفة، ص٧٨؛ المنصوري، مختار، ص٥١.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) المنصوري، مختار، ص٥٢.

٧. اعتداء المغول على البيرة المرة الثالثة عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م:

لم تنته هجمات المغول على الدولة المملوكية، فقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنهم قاموا بشن هجوم على البيرة مرة أخرى بقيادة أبطاي الذي حاصرها، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، قام بتجهيز قواته، وخرج بها من دمشق لصدهم، فلما وصل إلى القطيفة "بلغه أن التتار سمعوا بحركته، فوهنوا، ورجعوا عن البيرة"(١).

٨. اعتداء المغول على كوكوصو (النهر الأزرق) وكسرتهم في موقعة الأبلستين عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م:

كما ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن دخلت سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م حتى هاجم المغول بقيادة توقو وتداون منطقة كوكوصو (النهر الأزرق)، الأمر الذي دفع السلطان الظاهر للتحرك بقواته من مصر إلى الشام، ومنها إلى كوكصو التي تركها المغول لعلمهم بوصول السلطان الذي جهز الجاليش ومقدمة صحبة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الذي وقع على ألف فارس من المغول مقدمهم كراي "فانهزموا بين أيديهم، و تيقنوا أن الدايرة [الدائرة] عليهم"(٢).

تابع بيبرس المنصوري تطورات الأحداث بين السلطان الظاهر والمغول، فذكر أن المغول لما خرجوا من كوكصو توجهوا إلى الأبلستين وكان تعدادهم ١٢ طلباً، فتبعهم السلطان الظاهر بقواته وتم الالتقاء بينهم في المنطقة المذكورة (الأبلستين)(٣)، وقد أسفر اللقاء عن هزيمة المغول والقوات المتحالفة معهم من سلاجقة الروم(٤).

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٦؛ المنصوري، التحفة، ص٨٢؛ المنصوري، مختار، ص٥٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٥٣؛ المنصوري، مختار، ص٥٧-٥٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٥٤؛ المنصوري، التحفة، ص٨٤؛ المنصوري، مختار، ص٥٧-٥٨.

(٤) المصادر نفسها.

٩. اعتداء المغول على عينتاب وبغراس والدربساك وحلب عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م:

قام المغول بعد اعتلاء الملك المنصور قلاوون السلطنة بشن هجوم على بلاد الشام عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد بيّن بيبرس المنصوري المدن الشامية التي اجتاحها المغول وسياستهم فيها خاصة حلب وكيفية موقف أهلها منهم، فقال: "وكان التتار قد وصلوا إلى عينتاب وبغراس والدربساك، وتقدموا إلى حلب فوجدوها خالية من العسكر، وقد أجفل أهلها منها، وأحرقوا الجوامع والمساجد والدور والمنازل، وعاثوا وأفسدوا"(١)، ثم تراجعوا بسبب خروج السلطان قلاوون إليهم(٢).

١٠. اعتداء المغول على بلاد الشام عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وكسرتهم في موقعة حمص:

عاود المغول الاعتداء على بلاد الشام عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وقد أعطى بيبرس المنصوري صورة مفصلة لهذا الاعتداء، وكيفية تعامل الدولة المملوكية معه، فقد بيّن الباعث الرئيسي لقدوم المغول لبلاد الشام وهو مكاتبة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر المناوئ للسلطان المنصور قلاوون لإيلخانهم أبغا(٣). كما بيّن كيفية تقدم القوات المغولية بقيادة منكوتمر تجاه حماة، وكيفية دخولها وإجبار نائبها على مكاتبة السلطان المنصور قلاوون لتعريفه بقوة المغول "وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب منها أربعة وأربعون ألفاً مغلاً"(٤).

ثم أن بيبرس المنصوري ينتقل ليورد تفصيلاً للاستعدادات التي اتخذها السلطان المنصور قلاوون إثر وصول كتاب نائب حماة له لا سيما تقسيمات قواته وأسماء الأمراء الذين تم ترتيبهم فيها (الميمنة، القلب، الميسرة)(٥).

أما مكان الالتقاء بين الطرفين، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان في حمص يوم الخميس ١٤ رجب ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وقد أبرز مجريات الموقعة بشيء من الإسهاب لأنه

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٤-٩٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٤-٩٥.

(٣) المنصوري، زبدةالفكرة، ص١٨٤؛ المنصوري، مختار، ص٧١.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٦.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٦-١٩٧؛ المنصوري، التحفة، ص٩٩-١٠٠؛ المنصوري، مختار، ص٧٣.

كان أحد المشاركين فيها، إضافة لإبرازه أن هذه الموقعة انتهت بهزيمة المغول، وقتل أكثرهم، وهروب الأغلبية.

توفي الإيلخان أبغا عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وخلفه في رئاسة الدولة المغولية الإيلخانية أخيه تكدار بن هولاكو الملقب بأحمد سلطان[١]، وقد وضح بيبرس المنصوري أنه بدأت في عهده (٦٨١-٦٨٢هـ/١٢٨٢-١٢٨٣م) العلاقات مع المماليك تأخذ شكلاً آخر يقوم على الود والصداقة، فقد قام بإرسال سفارة منذ توليه عرش المغول إلى مصر، تحمل كتاباً مفاده أنه دخل الإسلام مع جماعته، وأنه يرغب في حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه، كما أظهر فيه رغبته في العيش في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين[٢].

لاقى مضمون الكتاب ترحيباً من السلطان المنصور قلاوون الذي رد عليه في العام ذاته ٦٨١هـ/١٢٨٢م بكتاب تضمن الترحيب بدخوله الإسلام، وبزوال الأحقاد التي كانت بين الدولتين[٣].

تتابعت هذه السفارات بين الدولتين بعد ذلك، ففي عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وصلت سفارة يترأسها الشيخ كمال الدين عبد الرحمن النجار وصمداغو من عند الإيلخان أحمد سلطان تحمل كتاباً آخر للسلطان المنصور قلاوون، وقد وضح بيبرس المنصوري أنه تم إنزال المذكوران في قلعة دمشق[٤] حتى قدم السلطان المنصور قلاوون الشام، حيث علم قبل الالتقاء بالمذكورين بأن إيلخانهم أحمد سلطان قد قتل وحل مكانه أرغون، وأن فرقة من المغول تقدر بأربعة آلاف فارس أغارة على بلاد الشام دون علم المذكورين[٥].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢١٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٧.

(٢) انظر: المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢١٩-٢٢٢؛ المنصوري، مختار، ص٧٤-٧٨.

(٣) انظر: المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٢٢-٢٢٧؛ المنصوري، مختار، ص٧٨-٨٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٩.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٠-٢٤١؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٩.

وبالرغم من تلك الظروف، فقد قام السلطان المنصور قلاوون باستقبالهما، وأخذ منهما الكتاب الذي كان قد أرسله معهما أحمد سلطان قبل قتله[1]. أما الكتاب الذي احتفظ بيبرس المنصوري بنسخه منه، فقد تضمن في فحواه التأكيد على تصفية النزاع بين الدولتين، وتقرير الصلح "والآن آن أن نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح"[2].

وإذا كان بيبرس المنصوري قد بيّن أن العلاقات بين المماليك والمغول قبيل مقتل أحمد سلطان كانت قائمة على أساس الصداقة، فإنه يوضح أنها لم تكن كذلك في عهد أرغون بن أبغا، فقد ذكر أن السلطان المنصور قلاوون قام بفتح قلعة قطينا من قلاع آمد التابعة للمغول عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، مبرزاً أن السبب في ذلك هو اعتداءتها المتكررة على الثغور الإسلامية خاصة على ثغر كركر[3]. أما كيفية فتحها، فقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان المنصور لما علم بخلوها من الغلة جرد إليها حملة من كركر تمكنت من مضايقتها ومحاصرتها، وفتحها بعد طلب أهلها الأمان[4].

أما الفترة الممتدة بين سنتي (٦٨٣-٦٩٤هـ/١٢٨٤-١٢٩٤م) فليس ثمة معلومات يذكرها بيبرس المنصوري عن العلاقات بين المماليك والمغول، ويبدو أن ذلك يعود لانشغال كلا الدولتين بأمورها الداخلية.

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة المغول الإيلخانية بين سنتي (٦٩٨-٧٠٢هـ/١٢٩٨-١٣٠٢م)، وقد كان هذا الموضوع في هذه الفترة من أبرز المواضيع التي ركز عليها وأسهب فيها لأنه يدونّ معلوماته عنه اعتماداً على:

أ. ما طالعه عنه نظراً لمركزه في الدولة المملوكية كنائب للسلطان في قلعة الجبل في

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٠-٢٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٩.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٩.

مصر الأمر الذي أتاح له الفرصة أن يكون شاهد عيان على أحداث لم يتمكن غيره من المؤرخين تدوينها.

ب. ما شاهده بيبرس المنصوري بأم عينية أو شارك به بنفسه، ويظهر ذلك من خلال الأدوار السياسية التي منحها إياه السلطان الناصر محمد كجزء من سياسته تجاه المغول الإيلخانيين، وهذا ما سيتضح تالياً.

تحرى بيبرس المنصوري في تأريخه لهذا الموضوع بيان الواقع السياسي لبلاد الشام خلال هذه الفترة، وقد سلك في ذلك ثلاثة اتجاهات هي:

١. ما يخص الاجتياح المغولي الإيلخاني الأول لبلاد الشام في عهد محمود غازان عام (٦٩٨-٦٩٩هـ/١٢٩٨-١٢٩٩م)، وكيفية رد الدولة المملوكية عليه.

مع اعتلاء الملك الناصر عرش السلطنة في مصر للمرة الثانية عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م قام المغول الإيلخانيين بالإغارة برئاسة إيلخانهم محمود غازان على بلاد الشام، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر خرج كرد عليهم بحملة عسكرية من مصر[١]، بعد أن جعله نائباً له بالقلعة[٢].

وصل السلطان الناصر دمشق، ومن هناك تحرك نحو حمص، حيث تم اللقاء بين الطرفين في مكان يطلق عليه وادي الخزندار (مجمع المروج) عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م[٣]، وقد كان أبرز ما ركز عليه بيبرس المنصوري في هذه الموقعة بالرغم من ميوله لبيت المنصور قلاوون هو إظهاره للحقيقة التي ذكرها غيره من المؤرخين من أن السلطان الناصر قد هُزم في هذه الموقعة على يد الإيلخان محمود غازان[٤]. ومن المستغرب أن بيبرس المنصوري يُرجع سبب هذه الهزيمة إلى نحس يوم الأربعاء الذي جرت فيه الموقعة، حيث

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٨-٣٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٩.
(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣١؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٦-١٥٧؛ المنصوري، مختار، ص١١١.
(٤) المصادر نفسها.

قال:" وهذا اليوم ذكر المفسرون في تأويل قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[1] أنه يوم الأربعاء، فإنه كان يتوقع منه الشر ولا سيما إذا اتفق أواخر الشهر"[2]. كذلك ركز بيبرس المنصوري في هذه الموقعة على إيراد قائمة بأسماء الذين استشهدوا من أبناء الدولة المملوكية فيها[3]، ناهيك عن أبرازه موقف العامة في مصر من هذه الهزيمة، وكيف أن مركزه كنائب للسلطنة في القلعة في مصر قد دفعه إلى إشاعة الخبر بانتصار السلطان الناصر في الموقعة لتفادي غضب أهل مصر[4].

بعد أن اختتم بيبرس المنصوري الحديث عن موقعة مجمع المروج أعطى صورة مفصلة عن أثرها في بلاد الشام، فعلى الجانب المغولي الإيلخاني ذكر أن المغول قاموا بإجتياح المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى، فتم أخذ حمص سنة٦٩٩هـ/١٢٩٩م، ومن ثمَّ قاموا بمحاصرة قلعة دمشق التي أبدت مقاومة كبيرة بقيادة نائبها الأمير علم الدين سنجر المنصوري[5].

بعد فشل احتلال قلعة دمشق قام الإيلخان محمود غازان بإرسال فرمان إلى النواب والعساكر في القلاع الشامية تضمن الترهيب والترغيب لتسليم قلاعهم، ولكن لم يتم الاستجابة له[6]. ثم أتبعه بآخر إلى أهل الشام،عرفهم فيه أنه من أهل الإسلام، وحضهم على طاعته وإلا السيف[7].

قرر الإيلخان محمود غازان بعد فشله في اجتذاب النواب والأهالي في بلاد الشام العودة للعراق، لذلك قام بتقسيم الولايات في بلاد الشام اعتماداً على ما ذكره بيبرس المنصوري على أمرائه، فالأمير سيف الدين قفجاق أوكل له دمشق، والأمير سيف الدين

---

(١) سورة القمر، الآية١٩.

(٢) المنصوري، التحفة، ص١٥٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٧؛المنصوري، مختار، ص١١١.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١٥٧؛ المنصوري، مختار، ص١١٢.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٨؛ المنصوري، مختار، ص١١١–١١٢.

(٦) انظر نص الفرمان: المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣٣-٣٣٧.

(٧) انظر نص الفرمان: المصدر نفسه، ص٣٣٧-٣٣٩.

بكتمر السلحدار أوكل له حلب وحمص وحماة، في حين جرد معهم نائبه قطلوشاه ليقوم بحصار قلعة دمشق مره ثانية، وجعل يحيى بن جلال الدين لجباية المال[1]، وقد كتب لهم فرمانات بما فوضه إليهم من الولايات[2]. كما قام غازان بتجريد حملة عسكرية تقدر بعشرين ألف مقاتل صحبة مولاي وابشقا وحيحك تجاه المناطق الساحلية لبلاد الشام "فنزلوا بالأغوار وبيسان، وشنوا الغارات على تلك البلاد ونهبوا ما وجدوا من المواشي والأقوات، والأزواد وقتلوا من وقع في أيديهم، وانتهت غاراتهم إلى القدس والخليل... ووصلوا غزة وقتلوا بجامعها خمسة نفر من المسلمين كانوا به منقطعين"[3].

وعقب هذا الترتيب عاد غازان إلى العراق في نصف جمادى الأول من عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م[4].

أما على الجانب المملوكي، فقد تتبع بيبرس المنصوري مصير السلطان الناصر وأمراء دولته وقواته إثر انهزامهم من وقعة مجمع المروج، فقد ذكر أن السلطان الناصر وأمرائه عادوا إلى القلعة في مصر، حيث شرعوا في إخراج الأموال والذخائر لإنفاقها على القوات المصرية والشامية ونواب الولايات الشامية الواصلة في أعقابهم هرباً من المغول[5].

أما بالنسبة للجزء الذي تفرق في أرجاء بلاد الشام في أعقاب الموقعة، وتحديداً في قلاعها وحصونها من النواب والعساكر، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر قام بتجريده مع من كان مقيماً في القلعة ولم يشهدوا موقعة مجمع المروج إلى الصالحية قرب دمشق، وذلك لحضهم على مقاومة المغول" وإخبارهم بأن العساكر على عزم المعاودة [من مصر] لإنجادهم"[6].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣٣.

(٢) انظر نص الفرمانات: المصدر نفسه، ص٣٤٠-٣٤٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٣-٣٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٩؛ المنصوري، مختار، ص١١١-١١٣.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٤٤- ٣٤٥.

أبلغ بيبرس المنصوري النواب في القلاع الشامية رسالة السلطان الناصر "فحصل للذين في القلاع القوة والمنعة، ولم يهنوا، ولا استكانوا، ولا أذعنوا للتتار، ولا دانوا"[1].

بقي الوضع على ما هو عليه حتى خرج السلطان بقواته إلى الصالحية التي ما أن وصلها حتى تراجع المغول إلى العراق، فأعيد ترتيب وإعمار كل بلد خربه المغول[2]. وبذلك انتهى اجتياح غازان الأول لبلاد الشام.

٢. ما يخص الاجتياح المغولي الإيلخاني الثاني لبلاد الشام في عهد محمود غازان عام (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، وكيفية رد الدولة المملوكية عليه.

لم ينته الاجتياح الأول لبلاد الشام في عهد غازان حتى أعقبه بثاني عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، وقد مهد بيبرس المنصوري لهذا الاجتياح بإعطاء صورة مفصلة عن موقف الخاصة والعامة من أهالي الشام إثر سماعهم بتقدم المغول إليهم، فقال: "ووقع الجفل في الخاصة من أهلها والعوام لما في قلوبهم من الرعب الذي ما بالعهد فيه من قدم والوجل الذي صيّر وجود صبرهم إلى العدم، وتواتروا إلى الديار المصرية، وتتابعوا من جميع الأعمال الشامية حتى ملأوا الأقاليم والنواحي وشحنوا المدن والضواحي، وضاقت بهم الأماكن، وعجز أكثرهم عن المساكن"[3].

أما رد الدولة المملوكية على هذا الاجتياح، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر ما أن علم بقدومهم حتى خرج بقواته بعد إعدادها إلى الشام، حيث وصل غزة، ونزل على بدعرش (ماء العوجاء)، في حين أن القوات المغولية كانت قد وصلت حلب، ويبيّن بيبرس المنصوري أن الطرفين لم يكتب لهما الالتقاء نظراً للصعاب والأهوال التي لاقوها في بلاد الشام من شدة الأمطار والثلوج، وقلة الكلأ للدواب (التبن والشعير) مما دفع الطرفين للعودة كل إلى بلاده[4].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٥.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٩-٣٥٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٠؛ المنصوري، مختار، ص١١٥-١١٦.

(٤) المصادر نفسها.

بعد انتهاء الاجتياح المغولي لبلاد الشام، بينّ بيبرس المنصوري بشيء من التفصيل أن العلاقات قد دخلت مرحلة جديدة أساسها تبادل السفارات والزيارات بين الطرفين، فقد ذكر أنه في عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وصلت من جهة الإيلخان محمود غازان رسل إلى بلاد الشام يحملون كتاباً للسلطان الناصر الذي أرسل الأمير سيف الدين كراي السلحدار لإحضارهم" فأحضرهم وهم الأمير ناصرالدين علي خواجه، والقاضي كمال الدين بن يونس قاضي الموصل ورفقتهما"[١]. ويبيّن بيبرس المنصوري المراسيم التي أعدها السلطان الناصر لاستقبال أصحاب السفارة، فيقول: " وجمع الأمراء جمعاً عاماً لسماع رسالة القاضي المذكور...، وجلس السلطان بالإيوان الكبير الاشرفي بالقلعة، وأوقد من الشموع ما صيّر الليل نهاراً، وخيّل الإيوان فلكاً قد تضمن شموساً وأقماراً، وحضر الرسول، فقبل الأرض ثلاثاً، وأدى رسالته، وخطب عند افتتاحه الكلام خطبة بديعة النظام، بسط فيها لسانه، وأبان بها بيانه، وذكر سلطانه، واحضر كتاب مرسله"[٢]. أما الكتاب الواصل معهم، فقد احتفظ بيبرس المنصوري بنصه، ويستشف منه أنه يتضمن التهديد والوعيد للسلطان الناصر ودولته[٣].

وفي سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م قام السلطان الناصر برد جوابه على الكتاب الذي بعثه إليه الإيلخان محمود غازان، وقد سجل بيبرس المنصوري نص هذا الكتاب[٤] الذي يستشف منه أن السلطان الناصر أراد به تخفيف حدة التوتر مع المغول، والحث على الصلح[٥].

٣. ما يخص الاجتياح المغولي الإيلخاني الثالث لبلاد الشام في عهد محمود غازان عام (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وكيفية رد الدولة المملوكية عليه.

بعد أن انتهت المراسلات بين السلطان الناصر والإيلخان محمود غازان، يبيّن بيبرس المنصوري أن النواب في الولايات الشامية كاتبوا السلطان الناصر لإخباره بأنه

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٥٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٦١؛ المنصوري، مختار، ص١١٧.

(٢) المنصوري، مختار، ص١١٧-١١٨.

(٣) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٥٢-٣٥٤.

(٤) انظر نص الكتاب: المصدر نفسه، ص٣٥٦- ٣٦١.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٦١.

وصلهم كتاب من نائب الإيلخان محمود غازان وهو قطلوشاه يتضمن على حد قول بيبرس المنصوري أن بلادهم [أي المغول]: "قد أمحلت، وأراضيهم من الأعشاب والمراعي خلت، وأن التتار على عزم الانتشار لارتياد المروج والأماكن التي يوجد بها المرعى، ويروج وربما وصلت منهم طائفة إلى صوب الفرات لأجل قصد الأعشاب، فيحصل بهم الارتياب، وليس قصدهم سوى الانتجاع والنزول بمهما صادفوا به خصباً من تلك البقاع، فإذا سمع أهل البلاد الحلبية، وسكان الأعمال الفراتية باقترابهم لا يبرحون من أماكنهم، ولا ينزحون من مواطنهم فلا بأس عليهم وليس ثم تعرض إليهم"[1].

تقدم المغول في أعقاب رسالتهم إلى نواب الشام نحو الرحبة بقيادة غازان، ووصلوا دير بسير، في حين أن طائفة أخرى منهم تقدمت لمرعش، مما تسبب في أثارة الرعب والخوف بين الأهالي في حلب[2].

أما رد فعل الدولة المملوكية عليهم، فقد أوضح بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر ما أن علم باجتياحهم البلاد الحلبية حتى قام باتخاذ الاستعدادات المناسبة لمواجهتهم، فقد أصدر أمره إلى أمراء مصر والشام بأن "يستخدم نظير الربع من عدته، ويضيفهم إلى جماعته، وقرر على أهل البلاد من الحواضر والبواد خيّاله يقومون بها من أموالهم، ويقيمونها من أحوالهم"[3].

لم يقف السلطان في سياسته عند هذا الحد، فقد قام كذلك كما يذكر بيبرس المنصوري باعتباره أحد الشاهدين على الأحداث بتجريد حملة عسكرية بعد تشاور الأمراء لدمشق "تقوية لجأش أهل الشام، وتثبيتاً لجيوشه على المقام إلى أن يتضح الحال، ويزول الإشكال"، كما ذكر أن هذه الحملة خرجت بقيادة ستة من مقدمي الألوف كان هو أحدهم.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٦-٣٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٣.

سارت الحملة، فوصلت قاقون كما يذكر بيبرس المنصوري[1] في الوقت الذي كان غازان قد قصد الرحبة، وكان ينوي محاصرتها، إلا أن صاحبها علم الدين سنجر الغتمي استطاع أن يرد غازان عنها من خلال إرساله الهدايا إليه بصحبة ولده" وتلطف به واستوقفه عما أزمعه من المحاصرة والمنازلة، وأرسل يقول له الملك الآن سائر إلى الشام لقصد المدن العظام، وهذا بلد سهل المرام، فإذا أخذت البلاد التي قدامك، وحويت ملك الممالك التي هي أمامك، فهذا البلد بين يديك، وما يتعسر أمره عليك".

رجع غازان عقب رسالة علم الدين سنجر الغتمي عن محاصرة الرحبة، وكتب منها كتاباً لأهل الشام هدفه استمالتهم لجانبه، وحضهم على عدم مساندة الدولة المملوكية في حربها ضد المغول[2].

وفي أعقاب ذلك عاد غازان إلى العراق بعد أن جرد نائبه قطلوشاه لاستكمال ما بدأه من احتلال المدن الشامية، وقد كانت القوات التي تركها معه اثنا عشر تمان[3].

تقدم قطلوشاه إلى الشام، في الوقت الذي كانت فيه كما يذكر بيبرس المنصوري الأخبار تتوارد من نواب الشام للسلطان الناصر بوضعهم وأحوالهم بسبب قدوم المغول.

قام السلطان الناصر أثر تحققه من صحة الأخبار الواصلة إليه من نوابه بحشد القوات المصرية من كافة طبقات المجتمع، وخرج بها بمعية الخليفة المستكفي بالله إلى الشام. أما المغول، فقد تقدموا إلى الأطراف الحلبية وهاجموها بعد مغادرة الأمراء والقوات الموجودة فيها[4]، وقد شكك بيبرس المنصوري أن يكون عددهم كان اثنا عشر تمان، فقال: "وأما التتار، فإنهم كانوا في صورة التطليب وهيئة الترتيب اثني عشر تومان، وفي حقيقة العدة تسعين ألفاً من الفرسان"[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٧-٣٦٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٨-٣٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٢.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٤.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٢.

أما بالنسبة للحملة التي جردها السلطان الناصر لتقوية أهل الشام، وكان بيبرس المنصوري أحد قادتها كما ذكر مقدماً، فقد ذكر أنهم وصلوا دمشق في العشر الأوسط من شهر شعبان عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، وبيّن موقف العامة فيها من قدومهم "واستبشر أهلها وفرحوا". كما أوضح بيبرس المنصوري كيف أنهم اجتمعوا بنواب الشام وقواتهم فيها "واتصل بنا اجتماع عسكر حلب صحبة الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بها، وعسكر حماة صحبة الأمير زين الدين كتبغا المنصوري الملقب بالعادل، وعسكر طرابلس صحبة الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي نائب السلطنة بطرابلس، ومن كان قد جرد إليهم من العساكر الدمشقية، وهم الأمير سيف الدين بهادر آص والأمير سيف الدين انص الجمدار وغيرهما"(١).

وفي الوقت الذي اجتمعت فيه القوات الإسلامية بدمشق كان المغول قد تقدموا إلى القريتين، فأغاروا عليها وعلى أهلها من التركمان.

أما رد الأمراء الموجودين في دمشق على غارتهم تلك، فقد روى بيبرس المنصوري أنهم جردوا حملة عسكرية تجاههم في القريتين، وكانت بقيادة سيف الدين اسندمر والأمير بهادر آص وغيرهم من الأمراء والعساكر، وقد كان هدفهم من ذلك إيقاف التحرك المغولي، والتصدي لهم، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن هذه التجريدة تمكنت من إلحاق الهزيمة بقوات المغول في القريتين موضحاً أن السبب في هزيمتهم هو انشغال المغول في الغنائم التي نهبوها من التركمان "وغلب القليل من المسلمين جمعهم الكثير وكسروهم، واستنقذوا التركمان الذين كانوا أسروهم، وخلّصوا النسوان والولدان، واقتلعوا منهم المواشي والأموال"(٢).

ولما عاد المغول الذين انهزموا في القريتين اجتمعوا مع بقية قواتهم، وتشاوروا في أنه يجب استغلال تأخر السلطان الناصر وقواته في مصر، والإغارة على القوات الإسلامية

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٤.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٣-٣٧٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٤-١٦٥.

الموجودة في الشام[1].

يصور بيبرس المنصوري الموقف والحال التي كانت عليه القوات الإسلامية في الشام عند تقدم المغول إليهم وتأخر السلطان عنهم، فيقول: "فتقسمت الأفكار والظنون، وتطلعت لقدومه العيون، واجتمعنا للاستخارة، واقتدحنا زناد الاستشارة، فاجمعنا على استطلاع الحال قبل العزم على الترحال".

كما أبرز كيفية خروجهم لاستطلاع القوات المغولية، ودوره فيها، فيقول: "فتوجهت مستكشفاً والأخبار متعرفاً، فلما وصلنا القطيفة صادفنا عسكر حلب وحمص وحماة [هذا العسكر الذي تم تجريده للقضاء على المغول في القريتين] قد تقدموا جائين، واقبلوا متواترين، وأخبروا بأن العدوساير سير المجدّ في الرواح والغدو، وقد اقترب الأقوام من الأقوام، ودنت الخيام من الخيام" عندها تراجع بيبرس المنصوري والقوات الإسلامية إلى مرج راهط انتظاراً لوصول السلطان واصفاً بعد ذلك حالهم وحال أهل دمشق من تقدم المغول وتأخر السلطان عنهم "فلما رجعوا إلى خلف شيئاً يسيراً ولت الأطلاب، وعادت العساكر على الأعقاب حتى أن أكثرهم ترك حماله ورمى أثقاله، وأهمل قماشه وماله ولم يتهيأ ردهم و لا أمكن صدهم، وعبروا على مدينة دمشق بهذه الصورة، فتصدعت قلوب أهلها المكسورة وعجوا وضجوا واستصرخوا ولّجوا وحملهم ما دهمهم من انتقاض العزائم على أن صرحوا بالشتايم، وبادر أكثرهم بالجفل لينجوا، وقالوا: إذا رجعت عنا العساكر فأي حياة نرجوا، فحصل بلطف الله التوقف والتثبط والتمسك بالمرج والتضبط فما كان إلا كلمح شرارة أو وحي إشارة حتى أتى البريد مخبراً باقبال الملك الناصر وأطلاب العساكر، فزال البأس وغلب الرجاء اليأس"[2].

وما أن وصل السلطان الناصر وبصحبته الخليفة المستكفي بالله بلاد الشام حتى قسم القوات الشامية والمصرية إلى ثلاثة أقسام هي الميمنة والقلب والميسرة، وقد أورد

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٤-٣٧٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٥-١٦٦.

بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان قائمة مفصلة بأسماء الأمراء الذين كانوا في كل قسم، كما أورد قائمة بأسماء أمراء المغول ومقدمهم قطلوشاة، وأوضح كيفية اصطدام الطرفين في موقعة مرج الصُّفَر، وانتصار المماليك على القوات المغولية فيها، وتجريد حملة لتتبع الهاربين من المغول[١].

ثالثاً: سياسة الدولة المملوكية تجاه الفرنج (الصليبين)

اهتم بيبرس المنصوري في التأريخ لسياسة الدولة المملوكية تجاه الفرنج (الصليبين)، حيث أحتل هذا الجانب المركز الثاني ضمن اهتماماته بالتأريخ لسياسة الدولة الخارجية، وتقدر نسبة المادة التي دونّها عن ذلك بـ٢٥٪.

ابتدأ بيبرس المنصوري مادته التاريخية بإعطاء صورة مختصرة عن محاولات الفرنج لطلب الصلح من الدولة المملوكية، فقد قدم على السلطان الظاهر في عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م رسل من عند جوان دبلين كند يافا وغيره من الفرنج الذين بالساحل يسألونه الأذن للمذكور (كند يافا) بالقدوم للسلطان الذي أجابهم لطلبهم، فجاء كند يافا: "فأكرمه السلطان، وأقبل عليه، وأجاب سؤاله، ورسم بتقرير الهدنة له ولصاحب بيروت على القاعدة التي كانت مقررة في الأيام الناصرية، وكتب له منشوراً بما في يده من البلاد، فقبل الأرض شكراً على هذه النعمة"[٢].

تدرج بعد ذلك بيبرس المنصوري لبيان السياسة العدائية التي تبناها السلطان الظاهر ومن أعقبه من السلاطين خلال الفترة الممتدة من (٦٦٠-٦٩٠هـ/١٢٦١-١٢٩١م) تجاه الفرنج القاطنين على طول الشريط الساحلي لبلاد الشام، وقد أخذت هذه السياسة العدائية شكل غارات فصل في أغلبها واقتضب في غيرها، ويمكن تقدير عدد تلك الغارات حسب المسح الدقيق للمادة التاريخية التي دونها بثلاثٍ وعشرين غارة، انتهت بتصفية الفرنج من بلاد الشام، وهي:

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٥-٣٧٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٦-١٦٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٧.

١. غارة الدولة المملوكية الأولى تجاه أنطاكية عام٦٦٠هـ/١٢٦١م:

قام السلطان الظاهر في عام٦٦٠هـ/١٢٦١م بتجريد حملة عسكرية تجاه أنطاكية بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير سيف الدين الرشيدي، وتوجه بصحبتهما نائبا حماة وحمص، وقد بيّن بيبرس المنصوري أنهم "أغاروا عليها وأخذوا ميناءها، وحاصروا السويدا، ونهبوا وغنموا وعادوا"[1].

٢. غارة الدولة المملوكية الأولى تجاه عكا عام٦٦١هـ/١٢٦٢م:

وفي عام٦٦١هـ/١٢٦٢م وصلت رسل الفرنج من عكا إلى السلطان الظاهر الذي يوضح بيبرس المنصوري أنهم" انفصلوا من [عنده من] غير رضى إلى عكا"[2]. ويبدو أن سوء علاقة السلطان الظاهر بالفرنج في عكا -كما هو واضح من النص- قد كان الدافع في أن يقوم السلطان بشن غارة عليهم في العام ذاته، فقد بيّن بيبرس المنصوري بشيء من الاختصار أن السلطان سار ليلة السبت ٤ جمادى الآخرة تجاه الفرنج في عكا، حيث نزل على المدينة، وأحاط بها من ناحية البر، وندب فرقة من عسكره لمحاصرة أحد أبراجها، فحاصروه، وخرج من فيه مستأمنين، أما السلطان، فقد استمر في حصار المدينة "وحرق ما حولها من الأخشاب، وقطع ما هناك من الأشجار"، ثم عاد[3].

٣. غارة الدولة المملوكية تجاه قيسارية وعثليث وحيفا عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م، وتحريرها:

عاود السلطان الظاهر غاراته على الفرنج منذ دخول عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان سار بقواته في يوم الخميس ٩ جمادى الأولى تجاه الفرنج في قيسارية، حيث عمل على ضربها بالمجانيق، ومن ثم نصب السلالم على أسوارها، وصعدت قواته إلى المدينة" وطلعوا إليها، ونصبوا السناجق السلطانية عليها، وحرقت

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٦؛ المنصوري، التحفة، ص٥٠؛ المنصوري، مختار، ص١٩.

(٢) المنصوري، مختار، ص٢٤.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨١؛ المنصوري، التحفة، ص٢٤-٢٥.

أبوابها "الأمر الذي دفع أهلها من الفرنج إلى الالتجاء لقلعتها، ومن ثمَّ تسليمهم لها نظراً للحصار الذي فرضته قوات السلطان الذي" رسم بهدم مبانيها، فهدمت"[1].

وفي أثر هذا الانتصار يذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر سار إلى الفرنج في عثليث، وسيّر في الوقت ذاته فرقة عسكرية تجاه الفرنج في حيفا" فدخلوها، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب، وأخربت المدينة، وقلعتها في يوم واحد"[2]. أما السلطان الظاهر، فقد وصل إلى عثليث، وحصلت بينه وبين أهلها مناوشات انتهت بترك السلطان لها دون أن يحررها[3].

٤. غارة الدولة المملوكية تجاه أرسوف عام٦٦٣هـ/١٢٦٤م:

توجه السلطان الظاهر في أعقاب فتح قيسارية إلى مدينة أرسوف، حيث قام بضربها بالمجانيق "وضيقوا عليها أنواع التضييق، وتمكنوا منها، وأطلعوا السناجق السلطانية عليها" الأمر الذي دفع أهلها من الفرنج إلى طلب الأمان، فتسلمها السلطان، وبعث أهلها كأسرى إلى الكرك، ثم عاد لمصر[4].

ويعقب بيبرس المنصوري كشاهد عيان على فتح مدينة أرسوف بأن السلطان الظاهر لما تسلمها "قسم أبراجها على الأمراء ليهدموها، وجعل هدمها دستورهم"[5].

٥. غارة الدولة المملوكية تجاه طرابلس وأعمالها عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، وتحريرها:

عمل صاحب طرابلس البرنس بيمند (بوهيمند) كرد على السياسة التي اتبعها السلطان الظاهر في بلادهم على شن هجوم عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م على مخاضة بلاله طالباً جهة حمص للسيطرة عليها، ويبدو واضحاً مما ذكره بيبرس المنصوري أن ذلك

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٥؛ المنصوري، التحفة، ص٥٣؛ المنصوري، مختار، ص٢٩.
(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦؛ المنصوري، التحفة، ص٥٤.
(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦؛ المنصوري، التحفة، ص٥٣-٥٤.
(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦؛ المنصوري، التحفة، ص٥٤-٥٥؛ المنصوري، مختار، ص٣٠.
(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٦؛ المنصوري، التحفة، ص٥٤-٥٥.

لم يتحقق له، نظراً لتصدي نائبها الأمير علم الدين سنجر الباشقردي له: "فبلغه الخبر فسبق البرنس إلى المخاضة، فلما دناها عدت العساكر، فجرّ بين أيديهم ذيول الهزايم [الهزائم]، وكان يأمل أملاً، فخاب، وقنع من الغنيمة بالإياب"[1].

كان اعتداء صاحب طرابلس على بلاد الشام سبباً في قيام السلطان الظاهر في السنة نفسها بتجريد حملة تجاه بلاده[2]، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان لما عزم على فتح صفد، وما حولها من بلاد الفرنج، ووصل إلى غزة قام بتوجيه الأمير المخدوم قلاوون والأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي لفتح الحصون المحيطة بطرابلس لا سيما القليعات وحلبا وعرقا[3]، ويبيّن بيبرس المنصوري الذي شارك في الحملة أن هذه الحصون الثلاثة تم فتحها دون قتال نظراً لطلب أهلها من الفرنج الأمان[4]. كما أبرز دور الأمير قلاوون في أعقاب فتحها ذاكراً أنه قام بـ "حمل الأسرى المأخوذين منه [حصن القليعات] على جمال أرسلها السلطان إليه، وعبر بهم على جسر يعقوب، بحيث يراهم أهل صفد" للتسليم للدولة المملوكية[5].

٦. غارة الدولة المملوكية تجاه صفد عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، وتحريرها:

تحرك السلطان الظاهر بقواته الشامية والمصرية -بعد انضمام الحملة التي جردها تجاه حصون طرابلس إليه- إلى صفد، حيث بيّن بيبرس المنصوري أنه ما أن نزل عليها حتى بدأ بحصارها، وضربها بالمنجنيقات الأمر الذي دفع أهلها من الفرنج إلى طلب الأمان" فأجيبوا إليه، وفي تاسع الشهر [رمضان] فتحت أبوابها، وطلعت عليها الصناجق [السناجق]، وتسلمها السلطان"[6]. أما مصير أهل صفد، فقد وضح

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٣.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٥٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٣؛ المنصوري، التحفة، ص٥٦؛المنصوري، مختار، ص٣٠-٣١.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص٥٦-٥٧؛ المنصوري، مختار، ص٣٠-٣١.

(٥) المصادر نفسها.

(٦) المصادر نفسها.

بيبرس المنصوري أنه تم أخراجهم إلى تل قريب من مدينة صفد فتم قتلهم هناك[1]. كذلك وضح بيبرس المنصوري أن السلطان قام في أعقاب فتح المدينة بإحضار ما تحتاج إليه من معدات للقتال لا سيما الآلات والزردخانات، كما أحضر عدد من الدمشقيين، وأسكنهم فيها[2].

٧. غارة الدولة المملوكية الثانية تجاه عكا عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م:

وفي عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م شن السلطان الظاهر هجوماً على عكا "وعمل اليزك على أبوابها، وقطع الأشجار، وأحرق الثمار، وهدم طاحوناً لبيت الاسبتار". أما السبب في هذه الغارة، فقد أرجعه بيبرس المنصوري إلى قيام الفرنج فيها بالهجوم على مشغرا "فأنكر [السلطان] عليهم [ذلك]"[3].

٨. غارة الدولة المملوكية تجاه يافا عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، وتحريرها:

ابتدأ السلطان الظاهر عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م بتحرير يافا، فقد أورد بيبرس المنصوري معلومات قليلة عن كيفية التحرير، فذكر أن السلطان لما نزل على العوجاء بفلسطين وصل إليه رسل صاحب يافا جاك جوان دبلين يطلبون الصلح، إلا إنه أخرهم، وتحرك بقواته تجاه مدينتهم (يافا)، حيث دب الرعب في صفوف الفرنج الأمر الذي دفعهم إلى اللجوء إلى قلعة المدينة "وسألوا الأمان على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم، فأجابهم [السلطان] إلى ذلك وتسلم القلعة منهم... فأمر بهدم المدينة، فهدمت"[4].

٩. غارة الدولة المملوكية تجاه حصن شقيف أرنون عام٦٦٦هـ/١٢٦٧م، وتحريره:

توجه السلطان الظاهر إثرَ تحرير يافا إلى حصن الشقيف الذي أوضح بيبرس المنصوري أنه ما أن وصله حتى أرسل فرقة عسكرية لتحريره بقيادة بجكا العزيزي،

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص٥٦-٥٧؛ المنصوري، مختار، ص٣٠-٣١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص٥٧-٥٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٧-١٠٨؛ المنصوري، مختار، ص٣٥.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٠؛ المنصوري، التحفة، ص٦١-٦٢؛ المنصوري، مختار، ص٣٦.

ويذكر بيبرس المنصوري أن الحصن كان له قلعتان الأولى تم إحراقها، وتسلمها المسلمون، أما الثانية، فقد خرج الوزير كليام منها مستأمناً "فأمنه السلطان، وفي آخر الشهر[رجب] سلمت، وطلعت عليها السناجق السلطانية، وأخرج أهلها، وسيروا إلى جهة صور"[1].

١٠. غارة الدولة المملوكية تجاه طرابلس وأعمالها عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م:

أعقب تحرير حصن الشقيف، إغارة السلطان الظاهر على طرابلس وأعمالها، وقد أبرز بيبرس المنصوري بشيء من الاختصار السياسة التي اتبعها السلطان وقواته تجاهها، فقال: "فقطعوا الأشجار، وخربوا ما حولها من الكنايس، ونهبوا وسلبوا"[2]. كما أبرز موقف صاحب صافيتا وأنطرسوس من السياسة التي اتبعها السلطان تجاه الفرنج في طرابلس، مورداً أنه أسرع إلى تقديم الطاعة للسلطان" وتلقى العسكر بالإقامة، وأحضر من كان عنده من أسارى [أسرى] المسلمين، فكانوا ثلاثماية [ثلاثمائة] أسيراً"[3].

١١. غارة الدولة المملوكية نحو أنطاكية عام ٦٦٦هـ/١٦٢٦٧م، وتحريرها:

تقدم السلطان الظاهر أثر فتح حصن الشقيف نحو أنطاكية لتحريرها، حيث قسم قواته إلى ثلاثة فرق عسكرية، الأولى بقيادته، والثانية بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون، والثالثة بقيادة الأمير عزالدين يوغان الركني، وقد كان بيبرس المنصوري عند حديثه عن التحرير أكثر تركيزاً على دور الفرقة العسكرية التي كان يترأسها الأمير سيف الدين قلاوون، وهذا يرجع لكونه كان أحد المشاركين بالتحرير مع الأمير المذكور "فأما المخدوم، ومن معه فإنه سار من أفاميه، فصابحنا القصير صباحاً، وناوشنا أهله القتال غدواً ورواحاً، ورحلنا إلى أنطاكية، ونزلنا عن غربيتها على سفح الجبل، وتواصلت العساكر إليها"[4].

---

(١) المصادر نفسها.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١؛ المنصوري، التحفة ، ص٦٢؛ المنصوري، مختار، ص٣٦.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١؛ المنصوري، التحفة، ص٦٢-٦٣.

كما ركز على دور السلطان الظاهر، وكيفية اشتباك فرقته مع كند اصطبل عم صاحب سيس القاطن في أنطاكية، مبرزاً أنه تم القبض على الأخير[1]، وسيأتي تفصيل هذه النقطة عند الحديث عن السياسة المملوكية تجاه الأرمن. إضافة لذلك أبرز بيبرس المنصوري ما ترتب على تحرير المدينة وقلعتها "وشرعوا في النهب والقتل والأسر حتى أثخنوا منهم غاية الإثخان، واجتمع إلى القلعة حول ثمانية آلاف منهم، وسألوا الأمان، فأجيبوا إليه، وأخذوا في الجبال، وقتل وأسر جمع يتجاوز الإحصا [الإحصاء] من النساء والرجال"[2].

أما بالنسبة لموقف السلطان الظاهر من صاحب أنطاكية الذي لم يكن موجود فيها حين تحريرها، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه قام بإرسال كتاب له تضمن بيان كيفية تحرير أنطاكية، ومصير أهلها، ويهنئه فيه بسلامته "وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، ولو كنت بها لكنت إما قتيلاً، وإما أسيراً وإما جريحاً"[3].

وفي نهاية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م عقد السلطان الظاهر ثلاث اتفاقيات مع الفرنج أوجز بيبرس المنصوري في معلوماته عنها، وهي:

أ. الاتفاقية الأولى: كانت مع صاحب القصير، وبموجبها تم تسليم السلطان الظاهر نصف بلاد القصير، وكتابة هدنة مع صاحبها[4].

ب. الاتفاقية الثانية: كانت مع افرير ماهي صافاج صاحب صافيتا وأنطرسوس، وبموجبها منح السلطان الظاهر للمذكور الأمان على بلاده[5] مقابل تسليم جبلة[6].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١-١١٢؛ المنصوري، التحفة، ص٦٢-٦٤.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١-١١٢؛ المنصوري، التحفة، ص٦٢-٦٤.

(٣) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٢-١١٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٤؛ المنصوري، مختار، ص٣٧.

(٥) المنصوري، مختار، ص٣٧.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٥؛ المنصوري، التحفة، ص٦٤؛ المنصوري، مختار، ص٣٧.

ج. الاتفاقية الثالثة: كانت مع صاحب عكا اوك بن هري ابن أخت صاحب قبرص، فقد حضرت رسله للسلطان الظاهر الذي قرر معهم الصلح على عكا وبلادها وثلاثين ضيعة[1].

١٢. غارة الدولة المملوكية نحو صور ومرج يعقوب وما حول عكا وحصن الأكراد وعسقلان:

تركزت غارات الدولة المملوكية في الفترة (٦٦٧-٦٦٨هـ/١٢٦٨-١٢٦٩م) نحو صور ومرج يعقوب وما حول عكا وحصن الأكراد وعسقلان، وقد أوجز بيبرس المنصوري في معلوماته عنها بشكل كبير، فالبنسبة لغارة الدولة المملوكية نحو صور عام٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م ذكر أن السلطان الظاهر قام بتوجيه فرقة عسكرية إليها "فأغاروا [عليها] وضايقوها"[2]. أما غارة الدولة على مرج يعقوب وما حول عكا عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، فقد ذكر أن السلطان أغار عليها "وأسر من محتشمي الفرنج جماعة، وقتل نايب [نائب] فرنسيس بعكا، ولم يعدم من الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونبا الفائزي، وعاد السلطان"[3].

توجه السلطان الظاهر في أعقاب حملته على عكا نحو حصن الأكراد "فخرج إليه جماعة من الفرنج ملبسين، وبلأم الحرب مدرعين، فحمل عليهم، وكسرهم، وبدد شملهم... وأتى على أكثرهم قتلاً"[4].

وفي طريق عودته من حصن الأكراد عرج على عسقلان" فعفاها، وأمر برمي حجارتها، فرميت في ميناها [ميناءها]"[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٥؛ المنصوري، التحفة، ص٦٤؛ المنصوري، مختار، ص٣٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٠؛ المنصوري، التحفة، ص٦٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٤؛ المنصوري، التحفة، ص٦٨؛ المنصوري، مختار، ص٤٣-٤٤.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٤؛ المنصوري، التحفة، ص٦٨.

١٣. غارة الدولة المملوكية نحو طرابلس والمرقب عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م:

وفي سنة٦٦٩هـ/١٢٧٠م شن السلطان الظاهر هجوماً على طرابلس وصافيتا، وندب أثناء ذلك كما يذكر بيبرس المنصوري فرقة عسكرية بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون والأمير بدرالدين بيليك الخازندار وولده الملك السعيد للإغارة على حصن المرقب، وللأسف أن بيبرس المنصوري لم يتتبع نتائج الغارة على المرقب بل اكتفى بذكر أن هذه الفرقة بقادتها عادت منها، والتقت مع السلطان بعد غارته على طرابلس، وتوجهوا نحو حصن الأكراد[١].

١٤. غارة الدولة المملوكية تجاه حصن الأكراد عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، وتحريره:

لم يفصل بيبرس المنصوري في حديثه عن هذه الغارة بل ذكر باختصار أن السلطان الظاهر وقواته قاموا بالاستيلاء على حصن الأكراد إثر طلب أهله الأمان[٢]، وقد كان بيبرس المنصوري في معلوماته عن هذا التحرير أكثر تركيزاً على الكتاب الذي كتبه السلطان الظاهر لمقدم الاسبتار صاحب الحصن الذي عرفه فيه بأنه ظالم كونه لم يسلم الحصن[٣].

لم يكد السلطان الظاهر ينتهي من حصن الأكراد حتى وصله كمندور أنطرطوس ومقدم بيت الاسبتار لطلب الصلح منه، فصالحهم السلطان على أساس الاعتراف بحق الكمندور في أنطرطوس، والاسبتارية في المرقب، أما صافيتا وبلادها، فجعلها خارج دائرة الصلح، كما استرجع بموجب هذا الصلح بلده وأعمالها منهم وما أخذوه في أيام الملك الناصر يوسف، إضافة لذلك اشترط عليهم أن يتركوا ما لهم من الحقوق والمناصفات على بلاد الإسلام، وأن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بينه وبين الاسبتار، وأن لا تجدد عمارة المرقب[٤].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٧؛ المنصوري، التحفة، ص٧٠؛ المنصوري، مختار، ص٤٤.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) انظر نص الكتاب: المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٧-١٢٨؛ المنصوري، التحفة، ص٧٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٨؛ المنصوري، التحفة، ص٧٠.

١٥. غارة الدولة المملوكية نحو حصن عكار عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م:

اتجه السلطان الظاهر بعد ذلك نحو حصن عكار، حيث وضح بيبرس المنصوري كيفية مهاجمة السلطان له، والمقاومة التي أبداها أهله من الفرنج في البداية، ثم كيفية تسليمهم الحصن بعد اشتداد الحصار عليهم، فقال: "واُشتدّ القتال، وجدّ أهله في المناضلة، ورمي الحجار بالمجانيق... وشددت العساكر الحصار، وأخذ النقوب تحت الأسوار، فلما رأى الذين فيه أمراً يعجزون عن احتماله، وجيشاً لا طاقة لهم بقتاله، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه السلطان"[١].

تابع بيبرس المنصوري معلوماته عن كيفية تحرير الدولة المملوكية الأراضي الاسلامية من الفرنج، فذكر أن السلطان الظاهر سار بعد حصن عكار نحو طرابلس، حيث حاصرها من جميع جهاتها، ولكن لم يكتب أن تتحرر هذه المدينة، لأن صاحبها بعث للسلطان الظاهر يطلب الصلح منه، فأجابه "وتقررت الهدنة لمدة عشر سنين"[٢].

١٦. غارة الدولة المملوكية تجاه حصن القرين عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، وتحريره:

سار السلطان الظاهر في أثر الصلح الماضي نحو حصن القرين، حيث يذكر بيبرس المنصوري أنه حرر الحصن دون أن يبينّ كيفية ذلك بل اكتفى بذكر أن أهله من الفرنج سألوا السلطان الأمان، فأجابهم إليه بشرط أن لا يأخذوا معهم من مالهم ولا سلاحهم شيء[٣].

بعد تحرير القرين قدم بيبرس المنصوري معلومات مختصرة عن اتفاقيات الصلح التي تمت بين السلطان والفرنج، فذكر أن السلطان لما توجه لتحرير عكا عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م سأله أهلها الصلح، فأجابهم إليه[٤]. كما ذكر أن السلطان الظاهر أجاب أيضاً

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٨؛ المنصوري، التحفة، ص٧١-٧٢؛ المنصوري، مختار، ص٤٥.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٩؛ المنصوري، التحفة، ص٧٢؛ المنصوري، مختار، ص٤٦.

(٤) المنصوري، التحفة، ص٧٢.

صاحب صور للصلح عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م على أن يكون له عشرة بلدان، ويكون للسلطان خمسة بلدان يختارها، وبقية البلدان مناصفة بينهما[١].

وفي بداية سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م حضر رسل من عكا إلى السلطان الظاهر وهو في الروحاء "فزادهم ثماني ضياع، وأنعم عليهم بشفرعم، ونصف اسكندرونة، وتقررت الهدنة مع صاحب قبرص"[٢].

بعد هذه الاتفاقيات قام الفرنج بالساحل بشن هجوم على قاقون أثناء انشغال الدولة المملوكية في الحرب مع المغول، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن القوات الحلبية لما عادت من تلك الحرب تراجع الفرنج عنها: "وتفرقوا وغربوا من حيث أشرقوا"[٣].

١٧. غارة الدولة المملوكية تجاه حصن القصير عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وتحريره:

كان هذا الهجوم بمثابة الدافع الذي حرك السلطان الظاهر لإكمال تحريره للأراضي الإسلامية من الفرنج، فقد ذكر بيبرس المنصوري بإيجاز أن السلطان الظاهر قام بالتوجه نحو حصن القصير عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، حيث تسلمه بعد طلب أهله الأمان[٤]. أما مصير نائب حصن القصير كليام، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه تم القبض عليه، وإحضاره إلى دمشق[٥].

تابع السلطان المنصور قلاوون السياسة التي ابتدأها الملك الظاهر، وهي تحرير البلاد الإسلامية من الفرنج، حيث ابتدأ نشاطه عام٦٧٩هـ/١٢٨٠م كما يذكر بيبرس المنصوري بتوجيه حملة عسكرية بقيادة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إلى الساحل لحفظ البلاد من الفرنج بحكم أنه لم يقرر بعد معهم هدنة[٦].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٠؛ المنصوري، مختار، ص٤٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٨.

(٣) المنصوري، التحفة، ص٧٣.

(٤) المنصوري، التحفة، ص٨١؛ المنصوري، مختار، ص٥٤-٥٥.

(٥) المنصوري، مختار، ص٥٤-٥٥.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٠.

١٨. غارة الدولة المملوكية نحو حصن المرقب عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م:

ولما انشغل السلطان قلاوون بصد اعتداء المغول على بلاد الشام عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م، قام الفرنج في حصن المرقب بشن هجوم على أطراف الدولة المملوكية، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية رد الدولة المملوكية أثر انتهائهم من المغول، فذكر أن نائب السلطنة في حصن الأكراد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي قام بمراسلة السلطان يطلب منه مهاجمة الفرنج في حصن المرقب باعتباره قريباً منهم، وقد هون أمر تحرير الحصن "وذكر له قلة من فيه من الرجالة، فأذن له في ذلك"[١].

توجه الطباخي نحو حصن المرقب" واستصحب المجانيق والآلات، وتقدم إلى أن وقف قريباً من الحصن... وأخفى أهله أمرهم، ولم يتحركوا في مبدأ الحال، فازداد العسكر فيهم طمعاً وإليهم تقدماً، فلما صاروا بحيث تبلغ إليهم السهام أرسلوا عليهم الجروخ، فنالت منهم النصال، وأنكت فيهم النبال لأنهم كانت تنحدر على العسكر من أعالي الجبال"[٢].

أدى هذا الوضع إلى أن يقوم الطباخي باستشارة الأمراء الذين أشاروا عليه بالتراجع لترتيب أوضاعهم ثم الهجوم، ولكن عدم معرفة الجنود بالرأي الذي اتفق عليه الطباخي مع أمرائه جعلهم يظنون أن التراجع هو الهزيمة" فولوا الأدبار، وأسرعوا الفرار "على حد تعبير بيبرس المنصوري"[٣].

أما السلطان الظاهر، فقد أوضح بيبرس المنصوري أنه قام إثر سماعه بهزيمة نائب حصن الأكراد بالتوجه نحو بلاد الشام لشن هجوم على حصن المرقب[٤]، ولكن لم يكتب له أن يقوم بغارة ضد الحصن المذكور نظراً لوصول رسل الفرنج إلى أبوابه عام

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩-١٩٠؛ المنصوري، التحفة، ص٩٥-٩٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٩-١٩٠؛ المنصوري، التحفة، ص٩٥-٩٦.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٠.

٦٨٠هـ/١٢٨١م "يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية والصلح لأهل المرقب، ولم يزالوا يترددون إلى أن تقرر الحال على أن يكون لهم مناصفة الربض وبلنياس على أن يردوا كل من عندهم من أسرى المسلمين"(١). كما قدم رسل الفرنج في العام المشار إليه لا سيما مقدم بيت الاسبتار، وجميع الأخوة الاسبتارية إلى السلطان المنصور الذي عقد معهم هدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وقد اشترط فيها السلطان كما يذكر بيبرس المنصوري عليهم عدم الاعتداء على جميع الأراضي التابعة لدولته أو حتى للتجار والمسافرين، ومقابل ذلك تعهد لهم بعدم التعرض لحصن المرقب وما يجاوره(٢). كذلك قرر السلطان المنصور قلاوون في العام نفسه هدنة مع صاحب طرابلس بيمند بن بيمند لمدة عشر سنين، وقد اشترط فيها السلطان عليهم بعدم التعرض للأراضي الإسلامية، وقد حدد بيبرس المنصوري قائمة مفصلة بأسماء الممالك والقلاع والحصون التي تم الاتفاق عليها(٣).

وفي بداية سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م جددت الهدنة مع الفرنج في عكا، فقد أشار بيبرس المنصوري إلى أنه حضر رسولان من بيت الديوية، ورسولان من الاسبتارية، وفارسان من الملوكية وهما والي الولاة كليام والوزير فهد إلى السلطان الذي قرر معهم الهدنة على الشروط الجاري بها العادة لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات(٤).

١٩. غارة الدولة المملوكية نحو حصن المرقب عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وتحريره:

لم تستمر اتفاقيات الصلح بين السلطان المنصور قلاوون والفرنج، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه ما أن بدأت سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م حتى قام السلطان بالتوجه نحو حصن المرقب لتحريره، مبرزاً أن السبب في ذلك هو استمرار أهالي الحصن المذكور في

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩١؛ المنصوري، التحفة، ص٩٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢١٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢١٠-٢١٢.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣٢.

غاراتهم على حدود الدولة المملوكية بالرغم من الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين[1].

وصل السلطان الحصن فحاصره حصاراً شديداً دفع أهله إلى طلب الأمان "فأجابهم إليه[السلطان]، وخرجوا وسلموا الحصن، فتسلمه السلطان، وطلعته السناجق المنصورة، والألوية المنشورة، وجهز السلطان أهله إلى طرابلس"[2].

١٠. غارة الدولة المملوكية تجاه طرابلس عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، وتحريرها:

لم يورد بيبرس المنصوري أية معلومات عن أية غارات للدولة المملوكية تجاه الفرنج في الفترة (٦٨٥-٦٨٨هـ/١٢٨٦-١٢٨٩م)، بل يلاحظ أنه انتقل للحديث عن غارة الدولة المملوكية نحو طرابلس عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، حيث وضح بداية السبب في الهجوم عليها، فقال: "وسار إلى الشام -أي السلطان- على عزم طرابلس، وأخذها، وذلك أن أهلها نقضوا قواعد الصلح، وكدروا موارد الهدنة بما ارتكبوا من الفساد، وسوء الاعتماد، والتطرق إلى الطرقات، والتعرض إلى المسلمين"[3].

تدرج بيبرس المنصوري بعد ذلك لبيان كيفية قيام السلطان بمكاتبة نوابه في الولايات والحصون الإسلامية لإعداد المجانيق وآلات الحرب، والتقائه معهم على طرابلس[4].

يعطي بيبرس المنصوري بعد استكمال الاستعدادات تفصيلاً لكيفية تحرير طرابلس وما ترتب على ذلك من نتائج معتمداً في معلوماته تلك على من شاهد التحرير بأم عينيه، فقد ذكر أن السلطان لما وصل طرابلس حاصرها حصاراً شديداً في الوقت الذي" أظهر أهلها الامتناع ودفعوا مدة، ولكن لم يغن الدفاع، فشدد عليهم التضييق، وأذاقهم حرباً أشدّ من عذاب الحريق، وأمطر عليهم ديماً من الموت الزؤام من مرامات السهام، وحجارة المنجنيق، وأخذ النقابون النقوب، وانسربوا إلى نحو أسوارها في

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٢-٢٥٣؛ المنصوري، التحفة، ص١١٣-١١٤.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٢-٢٥٣؛ المنصوري، التحفة، ص١١٣-١١٤؛ المنصوري، مختار، ص٨٤.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٦٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٠؛ المنصوري، مختار، ص٨٧.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٦٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٠؛ المنصوري، مختار، ص٨٧.

السروب، فضعف أهلها"[1].

أما السياسة التي اتبعتها الدولة المملوكية إثر الاستيلاء على طرابلس، فقد تمثلت في الفتك بأهلها وأسر الأغلبية لا سيما النساء والأطفال والغلمان، أما من فر من أهلها نحو أحد الجزر في البحر المتوسط بمستلزماتهم من القماش والأثاث وغيره، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن الرياح الشديدة أعادت مراكبهم إلى ساحل طرابلس "فخرج إليهم الغلمان والشاكردية والوشاقية وأميراخورية، فوقعوا عليهم ونهبوهم، وأسروا من وجدوه منهم"[2]. أما السلطان، فقد أمر بهدم المدينة وحرقها، وبناء مدينة جديدة بالقرب منها أطلق عليها اسم طرابلس المستجدة[3].

٢١. غارة الدولة المملوكية تجاه عكا عام ٦٨٩-٦٩٠هـ/١٢٩٠-١٢٩١م، وإنهاء الاحتلال الإفرنجي لبلاد الشام:

لم يكد السلطان ينتهي من تحرير طرابلس حتى قام بالإعداد لتحرير عكا عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، وقد أبرز بيبرس المنصوري أن السبب في تحرير عكا هو اعتداء الفرنج في عكا على التجار المسلمين[4].

خرج السلطان بقواته إلى مسجد التبن، حيث يوضح بيبرس المنصوري بعد ذلك أنه لم يكمل طريقه إلى عكا نظراً لوفاته أثر المرض الذي أصابه[5].

أما غارة الدولة المملوكية على الفرنج في عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩٠م والتي جاءت استكمالاً لما بدأه الملك المنصور، فقد كان بيبرس المنصوري أكثر تركيزاً عليها من غيرها، إذ فصل و أطنب في الحديث عنها، وقدم معلومات مهمة عنها انفرد بها

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٦٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٠؛ المنصوري، مختار، ص٨٧.
(٢) المصادر نفسها.
(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٦٧.
(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٢-١٢٣؛ المنصوري، المختار، ص٨٧.
(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٢-١٢٣.

عن غيره من المؤرخين، فقد زودنا بمعلومات مهمة عن تفصيلات التحرير كونه كان أحد المشاركين فيه، فوضح الاستعدادات العسكرية التي اتخذها الملك الأشرف خليل قبيل التحرير لا سيما المراسلات التي تمت بين السلطان ونوابه بالشام لإحضار آلات الحرب وموافاته بعكا[١]، ناهيك عن إسهابه في الحديث عن الاستعدادات الحربية التي اتخذها بعد وصول رسالة السلطان إليه بالكرك[٢]، فضلاً عن تغطيته لمجريات التحرير لا سيما كيفية محاصرة المدينة ومقاومة الفرنج فيها لهم" وحصنوا الأبراج والأسوار، واظهروا المصابرة، وعدم المبالاة بالمحاصرة، ولم يغلقوا للمدينة باباً وأسدلوا دونها حجاباً، فنصبت عليها المجانيق الإسلامية، وأحدقت بها العساكر المحمدية، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة، وسهاماً كالبوارق البارقة" إلى أن تم تحريرها[٣]. وبسقوط عكا ينتهي الاحتلال الصليبي لبلاد الشام.

رابعاً: سياسة الدولة المملوكية تجاه الأرمن

اتبعت الدولة المملوكية تجاه الأرمن في الفترة الممتدة بين سنتي (٦٦٢-٧٠٩هـ/١٢٦٣-١٣٠٩م) سياسة تمثلت بالعداء أحياناً وبالوفاق أحياناً أخرى، وهذا يظهر من خلال المادة التاريخية المفصلة التي دونّها بيبرس المنصوري، فقد بلغ مجموع الروايات التي سجلها في هذا الجانب ثمانية عشر رواية رسم من خلالها ملامح تلك السياسة.

ابتدأ بيبرس المنصوري في هذا الجانب بالحديث بإيجاز عن تحالف الأرمن والمغول وسلاجقة الروم ضد الدولة المملوكية عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، حيث تتبع خط سير حملتهم حتى وصولها عين تاب، ثم ركز بعد ذلك على دور عسكري حماة وحمص في التصدي لعسكر الأرمن بأمر من السلطان الظاهر بيبرس موضحاً النتائج السلبية التي عادت على الأرمن من القتل والأسر[٤].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٦-١٢٧؛ المنصوري، مختار، ص٩١-٩٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٦-١٢٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٨-٢٧٩؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٦-١٢٧؛ المنصوري، مختار، ص٩١-٩٢.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨٨؛ المنصوري، مختار، ص٢٧-٢٨.

تابع بيبرس المنصوري تطور سياسة الدولة المملوكية تجاه بلاد الأرمن بين سنتي (٦٦٤-٧٠٩هـ/١٢٦٥-١٣٠٩م)، حيث أورد معلومات مفصلة عن غارات الدولة المملوكية تجاههم، إذ بلغت تسع غارات هي:

١. غارة الدولة المملوكية تجاه عاصمة الأرمن "سيس" عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، يلحظ أن بيبرس المنصوري أسهب في الحديث عنها، فقد أورد أسماء الأمراء الذين جردهم السلطان الظاهر في هذه الغارة وهم؛ الملك المنصور صاحب حماة والأمير المخدوم قلاوون والأمير عزالدين يوغان الركني[١]، وأوضح خط سيرهم "ودخلوا درب ساك منه إلى الدربند" وطبيعة الأحوال في بلاد الأرمن آنذاك لا سيما تنازل الملك هيثوم بن قسطنطين لولده ليفون عن الملك، وبناء الملك الجديد ليفون الأبراج ليمتنع بها أمام غارة الدولة المملوكية[٢]. ثم ينتقل بيبرس المنصوري لتقديم معلومات مهمة عن كيفية الالتقاء بين الطرفين في موقعة"سيس"، ذاكراً أهم ما ترتب عليها من نتائج سلبية ضد الأرمن لا سيما أسر ملكهم ليفون وولده، وقتل أقاربه، وانهزام عمه كند اصطبل، فضلاً عن إشارته إلى أهم المدن الأرمنية التي تم فتحها في أعقاب تلك الموقعة خاصة عاصمتهم سيس التي يقدم بيبرس المنصوري وصفاً لكيفية دخول القوات الإسلامية لها، حيث يقول: "ودخلوا إلى سيس، فأخربوها وتركوها خاوية على عروشها، وهدموا قلعة الديوية المعروفة بالتينات، وغنمت العساكر في هذه الغزاة ما لا يحصى كثره"[٣].

أما عن مصير كند اصطبل عم صاحب سيس المذكور آنفاً، فيلاحظ أن بيبرس المنصوري قد ركز في ثنايا مادته التاريخية على تتبع أخباره بعد هروبه من وقعة سيس الآنفة الذكر، حيث ذكر أنه كان في إمارة أنطاكية الصليبية، وبيّن دوره في مواجهة الدولة المملوكية حين قيامها بغزو الإمارة المذكورة عام٦٦٦هـ/١٢٦٧م "وخرج منها

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص٥٨؛ المنصوري، مختار، ص٣٢-٣٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٥؛ المنصوري، التحفة، ص٥٨؛ المنصوري، مختار، ص٣٢-٣٣.

(٣) المصادر نفسها.

جماعة منهم كند اصطبل عم صاحب سيس... فالتقوا مع الجاليش المنصور، فاستظهر الجاليش عليهم، وأسر الكند.."[1]. كما زودنا بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة عن دور الكند في تحذير أهل أنطاكية من السلطان وقواته، فقال: "وسأل هذا الكند [السطان] أن يدخل إلى أنطاكية، ويتحدث مع أهلها وينذرهم ويحذرهم، وأحضر ولده رهينة على ذلك، فلم تغن شيئاً"[2]. إضافة لذلك ذكر بيبرس المنصوري كيف قام السلطان الظاهر بإطلاق سراح الكند وأهله وأقاربه وإرجاعهم لبلدهم سيس[3].

ولم يغفل بيبرس المنصوري ما كان يشوب تلك السياسة من علاقات ودية مع الأرمن، فقد ذكر أنه في أعقاب تلك الغارة على سيس بسنتين (٦٦٦-٦٦٧هـ/١٢٦٧-١٢٦٨م) تقرر الصلح بين السلطان الظاهر وصاحب سيس التكفور بن هيثوم، حيث أعطى انطباعاً واضحاً عن شروط ذلك الصلح، والمتمثلة بإطلاق السلطان الظاهر ولد صاحب سيس المأسور عنده مقابل إطلاق سراح الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من قبضة المغول الإيلخانيين، فضلاً عن استرداده القلاع التي أخذها صاحب سيس من المملكة الحلبية، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه الشروط قد تم تنفيذها[4].

٢. أما غارة الدولة المملوكية الثانية تجاه سيس وأعمالها عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، فقد أوجز بيبرس المنصوري في ذكر أحداثها دون ن يفصل فيها، بحيث اكتفى بذكر جوهر الفكرة، فقال: و"توجه عسكر حلب إلى بلاد سيس، وأغاروا عليها وعلى مرعش، وقلعوا أبواب ربضها"[5]. ويبدو أن هذا لاقتضاب يأتي انسجاماً مع تسمية مؤلفه "زبدة الفكرة".

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص١١١.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٥؛ المنصوري، التحفة، ص٦٤؛ المنصوري، مختار، ص٣٧.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص٨٠؛ المنصوري، مختار، ص٥٣.

٣. تبع ذلك غارة أخرى للدولة المملوكية تجاه سيس وأعمالها في العام نفسه، فبدراسة مادة بيبرس المنصوري المتعلقة بهذه الغارة يتضح أنه يغطي مجرياتها بدقة، لأن معلوماته عنها مبنية على ما شاهده بأم عينية باعتباره أحد المشاركين فيها، فقد ذكر أسماء الأمراء الذين جعل لهم قيادة الغارة وهم؛ الأمير المخدوم قلاوون والأمير بدر الدين بيليك الخزندار، إضافة لذلك ذكر كيفية دخولهم المصيصة- أحد أعمال عاصمة الأرمن سيس- مبرزاً لسياستهم تجاه أهلها "... فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها، فملكوها وقتلوا من بها، وملكوا الجسر..."[(١)]. ثم يركز بيبرس المنصوري على دور السلطان الظاهر فيها، ذاكراً كيفية أعداده المراكب وحملها على الجمال لغزوها من جهة البحر- أي سيس- وكيفية وصوله في أثرهم، ودخول سيس وتخريبها دون الحاجة لتلك المراكب[(٢)]. ناهيك عن أبرازه لأهم المدن الأرمنية التي تم دخولها بعد فتح سيس، موضحاً لسياسة السلطان ودولته فيها "... ووصل دربند الروم، ووصلت بعوثه إلى إياس والبرزين وأذنه، وقتلوا وغنموا... ولما عاد إلى المصيصة راجعاً من الدربند أمر بإحراق جانبيها، فأحرقت وتحكمت عساكره في كل ما حوت... "[(٣)].

٤. تابع السلطان السعيد بركة نهج والده السلطان الظاهر تجاه سيس، فقد تم إرسال الغارة الرابعة تجاهها في عهده عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، ويستشف من مادة بيبرس المنصوري عن هذه الغارة أنه يركز الحديث على الهدف منها دون أن يدخل في تفاصيل أحداثها، حيث ذكر كونه كان شاهد عيان أن السلطان السعيد ومماليكه كانوا يهدفون من هذه الحملة أبعاد الأمراء الكبار عن الدولة المملوكية والتخلص منهم[(٤)].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص٨٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٤؛ المنصوري، التحفة، ص٨١.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٤-١٤٥؛ المنصوري، التحفة، ص٨١.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٦؛ المنصوري، التحفة، ص٨٨؛ المنصوري، مختار، ص٦٦.

٥. اتبع السلطان المنصور قلاوون نهج أسلافه لا سيما السلطان الظاهر وولده السلطان السعيد في عدائيه للأرمن، فقد أشار بيبرس المنصوري إلى غارة الدولة المملوكية في عهده تجاه سيس وأعمالها عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، وركز حين أرخ لها على دور المملكة الحلبية في تبني حركة الجهاد ضدهم، ثم أوضح كيفية تحريض السلطان المنصور قلاوون لنائبها في توجيه غاراته تجاهها ذاكراً السبب في ذلك "... نكاية في حق ليفون صاحبها لما كان قد ارتكبه في نوبة حمص من الفساد في حلب، وإحراق جامعها..."[١]. وبالإضافة لذلك يذكر بيبرس المنصوري كيفية مشاركة القوات المصرية القوات الشامية في دخول العاصمة الأرمينية" سيس" بالقوة، مع ذكره ما أعقب دخولها من مهاجمة لمدينة إياس- أحد أعمالها- وتوضيحه السياسة التي اتبعوها فيها "... وقتلوا من أهلها جماعة، ونهبوها وخربوها وباتوا قريباً منها...". فضلاً عن ذكره ما كان بعد ذلك من التقاء القوات الإسلامية وعسكر سيس بالقرب من باب اسكندرونة، وانتصار القوات الإسلامية عليهم[٢].

٦. تتبع بيبرس المنصوري دور المملكة الحلبية العسكري في الإغارة على بلاد الأرمن في العام ذاته، حيث أوضح بإيجاز كيفية أشارة السلطان المنصور قلاوون على نائبها بالإغارة عليها[٣]، كما بين كيفية استجابة نائبها للسلطان، وتسييره حملة عسكرية تجاه قلعة التينات، وتصويره لسياستهم تجاه أهلها "... فنزلوا عليها ونازلوها ورموها بالمنجنيقات، وأخربوا برجاً من أبراجها، وبدنة من أسوارها، فصاح أهلها الأمان، وطلبوا من يتحدث معهم، فتوجه إليهم اثنان من الحلقة الحلبية، وتحدثا معهم، فتقرر الحال على أن يقوموا بسبعة عشر ألف درهم برسم تطابيق الخيول، وعجلوا منها ألفي درهم، وأعطوا رهينة على بقية المبلغ"[٤].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣١؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٩.

٧. لم يقف بيبرس المنصوري في تتبعه لغارات الدولة المملوكية تجاه الأرمن عند هذا الحد، بل يلحظ أنه قدم معلومات مهمة تتعلق بغارتي الدولة المملوكية تجاه سيس وأعمالها عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، ففي الغارة الأولى بيّن كيفية قيام السلطان المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر بتجريد ثلاثة فرق عسكرية لغزو سيس، مبرزاً فيها الهدف منها وهو تفريق الأمراء وتشتيتهم لتصفوا لهما الأجواء كما أبرز أسماء الأمراء الذين تم تجريدهم فيها، وكيفية دخولهم سيس وتخريبها، ناهيك عن ذكره لأهم المدن الأرمينية التي تم اجتياحها في أعقاب دخولهم سيس "... وفتحوا تل حمدون والمصيصة وحموص وقلعة نجم وسروندكار وحجر شغلان، وعادوا من هذه الغزاة إلى مدينة حلب، فأقاموا بها..."[١].

٨. أما ثانيها، فقد مهد بيبرس المنصوري في تأريخه لها، بذكر الأوضاع السياسية التي دفعت السلطان المنصور لاجين للقيام بها لا سيما كيفية وفود سلامش بن أفاك التتري -بعد مراسلات عديده مع السلطان المنصور لاجين- من البلاد المشرقية إلى مصر مستأمناً من غازان الذي كان ينوي قتله، وذكره لكيفية حضوره لحلب وتجهيزه وإرساله منها للسلطان الذي استقبله وأكرمه[٢].

يتابع بيبرس المنصوري أحداث تلك الغارة، فيذكر كيفية تجريد حملة عسكرية من حلب بأمر من السلطان المنصور لاجين تجاه سيس، موضحاً السبب المباشر لذلك، وهو إحضار أهل سلامش بن أفاك التتري منها من جهة، وكيفية اتحاد الأرمن والمغول الموجودين في سيس ضد الحملة الإسلامية والانتصار عليها من جهة أخرى، وفرار سلامش بن أفاك لقلعة الروم، ثم القبض عليه من قبل غازان وقتله، وبقاء أخيه قطقطوا في مصر[٣].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٦؛ المنصوري، مختار، ص١٠٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣١٩.

٩. أما عن غارة الدولة المملوكية تجاه سيس عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، فيلحظ أن بيبرس المنصوري قد اقتضب في حديثه عنها، فقد ذكر أنه تم تجريد الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح والأمير عزالدين أيبك الخزندار ومضافوهما من الأمراء إلى جهة سيس في شهر رمضان[١]، متجاهلاً مجريات أحداثها وما ترتب عليها من نتائج، ويبدو أن عدم تتبعه لها ناجم عن افتقاره لمصدر يروي له أحداثها.

١٠. بعد هذه الأحداث يسلط بيبرس المنصوري الضوء على أحداث غارة الدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر محمد تجاه سيس عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م، وفي هذا الجانب من تغطيته يسهب في الحديث عنها باعتبار أنه كان شاهد عيان بها بل ومشاركاً بها، فقد أوضح دور نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري في تجريد حملة عسكرية تجاه سيس ذاكراً السبب المباشر لها، فقال: "وذلك أن صاحبها أخّر حمل المال المقرر عليه، وقطع القطيعة، فاقتضى الحال مقابلته بما يغض طرفه ويرغم أنفه"[٢]. كما أوضح أسماء أغلب الأمراء الحلبيين الذين خرجوا فيها مع تتبعه لكيفية دخول الغارة سيس واشتباكها مع المغول القاطنين فيها، وما ترتب على الاشتباك من انهزام القوات الإسلامية، وأسر أغلب أمرائهم[٣]، فضلاً عن توضيحه موقف صاحب سيس الخور من انهزام القوات الإسلامية "... فلما جرت هذه الواقعة استشعر صاحب سيس الخور، وتحقق وقوعه في الغرر، وأيقن أنه من السطوات الشريفة على خطر، فأرسل إلى الأمير شمس الدين قراسنقر رسلاً يبذل الطاعة ويذكر الإنابة والقيام بما عليه من القطيعة، ويسأل الصفح والإغضاء والمسامحة والإعفاء..."[٤]. كما وضح بيبرس المنصوري في أثر تلك المراسلات بين نائب حلب وصاحب سيس كيفية مراسلة الأول للسلطان الناصر محمد يخبره بطلب

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٤؛ المنصوري، مختار، ص١٢٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٧٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٧٧.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٣-٣٨٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٧٧.

صاحب سيس الآنف الذكر، مبرزاً بعد ذلك لموقف السلطان السياسي من طلبه "... فاقتضى الحال أن يجرد عسكر إلى حلب، ويكتب لصاحب سيس بأنه أجيب إلى ما طلب، فإن حقق قوله بفعله وحمل ما جرت عادته بحمله أعفي من الإغارة، وكفي من الاستثارة، وإن سوّف وتوقف كانت الجيوش قريبة من إرهاقه متمكنة من خناقة"[١].

أما عن الحملة التي أعدها السلطان الناصر محمد للتوجه لحلب لإخضاع صاحب سيس في حالة عدم تنفيذه ما طلب منه، فيلاحظ أن بيبرس المنصوري يورد معلومات مهمة عنها لم نجدها عند غيره من المؤرخين المعاصرين، وذلك يعود لكونه كان مشاركاً فيها، فقد كان بمثابة المستشار لقائد تلك الحملة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، حيث أوضح كيف كان تقدمهم من مصر إلى غزة، وكيفية مراسلة نائب حلب لصاحب سيس يهدده بالحملة التي أرسلها السلطان الناصر محمد أن لم ينفذ مطالبه، ناهيك عن توضيحه لموقف صاحب سيس منها، ذلك أنه أذعن لتلك المطالب الأمر الذي دفع السلطان نظراً لاستجابته إلى مراسلة أمراء الحملة بالعودة لمصر، وهذا ما حصل حسب قول بيبرس المنصوري[٢].

بعد تلك الغارة دخلت الدولة المملوكية في علاقتها مع الأرمن مرحلة جديدة من التطور القائم على الود نظراً لتأدية ملكهم القطيعة (الضريبة) المفروضة على عاصمتهم سيس، فقد ذكر بيبرس المنصوري بإيجاز أنه في عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م وصلت رسل صاحب سيس بالقطيعة المفروضة عليهم للدولة المملوكية[٣]. كما ذكر أنه في عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وصل شخص من مماليك الأمير شمس الدين قراسنقر نائب حلب من بلاد سيس التي ذهب إليها للمطالبة بالقطيعة التي جرت العادة على أخذها من صاحبها[٤]. فضلاً

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٧٧–١٧٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٧٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٨.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١٨٣.

عن إشارته لوصول رسل صاحب سيس عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م إلى مصر ومعهم الهدايا، وتصويره لكيفية استقبال السلطان الناصر محمد لهم، وأعادتهم لبلادهم[١]، إضافة لإيراده معلومات مهمة تتعلق بوصول رسول صاحب سيس بالقطيعة المفروضة عليه، وإحضار هديه معه للسلطان الناصر محمد الذي أكرمه وأعاده لبلاده[٢].

خامساً: سياسة الدولة المملوكية تجاه مغول القبيلة الذهبية

في ضوء دراسة الباحث لمادة بيبرس المنصوري التاريخية المتعلقة بالسياسة المملوكية تجاه مغول القبيلة الذهبية، يتبين أنها سياسة كانت تقوم على أساس ودي، يظهر ذلك من خلال السفارات والزيارات المتبادلة بين الدولتين، والبالغة حسب المسح الدقيق لها عشر سفارات.

ابتدأت تلك السفارات والزيارات والمكاتبات بين الدولتين منذ عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، فقد عمل السلطان الظاهر في العام المشار إليه كما يتضح من مادة بيبرس المنصوري على تعميق علاقته مع بركة خان ملك القبيلة الذهبية من خلال الكتاب الذي بعثه للأخير يحثه ويحرضه فيه ضد هولاكو، ويعرفه أن جهاده واجب عليه إذا كان قد دخل الإسلام[٣].

جاء الرد على كتاب السلطان الظاهر عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م، فقد بعث بركة خان ملك القبيلة الذهبية سفارة برئاسة الأمير جلال الدين ابن القاضي والشيخ نور الدين علي تحمل كتاباً كان أبرز ما ركز عليه بيبرس المنصوري فيه ما يلي:

١. ذكر أسماء من أسلم من بيوت المغول وتفصيلهم بقبائلهم وعشائرهم وأنفارهم وعساكرهم وصغيرهم وكبيرهم[٤].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٤١٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨٢؛ المنصوري، التحفة، ص٥٢.

٢. كما بيّن في هذا الكتاب كيفية إخبار ملك القبيلة الذهبية بركة خان السلطان المملوكي الظاهر بمحاربة هولاكو والانتصار عليه، وإرساله ابن شهاب الدين غازي كشاهد عيان على الوقعة التي كانت بينهما "... فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله، وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان وهم اربوغا وارتيمو واونا ماس، ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم، لأنه كان حاضراً في الوقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال..."[١].

٣. إضافة لذلك أورد معلومات مهمة عن كيفية إشادة ملك القبيلة الذهبية بالسلطان الظاهر على إحيائه للخلافة العباسية ومحاولته استرداد العراق من المغول الإيلخانيين لإعادة الخلافة إليها "... ثم لنوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات لأنه أقام أماماً من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لا سيما لما بلغني توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار"[٢].

كما تناول بيبرس المنصوري في مادته التاريخية كيفية تعامل السلطان الظاهر مع مبعوثي ملك القبيلة الذهبية الواصلين إليه سنة٦٦١هـ/١٢٦٢م" فأكرم السلطان رسل بركة"[٣]. وكيفية رد السلطان الظاهر على سفارتهم بإرسال الهدايا لبركه خان، وقد أورد بيبرس المنصوري قائمة مفصلة عن محتوى تلك الهدايا التي يمكن إجمالها بالتالي؛ سجادات للصلاة وسيوف والآت حربية متنوعة وخيول وألبسة فاخرة[٤].

أعقب إرسال السلطان الظاهر الهدايا لبركة خان وفود جماعة من مغول القبيلة الذهبية عددهم زهاء ألف نفس إلى مصر ذكر بيبرس المنصوري أسماء بعضهم، وبيّن

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨٢-٨٣؛ المنصوري، التحفة، ص٥٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٣-٨٤.

السبب في قدومهم "... وهولاء [هؤلاء] كانوا من أصحاب بركة، وكان قد أرسلهم إلى هولاكو نجدةً، فأقاموا عنده مدةً، فلما وقع بينه وبين بركة، وتمكنت العداوة كتب بركة إليهم بأن يفارقوا هولاكو، ويحضروا إليه، وإن لم يتمكنوا من التوجه إليه، فينحازوا إلى عساكر الديار المصرية"[1]. كما بيّن كيف تم التعامل معهم حين وصولهم أراضي دولة المماليك البحرية عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م "ولما وصلوا أسلموا وطهروا، وقُدّم كبراؤهم... وأمرّوا وعينت لهم الإقطاعات والطبلخانات، وافيضت عليهم الصلات والخلع والهبات وأنزلهم باللوق"[2].

لم تنقطع العلاقات الودية بين دولة القبيلة الذهبية ودولة المماليك البحرية بعد وفاة ملكها بركة خان بدليل ما أورده بيبرس المنصوري من معلومات مهمة تؤكد استمرار تلك العلاقة الودية، فقد ذكر بإيجاز كيف أن السلطان الظاهر كتب في أعقاب وفاة بركه خان إلى منكوتمر القائم مقامه كتاباً عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م يعزيه فيه بوفاة بركه ويهنئه بتسلمه ملك القبيلة الذهبية، ويغريه فيه بمحاربة ولد هولاكو "أبغا"[3].

ومع أن بيبرس المنصوري لم يذكر أية معلومة عن كيفية رد ملك القبيلة الذهبية منكوتمر على كتاب السلطان الظاهر، إلا أنه من الواضح أن الكتاب المختصر الذي بعثه بيسو نوغاي قريب بركه، وأكبر مقدمي جيوشه عام٦٦٩ هـ/١٢٧٠م للسلطان الظاهر يعكس أمرين؛ الأول دخول مغول القبيلة الذهبية بمن فيهم بيسو نوغاي المشار إليه الإسلام، وثانيهما رغبة مغول القبيلة الذهبية في استمرار العلاقة الجيدة التي ابتدأها ملكهم بركة خان مع دولة المماليك البحرية والقائمة على استمرار تبادل السفارات الودية بينهما من جهة، وعداء من يعاديها من جهة أخرى[4].

حرص السلطان الظاهر على اغتنام الفرصة لتعميق علاقته مع مغول القبيلة

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨٤-٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٤-٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣١؛ المنصوري، التحفة، ص٧١.

الذهبية أثر الكتاب الواصل إليه من بيسو نوغاي، حيث كتب للأخير -كما يذكر بيبرس المنصوري- جواباً تضمن الإشادة في بيسو نوغاي كونه يسير على نهج بركه خان، ويحثه فيه على استكمال ما ابتدأه الأخير في جهاد المغول الإيلخانيين[١].

ويبدو أن بيبرس المنصوري لم يورد كافة المعلومات التي تضمنها هذا الجواب بل ركز على ما تم ذكره آنفاً، ودليل ذلك يستشف من كلامه في نهاية هذا الجواب "وتتمته تتضمن الأشلاء على التتار والإغراء بهم"[٢]. ويظهر أنه أراد من ذلك الاختصار والاقتضاب بما يتوافق مع تسمية مؤلفه زبدة الفكرة.

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقات بين دولة المماليك البحرية ودولة القبيلة الذهبية بعد وفاة السلطان الظاهر، حيث ذكر أن السلطان المنصور قلاوون قام عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م بإرسال سفارة لبيت بركة خان برئاسة شمس الدين سنقر الغتمي وسيف الدين بلبان الخاص تركي محملة بالقماش النفيس الذي يزودنا بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة عن كيفية توزيعه على مغول القبيلة الذهبية: "وسير معهما ست عشر تعبية من القماش النفيس منها ما هو لمنكوتمر وما هو لاوكجي أخيه وما هو لتتا منكو وما هو لنوغاي... وما هو للخواتين وهن ججك خاتون وألجي خاتون وتوتلين خاتون"[٣]. كما زودنا بمعلومات عن الظروف التي وافقت وصول رسل السلطان المنصور قلاوون، وكيفية تعاملهم معها "فلما وصل الرسولان وجدا منكوتمر قد مات، وقد جلس تدان منكو في الملك، فقدموا إليه الهدية فقبلها وفرح بها، ووردت كتب الرسل إلى الأبواب السلطانية مخبرة بذلك"[٤].

رداً على سفارة السلطان المنصور قلاوون، أرسل تدان منكو سفارة عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م برئاسة فقيهين من فقهاء القفجاق أحدهم يسمى مجدالدين أطا والأخر

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣١-١٣٢؛ المنصوري، التحفة، ص٧١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٢٧-٢٢٨.

نورالدين، وقد ذكر بيبرس المنصوري السبب في إرسال هذه السفارة "وأحضرا [الفقيهان] على أيديهما كتاباً من جهته [تدان منكو] بالخط المغلي فعُرب، فكان مضمونه الإعلام بدخوله في دين الإسلام وجلوسه على التخت، وإنه أقام شرائع الدين ونواميس المسلمين، وأوصى على الفقهاء الواصلين، وأن يساعدوا على الحج المبرور الذي جاؤوا له قاصدين، وذكروا من ألسنتهم انه سأل السلطان أن ينعته نعتاً يتسمى به من أسماء المسلمين، وعلماً سلطانياً يقاتل بهما أعداء الدين"(١).

استجابة لمطالب تدان منكو ملك القبيلة الذهبية قام السلطان الظاهر كما يذكر بيبرس المنصوري بتجهيز الفقهاء الواصلين مع الكتاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعد عودتهم منها أعادهم السلطان الظاهر لبلادهم(٢). كما بعث في أثرهم سفارة برئاسة سيف الدين بلبان الحلبي ومظفر الدين موسى بن نمرش الى تدان منكو(٣) وبمعيتهم جواب السلطان الظاهر على كتاب تدان منكو، وقد تضمن الجواب حسب ما دونه بيبرس المنصوري باقتضاب على إخبار تدان منكو بالمسرة التي حصلت للسلطان الظاهر بسبب إسلامه(٤).

لم يذكر بيبرس المنصوري بعد هذه السفارة أية معلومات عن سفارات أخرى بين الدولتين بين سنتي (٦٨٢-٧٠٣هـ/١٢٨٣-١٣٠٣م)، ويبدو أن ذلك يعود لعدم الاستقرار الداخلي لدولة المماليك البحرية (الصراع على السلطنة) خلال هذه الفترة الأمر الذي حال دون استمرار الروابط الوثيقة (السفارات) بين الدولتين. ومع ذلك يلحظ أن بيبرس المنصوري يذكر أن السفارات بدأت تعود بين الدولتين منذ عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، يتبيّن ذلك من خلال السفارة التي بعثها ملك القبيلة الذهبية طقطا برئاسة قرقجي إلى السلطان الناصر محمد الذي يوضح بيبرس المنصوري كيفية تعامله مع هذه

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٩.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١٠٨-١٠٩.

السفارة ورئيسها "فأكرم غاية الإكرام [أي قرقجي]، وأنزل بمنظرة الكبش في خير مقام، ووصل بكثير من الإنعام وتفرج في الجيزة والأهرام، وأعيد جوابه، وجهز إلى مرسله بأنواع التحف والهدايا واللطف"[١].

وقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الناصر محمد حين جهز مبعوث طقطا، أرسل سفارة بمعيته برئاسة الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي إلى ملك القبيلة الذهبية طقطا[٢] الذي لم يذكر بيبرس المنصوري معلومات عن ماهية الكتاب الواصل إليه مع رسول السلطان وكيفية استقباله لهذه السفارة وتعامله معها بل يلحظ أنه ينتقل لذكر أن رسل السلطان الظاهر، وهم الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي والأمير سيف الدين بلبان الحكيمي وفخرالدين أمير أخور الشمسي تم إعادتهم لمصر عام ٧٠٦هـ/١٣٠٥م وبمعيتهم رسول من طقطا أسمه نامون الذي تم إكرامه، وأعيد جواب رسالته القادم بها للسلطان الناصر محمد[٣] والتي أغفل بيبرس المنصوري ماهية فحوها، ليركز على أن السلطان الناصر قام بإرسال سفارة برئاسة سيف الدين بكمش الخزنداري وفخرالدين اياز أمير أخور الشمسي بمعية نامون إلى ملك القبيلة الذهبية طقطا[٤]، والتي لم تلبث أن عادت تلك السفارة لمصر في العام المشار إليه آنفاً حسب المعلومة التي استقاها بيبرس المنصوري من شاهد عيان كان في تلك السفارة وهو سيف الدين الحكيمي[٥].

بعد السفارة الآنفة الذكر لم يعد بيبرس المنصوري يزودنا بمعلومات عن أية سفارة أو زيارة بين الدولتين، بل يلاحظ أنه بدأ بعد سنة٧٠٦هـ/١٣٠٥م يركز حديثه على السياسة الداخلية للدولة المملوكية.

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨١.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٨٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٨٨.

سادساً: سياسة الدولة المملوكية تجاه بيزنطه

سجل بيبرس المنصوري معلومات لا بأس بها عن سياسة الدولة المملوكية تجاه بيزنطة، فقد بلغ مجموع الروايات التي دونّها فيما يتعلق بهذا الجانب أحد عشر رواية.

ابتدأ بيبرس المنصوري هذه الروايات بتسليط الضوء على سياسة السلطان الظاهر بيبرس تجاه إمبراطور القسطنطينية الأشكري، وقد حظي هذا الجانب لدى بيبرس المنصوري بأكبر عدد من الروايات، إذ بلغ مجموعها ست روايات أوضح من خلالها اتصالات الدولتين ببعضهما لا سيما بتبادل الهدايا والسفارات والزيارات، ففي عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ذكر بيبرس المنصوري بإيجاز دون أن يفصل أنه وصل رسول الأشكري للسلطان الظاهر يبذل المودة والمساعدة[١]، مع إيراده كيفية رد السلطان الظاهر عليه بإرساله هدية من جملتها الزراف وجماعة من أسرى المغول في وقعة عين جالوت[٢].

تابع بيبرس المنصوري حديثه عن سياسة السلطان الظاهر تجاه الإمبراطور الأشكري، فقد أشار بإيجاز إلى السفارة التي كانت بين الطرفين عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، فذكر أنه وصل من عند الأشكري الأمير فارس الدين اقوش المسعودي الذي كان السلطان الظاهر قد وجهه مع بطرك الملكية بمصر للقسطنطينية بناءاً على طلب الأشكري له (أي: للبطرك) الذي أعطاه المال والقماش والمصوغ[٣]، إضافة لذكره كيف أن البطرك عند عودته لمصر عرض ما منحه الأشكري له على السلطان الظاهر الذي رفض قبول ذلك[٤]. كما بيّن بيبرس المنصوري موقف السلطان الظاهر من إبقاء الأشكري الجامع الموجود بالقسطنطينية "... فأمر السلطان بأن يجهز له الحصر والستور والقناديل والمباخر والسجادات والطيب"[٥].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٠.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٦؛ المنصوري، مختار، ص٢٢.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٦؛ المنصوري، مختار، ص٢٢.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٦؛ المنصوري، مختار، ص٢٢.

وفي عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م ذكر بيبرس المنصوري خبراً مقتضباً بوصول سفارة إلى السلطان الظاهر من عند الأشكري، تزامنت مع وصول سفارة أخرى من عند بركة ملك القبيلة الذهبية، وقد أولى بيبرس المنصوري عنايته بتتبع سفارة بركة من حيث كيفية استقبال السلطان الظاهر لها، وتجهيزهم بالهدايا لملكهم، بعكس سفارة الأشكري التي لم يذكر عنها أية معلومة سوى أنه تزامن وصولها مع سفارة بركة وإكرامه لها دون أن يفصل في الحديث عنها كما فعل عندما تكلم عن سفارة بركة[١].

كما أورد بيبرس المنصوري معلومات مقتضبة عن سفارة الأشكري عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م تجاه السلطان الظاهر الذي أوضح موقفه من تلك السفارة "... وكان ببابه جماعة من رسل الفرنج وغيرهم من الملوك، وسفّر صحبتهم رسله وهداياه وهم؛ رسل منكوتمر، ورسل جارلا أخي الريدافرنس، ورسل الأشكري صاحب القسطنطينية"[٢].

ومع أن بيبرس المنصوري قد اختصر في تناوله للسفارات السابقة بين الدولتين، حيث لم يذكر سوى جوهر الفكرة دون التفصيل في الأحداث، فإنه لم يتبع النهج ذاته عند الحديث عن سفارة الدولة المملوكية تجاه بيزنطة عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، إذ فصل فيها، حيث مهد للحديث عنها بذكر كيفية اعتداء المغول برئاسة منكوتمر على القسطنطينية، ليركز بعدها على موقف رسول السلطان الظاهر الموجود -أثناء ذلك بالقسطنطينية- الأمير فارس الدين المسعودي -المشار إليه آنفاً- من هذا الاعتداء وكيفية أبعادهم عنها "... فخرج إلى جيوش التتار، وتحدث مع مقدميهم، وقال: أنا رسول الملك الظاهر صاحب مصر متوجه إلى منكوتمر وانتم تعلمون أن صاحب اسطنبول صلح مع السلطان، وأن مصر اسطنبول واسطنبول مصر وبين أستاذي وأستاذكم الملك منكوتمر صلح فارجعوا من هاهنا، فاغتروا بقوله ورجعوا عن اصطنبول [اسطنبول]..."[٣]. ثم يتابع بيبرس المنصوري ليزودنا بمعلومات مهمة عن موقف الاشكري إمبراطور القسطنطينية

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٨٣-٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٦.

من رسول الملك الظاهر، وكذلك موقف منكوتمر والملك الظاهر منه "... وأما الفارس المسعودي فإن الأشكري أنعم عليه بمال وقماش، وتوجه إلى منكوتمر فهمّ بضربة لأنه صدّ جيشه عن اصطنبول [اسطنبول] دون بلوغ المأمول، فشفع فيه، فعفا عنه، ولما عاد إلى الملك الظاهر خاف على نفسه من هذه الجريرة، فاتفق وصول بعض التجار، فأخبر السلطان بهذه الأخبار فقبض عليه واعتقله وضربة تأديباً له"[1].

ومع أن بيبرس المنصوري يقل اهتمامه في التأريخ لسياسة الدولة المملوكية تجاه بيزنطة بعد وفاة السلطان الظاهر، بحيث يذكر خمس روايات في ذلك، فإنه يبيّن من خلالها أن أعقاب السلطان الظاهر من السلاطين قد نهجوا نهجه في سياسته الودية مع بيزنطة، ففي عهد السلطان المنصور قلاوون أورد بيبرس المنصوري روايتين توضحان تلك السياسة الودية، الأولى تكلم فيها عن سفارة الملك الأشكري الواصلة بالهدايا للسلطان المنصور قلاوون عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م بمناسبة جلوسه على عرش مصر، وركز فيها على كيفية مراسلته الأشكري للسماح لرسله بالمرور إلى ملك المغول بالبلاد المشرقية وملك المغول بالبلاد الشمالية لإخبارهما بجلوسه على العرش، لكونه يتحكم بالطرقات المؤدية لهما، ثم يبيّن بيبرس المنصوري كيفية رد الأشكري على ذلك بالسماح لهم بالمرور مع إرسال السلطان رسولاً لأخذ الأيمان منه على ذلك[2]. أما الرواية الثانية، فقد جاءت مكملة للحديث عن السفارة الآنفة الذكر، فقد وضح بيبرس المنصوري فيها كيفية وصول رسل السلطان المنصور قلاوون للقسطنطينية لأخذ الأيمان من صاحبها الأشكري عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م -كما تقدم ذكره- وكيفية تزامن وصولهم مع وفاة الأشكري وأخذ الأيمان من ولده أندرونيكوس، وإبرازه لموقف السلطان المنصور قلاوون من الملك الجديد للقسطنطينية بعد أخذ الأيمان "... فجهز السلطان إليه الأمير ناصر الدين محمد بن المحسني الجزري رسولاً بهدية جليلة..."[3].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٠٩.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣٩؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٨.

ينتقل بيبرس المنصوري بعد تلك الأحداث لتسليط الضوء على كيفية نفي السلطان الأشرف خليل ولدي الملك الظاهر (نجم الدين خضر وبدر الدين سلامش) إلى القسطنطينية عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م[١]، موضحاً بإيجاز لكيفية استقبال صاحبها لهما "... فلما وصلا إليها أحسن الاشكري إليهما، وأمر بإنزالهما وأجرى عليهما ما يقوم بهما..."[٢]. ثم يستكمل بيبرس المنصوري تتبعه لتلك السياسة الودية في عهد السلطان المنصور لاجين،حيث يذكر أنه قام بمراسلة الملك الاشكري عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م لإعادة ولدي الملك الظاهر وأمهما إلى مصر[٣]، ناهيك عن توضيحه لموقف الملك الأشكري من طلب السلطان المنصور لاجين "... فجهزهم الاشكري في مركب من مراكب الفرنج إلى ثغر الإسكندرية، وخرجوا من ظلمة البلاد الرومية إلى نور البلاد الإسلامية..."[٤].

ولما تولى محمد بن قلاوون السلطنة استكمل سياسة الدولة الودية مع بيزنطة، وقد ذكر بيبرس المنصوري في ذلك رواية واحدة مختصرة وضح من خلالها كيفية وصول رسل ملك الكرج ورسل الاشكري إلى مصر عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م وبمعيتهم رسالة يسألون فيها أن تعاد إليهم كنيسة معروفة بهم بالقدس تسمى المصلّبة كانت قد أخذت منهم، وبني مكانها مسجد بميذنة[٥]، ناهيك عن بيانه بإيجاز موقف الدولة من ذلك "... فأعيدت إليهم، وردت ضالتهم"[٦].

سابعاً: سياسة الدولة المملوكية تجاه بقايا البيت الأيوبي

تحرى بيبرس المنصوري في مادته التاريخية عن دولة المماليك البحرية التأريخ لعلاقاتها السياسية مع بقايا البيت الأيوبي، وقد سلك في ذلك أربعة اتجاهات هي:

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٩.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٨٦.

أ. ما يخص علاقة الدولة المملوكية بالملك الناصر بن العزيز الأيوبي صاحب حلب ودمشق.

مهد بيبرس المنصوري لهذه العلاقة بالحديث عن كيفية قيام الأمراء البحرية والمماليك النجمية عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بإشراك الملك الأشرف بن الملك المسعود الملقب بابن أتسز مع الملك المعز بالسلطنة "وفوضوا إليه أمر المماليك، وأضيف اسمه إلى اسم الملك الأشرف في التواقيع والمناشير وسكة الدراهم والدنانير"[١]. وقد كان الملك المعز يهدف من هذه الخطوة كما يقول بيبرس المنصوري إيقاف الملك الناصر عن غزو مصر[٢].

لم يلبث الملك الأشرف طويلاً في السلطنة، فقد تم خلعه ليستقل الأمير عزالدين أيبك الصالحي بالسلطنة، ويرجع بيبرس المنصوري السبب في خلع الأشرف إلى أنه كان "مهتضم الجانب لصغر سنه وطفولته"[٣].

ويظهر أن بيبرس المنصوري كان يقصد من هذا التمهيد تعريف القارئ أن خلع الملك الأشرف من السلطنة كان السبب المباشر الذي حدا بالملك الناصر صاحب الشام في التفكير في استعادة مصر من المماليك البحرية[٤]. ولذلك نجده يسجل لنا محاولتين قام بهما الملك الناصر لتحقيق هدفه آنف الذكر، وفيما يلي بيانها وكيفية رد الدولة المملوكية عليها:

١. **المحاولة الأولى:** كانت في عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، مبرزاً أن السبب في ذلك يعود لتقرير رسول الخليفة المستعصم الشيخ نجم الدين البادرائي الصلح بين الملك المعز أيبك صاحب مصر والملك الناصر صاحب الشام وعودة كلٍ منهما لبلاده[٥].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦؛ المنصوري، التحفة، ص٢٨؛ المنصوري، مختار، ص٩.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٢٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٦.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦؛ المنصوري، التحفة، ص٣١.

٢. **أما المحاولة الثانية:** فكانت في عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، وقد وضح بيبرس المنصوري أن هذه المحاولة كانت بالتحالف مع المماليك البحرية الذين هربوا من مصر إلى بلاد الشام، وتحديداً للملك الناصر بسبب سوء علاقتهم بالملك المعز أيبك أثر مقتل زعيمهم الأمير فارس الدين أقطاي "ثم عزم (الملك الناصر بعد استقباله للمماليك البحرية وإكرامهم) على التجريد إلى الديار المصرية، فجرد عسكراً من العساكر الشامية صحبة من توجه إليه من البحرية، فساروا ونزلوا بالغوار ثم انتقلوا إلى الأغوار، واتخذوا العوجا منزلاً للاستقرار"(١).

أما موقف الدولة المملوكية من هذه المحاولة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن" بلغ الملك المعز مسيرهم إليه واتفاقهم عليه " حتى عمل على حشد قواته المصرية والتوجه إلى الباردة قرب العباسة لمواجهتهم، فانتهت السنة وهو مخيم بها(٢).

بعد هذه الاستعدادات بيّن بيبرس المنصوري أن هذه المحاولة أيضاً لم يكتب لها النجاح مبرزاً أن السبب في ذلك يعود لعقد رسول الخليفة المستعصم بالله الشيخ نجم الدين البادرائي الصلح عام٦٥٤هـ/١٢٥٦م للمرة الثانية بين الملك المعز والملك الناصر(٣). أما ما يؤخذ على بيبرس المنصوري في هذا الاتفاق أيضاً أنه لم يورد معلومات تتعلق ببنوده أو شروطه.

ب. ما يخص علاقة الدولة المملوكية بالملك المغيث صاحب الكرك.

بعد فشل المحاولة الثانية للملك الناصر، يذكر بيبرس المنصوري أن العلاقة ساءت بين الملك الناصر والمماليك البحرية الذين شاركوه في تلك المحاولة "فخافوه وخافهم على نفسه، ففارقوه -أي البحرية-"(٤).

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣؛ المنصوري، التحفة، ص٣١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣؛ المنصوري، التحفة، ص٣٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩؛ المنصوري، التحفة، ص٣٨.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩.

تتبع بيبرس المنصوري بعد مفارقة البحرية للملك الناصر مصيرهم وكيفية التجاؤهم للملك المغيث صاحب الكرك وتعامله معهم، فقال: "وخرجوا من دمشق، ولما وصلوا نابلس اتفقوا على التوجه إلى الملك المغيث بالكرك، فتوجهوا إليه وهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي وغيرهم، فأكرمهم المغيث وقبلهم وبرهم ووصلهم"[1].

كما تتبع كيفية إقناع البحرية الملك المغيث صاحب الكرك بتبني استكمال الخطة التي ابتدأها الملك الناصر معهم في استعادة مصر من الدولة المملوكية "والتمسوا منه المساعدة على قصد الديار المصرية وإمدادهم بعسكر لتصير لهم اليد القوية"[2].

وافق الملك المغيث على تبني السياسة التي ابتدأها الملك الناصر، لذلك قام بمحاولتين لاستعادة مصر كانتا بالتحالف مع البحرية، وقد أبرز بيبرس المنصوري موقف الدولة المملوكية من تلك المحاولتين، وفيما يلي بيان ذلك:

١. **المحاولة الأولى**: كانت في عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وقد قدم بيبرس المنصوري معلومات مهمة في البداية عن كيفية استعداد الطرفين للمواجهة، فبالنسبة للملك المغيث فإنه سير مع البحرية حملة عسكرية بلغ تعدادها ألف فارس في حين أن الأمير سيف الدين قطز والأمراء المصريين قاموا بتجريد حملة إلى الصالحية[3]، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية التقاء الطرفين "فلما كان ليلة السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة أقبلوا إليهم واتفقوا معهم"[4] ذاكراً أهم ما ترتب على هذا اللقاء من نتائج سلبية ضد البحرية والقوات الكركية "فانكسر البحرية ومن معهم من العسكر الكركي، وأسر الأمير سيف الدين

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥.

قلاوون الألفي والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، وقتل الأمير سيف الدين بلغان الأشرفي، وانهزم الباقون، وعادوا إلى الكرك وهم خايبون [خائبون]"[1].

٢. **المحاولة الثانية:** مع أن المحاولة السابقة قد باءت بالفشل، إلا أن بيبرس المنصوري يذكر أن البحرية عادوا مرة ثانية لتحريض الملك المغيث لقصد مصر "وأطمعوه فيها، وكاتبه بعض أمرايها [أمرائها] ووعدوه بانحيازهم إليه متى حضر بنفسه إليها"[2].

استجاب الملك المغيث لطلب البحرية، فخرج بحملة عسكرية صحبتهم تجاه مصر عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه ما أن وصلت الحملة الصالحية حتى "تسلل إليه من كان قد كاتبه من أمراء مصر"[3].

ومع كل التجهيزات السابقة، فإن بيبرس المنصوري يشير إلى أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل بسبب تصدي القوات المصرية لهم "وخرج عسكر مصر فالتقوهم، فكانت الكسرة على المغيث وأصحابة، فانهزم طريداً وعاد شريداً وولى إلى نحو الكرك فريداً وليس معه إلا قليل من جماعته، وأما البحرية فإنهم لما انهزموا توجهوا نحو الغور فصادفهم الشهرزورية، وقد جاؤوا جافلين من الشرق، فاجتمعوا بهم واتفقوا معهم وتزوج الملك الظاهر منهم"[4].

ج. ما يخص علاقة المماليك البحرية بالملك الناصر بن العزيز صاحب الشام.

أدى التقاء البحرية أثر انهزامهم أمام المماليك في مصر بالشهرزورية إلى إثارة الملك الناصر صاحب الشام، ويرجع بيبرس المنصوري السبب في ذلك إلى أن الملك

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣-٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

الناصر كان قد "خاف أن تقوى شوكتهم، فيقصدوا الشام، ويفسدوا عليه النظام"[1]، لذلك قام بتجريد قوة عسكرية لقتالهم، وقد بيّن بيبرس المنصوري كيفية التقاء الطرفين في الأغوار، مبرزاً أهم النتائج التي ترتبت على اللقاء "فكسروا (أي: البحرية والشهرزورية) عسكره (أي: عسكر الملك الناصر)، وفلوهم، فعادوا إليه وقد نالت منهم الكسرة، ورجعوا إلى القلة بعد الكثرة،فاستشاط لذلك غضباً"[2].

بعد الهزيمة التي منيت بها قوات الملك الناصر، يشير بيبرس المنصوري إلى أن الملك الناصر قام بحشد قواته مرة ثانية، والتوجه بها بنفسه لقتال المماليك البحرية والشهرزورية، ولكن يبدو أن الملك الناصر لم يكتب له الالتقاء بهم مرة ثانية، ويرجع بيبرس المنصوري ذلك لانهزام المماليك البحرية والشهرزورية "فعلموا العجز عن المقاتلة، وأنه لا قبل لهم بالمقابلة، فتفرقوا طالبين النجاة لنفوسهم والسلامة لرؤوسهم، فتوجه البحرية إلى الكرك ليأووا إلى المغيث، وتوجهت الشهرزورية نحو الديار المصرية"[3].

علم الملك الناصر بوجهة المماليك البحرية، لذلك بعث إلى الملك المغيث صاحب الكرك يطلب منه تسليمهم ويتهدده إن مانع عنهم، لكن موقف الملك المغيث كان الرفض بتسليمهم كما يذكر بيبرس المنصوري "فدافعه المغيث في أمرهم على أنه يندفع"[4].

يورد بيبرس المنصوري أن موقف الملك المغيث من المماليك البحرية لم يبق على حاله، فقد تغيّر أثر توجه الملك الناصر لحصار الكرك عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م "ونزل على بركة زيزاء، وراسل الملك الناصر؛ المغيث بنوع من التهديد وأغلظ له في الوعيد، فعلم أنه لا يدفعه عنه إلا إرسالهم إليه، فتحيل عليهم، فأمسك من أمكنه وفاته من لم يقدر

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

عليه، فأرسل الذين أمسكهم إلى الملك الناصر.. فأرسلهم إلى قلعة حلب، فحبسوا بها إلى أن دخلها هولاكو"[١].

وإذا كان بيبرس المنصوري قد ذكر أن أغلب البحرية قد تم القبض عليهم،فإنه لم ينس تتبع أخبار الهاربين منهم لا سيما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير سيف الدين قلاوون الألفي المخدوم وخشداشيتهم (زملائهم)، فقد بيّن اعتماداً على ما سمعه من السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الظروف التي كانت قد اجتمعت على الاثنين لا سيما تنقلهم من مكان لمكان وعدم الاستقرار بسبب طلب الملك الناصر والملك المغيث لهما وسوء علاقتهما بالملك المظفر قطز في مصر[٢].

د. ما يخص علاقة المماليك في مصر بالأيوبيين بعد سقوط دولتهم.

مع اعتلاء الملك الظاهر للسلطنة في مصر سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م دخلت هذه العلاقات المتوترة مرحلة جديدة من التطور القائم على أساس الود والصداقة، فيبيّن بيبرس المنصوري أنه في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وفد إلى السلطان الظاهر من البيت الأيوبي الملك المنصور صاحب حماة والملك الأشرف صاحب حمص،حيث أكرمهما السلطان ومنحهما شعار السلطنة، وكتب لهما التقاليد بممالكهما وزاد كلاً منهما على ما بيده، فالمنصور صاحب حماة أعطاه بلاد الإسماعيلية، والأشرف أعطاه تل باشر، ثم أعادهما لبلادهما[٣]. كذلك وفد إليه في العام ذاته من أعيان الذرية الأيوبية كما يشير بيبرس المنصوري الملك الزاهد أسد الدين شيركوه والملك الأمجد بن العادل صاحب بعلبك والمنصور والسعيد ولدا الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل الكبير والملك الأمجد بن الملك الناصر والملك الأشرف بن الملك المسعود والقاهر بن المعظم، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان الظاهر" عاملهم بالجميل والإنعام الجزيل"[٤].

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤١.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٨-٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٩.

ثامناً: سياسة الدولة المملوكية تجاه الخلافة العباسية قبيل سقوطها عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

بدراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية فيما يتعلق بسياسة الدولة المملوكية تجاه الخلافة العباسية في الفترة الممتدة بين سنتي (٦٤٨-٦٥٦هـ/١٢٥٠-١٢٥٨م) يتضح أن بيبرس المنصوري يورد معلومات قليلة عنها بدليل أنه يدونّ في هذا الجانب ثلاث روايات وضح من خلالها أنها سياسة ودية، ويبدو أن قلة المعلومات في هذا الجانب يعود لكون الخلافة العباسية لم يطل عهدها، فقد تم إسقاطها عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م الأمر الذي حال دون تتبع بيبرس المنصوري أخبار العلاقة بين الطرفين بإسهاب.

ذكر بيبرس المنصوري في روايتين منها بإيجاز كيفية تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله في فض النزاع بين الملك المعز أيبك والملك الناصر بن العزيز وقد تم تفصيل هذه النقطة سابقاً[١].

أعقب بيبرس المنصوري الحديث بعد ذلك عن سفارة السلطان المعز أيبك للخليفة العباسي المستعصم بالله، وقد ركز حديثه عليها، فبيّن كيفية إرساله الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولاً إلى الخليفة المستعصم بمعية الشيخ نجم الدين البادرائي عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م يعرفه "... بجلوسه على كرسي مملكة الديار المصرية، وإقامة الدولة العباسية وطاعته للمواقف الخليفية، ويلتمس تشريفه بالتقليد والخلعة والألوية أسوة أمثاله"[٢]. ثم يبرز بيبرس المنصوري موقف الخليفة من تلك السفارة "... وجهز الخليفة ملتمسه وأعاده مكرماً، فلما وصل إلى الحسا والقطيف، وكان الملك المعز قد قتل، واتصل مقتله بالخليفة، فأرسل من بغداد من استعاد التقليد والخلع من شمس الدين سنقر الأقرع، وحضر إلى الديار المصرية بغير ذلك"[٣].

---

(١) انظر سياسة الدولة المملوكية تجاه بقايا البيت الأيوبي.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

الفصل الرابع

السياسة الداخلية لدولة المماليك البحرية
كما أرخ لها بيبرس المنصوري



أولاً: الانقلاب على السلاطين والمؤامرات ضدهم وانتهائها بالقتل أو الخلع أو تسلم السلطنة أو الفشل

بدراسة مادة بيبرس المنصوري التاريخية المتعلقة بسياسة الدولة الداخلية يتضح أن بيبرس قد ركز فيها على تدوين الأخبار الخاصة بالإنقلاب على منصب السلطنة نتيجة لوفاة سلطان سابق، وتقليد سلطان لاحق بعهد منه أو نتيجة لتغلب مدبر المملكة أو أتابك العسكر على المنصب ,ر بخروج بعضهم على سلطانه وحربه، مما يؤدي إلى عزله وسجنه أو قتله، وتولي غيره، وقد بلغت نسبة المادة التي دونها في هذا الجانب حوالي ٣٠٪ من إجمالي مادته عن سياسة الدولة الداخلية.

استفتح بيبرس المنصوري كلامه عن هذا الجانب بالحديث عن كيفية انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك، ذاكراً أن المماليك في أصلهم هم طائفة من الأتراك القفجاقية، قدموا إلى الشام ومصر من بلادهم (القفجاق) أثر تعرضهم للغزو المغولي، حيث تم بيعهم لملوك بني أيوب لا سيما للناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي وأخيه الملك العادل أبي بكر ثم أولاده الكامل والأشرف والمعظم، وقد تم الاستكثار منهم في عهد الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي اعتمد عليهم في إدارة شؤون الدولة السياسية والإدارية[1].

وبعد أن توفي الملك نجم الدين أيوب عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م تولى حكم الدولة الأيوبية ولده المعظم تورانشاه الذي لم يلبث أن قتل، فتسلمت شجر الدر زوج الملك نجم الدين أيوب السلطنة، وجعل الأمير عزالدين أيبك التركماني أتابكاً لها[2].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢-٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣-٤؛ المنصوري، التحفة، ص٢٦؛ المنصوري، مختار، ص٨-٩.

تزوج الأمير المشار إليه شجر الدر، فتنازلت له عن الحكم، وبذلك انتقلت السلطة من الأيوبيين إلى المماليك عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[١]، وقد وضح بيبرس المنصوري أنه بالرغم من تنازل شجر الدر عن الحكم إلا أنها كانت "مشاركه له في الأمر (الحكم)، وعلامتها تخرج على التواقيع... وكل من للبحرية لها مطيع"[٢].

واجه السلطان المعز أيبك التركماني على المستوى الداخلي ثلاثة تحديات كبرى أورد بيبرس المنصوري عنها معلومات مهمة، وأفرد لها كغيره من المؤرخين حيزاً في يومياته، كما أورد كيفية تعامل السلطان المذكور معها، وهي:

١. ازدياد نفوذ الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار الصالحي في مصر عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، وانضمام المماليك البحرية إليه[٣]، وقد عالج السلطان ذلك بالتخلص منه[٤].

٢. خروج المماليك البحرية عن طاعة السلطان المعز أيبك أثر مقتل أميرهم فارس الدين أقطاي، وقد بيّن بيبرس المنصوري بشيء من الإطناب السياسة التي اتبعها السلطان أثر خروجهم، فقال: "ولما أصبح المعز بلغه تسحبهم من المدينة، فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ودورهم وغلالهم ونسوانهم وغلمانهم وأتباعهم وأشياعهم"[٥]. كما استولى على ممتلكات أنصارهم الموجودين في مصر[٦]. أضف إلى ذلك قيامه بالاستيلاء على ممتلكات أميرهم فارس الدين أقطاي وتهديده بالقتل لكل من يأوي أحداً من المماليك البحرية[٧]. أما موقف المماليك البحرية من هذه السياسة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنهم تحالفوا

---

(١) المنصوري، التحفة، ص٢٦؛ المنصوري، مختار، ص٩.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٢٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠؛ المنصوري، التحفة، ص٣٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢؛ المنصوري، التحفة، ص٣٥.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢-١٣؛ المنصوري، التحفة، ص٣٥.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣؛ المنصوري، التحفة، ص٣٥.

(٧) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣؛ المنصوري، التحفة، ص٣٦.

مع الأيوبيين في بلاد الشام لغزو مصر، وإسقاط حكم الملك المعز، وقد فصل موقفهم هذا في الفصل السابق.

٣. انقلاب شجر الدر على زوجها السلطان المعز وقتله:

وفي عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م تغيرت شجر الدر على زوجها السلطان المعز، فقامت مع خدامها بقتله، وأشاعت في مصر أنه مات فجأة في الليل[١]، وقد كان السبب الذي حداها على ذلك هو بلوغ الخبر إليها بأن السلطان المعز "أرسل يخطب لنفسه بنتي صاحب حماة والموصل [فأخذتها] الحيرة، وملكتها الغيرة لما قصده من الاستبدال بها، والاعتزال عنها" على حد قول بيبرس المنصوري[٢]. أما موقف مماليك السلطان المعز من ذلك، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن هذه الإشاعة لم تنطل عليهم، فعرفوا أن شجر الدر هي التي دبرت لقتله، لذلك اجمعوا أمرهم، وتوجهوا إليها وقتلوها[٣].

استقر المنصور نور الدين علي بعد وفاة والده السلطان المعز في السلطنة أثر اتفاق الأمراء على ذلك، وقد كان المذكور صغير السن (عشر سنوات)، لذلك تم تعيين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له لتدبير شؤون الدولة[٤].

لم يستمر المنصور نور الدين علي طويلاً في السلطنة، فقد تم في بداية عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م خلع المذكور باتفاق من أمراء الدولة، وتولية أتابكه الأمير سيف الدين قطز السلطنة، وقد أوضح بيبرس المنصوري أن السبب في ذلك هو عدم قدرة السلطان المنصور على مواجهة الخطر المغولي الذي أخذ باجتياح بلاد الشام[٥]. أضف إلى ذلك أن والدة المنصور كانت تتحكم في أمور الدولة التي شاع فيها الفساد نتيجة لسياستها[٦].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩؛ المنصوري، مختار، ص٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٤؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩؛ المنصوري، مختار، ص٩.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٦؛ المنصوري، التحفة، ص٤١-٤٢؛ المنصوري، مختار، ص١٠.

(٦) المنصوري، مختار، ص١٠.

أما مصير السلطان المنصور المخلوع من السلطنة، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه تم القبض عليه وعلى أخيه قاقان بأمر من المظفر قطز، وسجنهما في برج قلعة الجبل، ثم تم إرسالهما إلى دمياط وسجنا هناك[١]، ثم تم نفيهما مع أمهما في عهد السلطان الظاهر إلى القسطنطينية[٢].

بعد هذا واجه السلطان المظفر المغول، وانتصر عليهم في موقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السلطان المظفر لم يكتب له الوصول إلى مصر بعد انتصاره ذلك، ذاكراً أن السبب في ذلك هو قيام المماليك البحرية بزعامة الأمير بيبرس البندقداري بالانقلاب عليه وقتله بسبب أنهم كانوا يرون أنه السبب في تشتتهم في بلاد الشام أيام السلطان المعز أيبك[٣].

بعد ذلك بينّ بيبرس المنصوري المجريات التي تمت أثر مقتل المظفر قطز، ذلك أنه تم الاتفاق بين الأمراء على تولية الأمير بيبرس البندقداري السلطنة كونه قاتل المظفر قطز، فبويع له بها في يوم السبت ١٧ ذي القعدة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، وتلقب بالظاهر[٤].

واجه السلطان الظاهر أثر تسلمه السلطنة على المستوى الداخلي تحديين هما:

١. خروج الكوراني في القاهرة عن طاعة السلطان الظاهر عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، وإعلانه مع طائفة من السودان والركبدارية الثورة، والمناداة بأن السلطنة لآل علي، أما رد دولة المماليك البحرية عليها، فقد ذكر بيبرس المنصوري بشيء من الاختصار أنه ما أن بدءوا بنهب الدكاكين والأسلحة والخيول حتى "ركبت جماعة من العساكر، وأحاطوا بهم وأخذوهم أخذاً وبيلاً، وأصبحوا مصلبين على باب زويلة، وسكنت الثورة، وانطفت النايرة،وكانت عليهم الدايرة (الدائرة)"[٥].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٦؛ المنصوري، مختار، ص١٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٤٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٣-٥٤؛ المنصوري، التحفة، ص٤٥؛ المنصوري، مختار، ص١١.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٧.

٢. خروج نائب السلطنة في دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي عن طاعة السلطان الظاهر سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وإعلان نفسه سلطاناً واتخاذه لقب المجاهد. وقد ذكر بيبرس المنصوري أن السبب الذي دفعه لذلك هو مقتل سيده الذي قلده نيابة دمشق المظفر قطز، وجلوس الملك الظاهر مكانه. أما كيفية تعامل الملك الظاهر معه، فقد بيّن أن الظاهر في البداية استطاع أن يستميله باللطف، ولكن سرعان ما عاد بالانقلاب مرة أخرى على السلطان الظاهر الذي جرد إليه حملة عسكرية برئاسة علاء الدين أيدكين البندقدار استطاعت الاشتباك معه بالقرب من دمشق، والانتصار عليه، ودفعه للهرب إلى قلعة بعلبك، ثم اعتقاله والإفراج عنه والإنعام عليه من قبل السلطان الظاهر[١].

بعد ذلك يولي بيبرس المنصوري اهتماماً بكيفية وفاة السلطان الظاهر،حيث يذكر أنه مات مسموماً بالخطأ في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة٦٧٦هـ/١٢٧٧م في دمشق مبرزاً أن نائب السلطان الأمير بدرالدين بيليك الخزندار أخفى خبر وفاته عن العساكر في دمشق، وأظهر أنه ما زال مريضاً، ثم قام بنقله لقلعة دمشق ودفنه في التربة التي بنيت له، وعرفت باسمه، ثم أن بيبرس المنصوري يذكر أن خبر وفاته بقي مخفياً حتى وصول العساكر مصر برئاسة الأمير المذكور "فأشيع مماته، وأظهرت للناس وفاته، وجلس ولده السعيد"[٢].

تولى الملك السعيد ناصرالدين بركة خان السلطنة بعد وفاة والده " ذلك أن الأمير بدرالدين الخزندار لما وصل بالعساكر إلى الديار المصرية ألقى المقاليد إليه، ووقف بين يديه، واستمر على مناصحته وطاعته كما كان مع أبيه"[٣]. أما أبرز ما ركز عليه بيبرس المنصوري في عهد هذا السلطان السعيد، فهو بيانه بشكل مفصل الصراع الذي حدث بين الأخير وبين الأمراء الكبار وعلى رأسهم الأمير سيف الدين قلاوون، فقد

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٩-٦٠؛ المنصوري، التحفة، ص٤٥-٤٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٠-١٦١؛ المنصوري، التحفة، ص٨٦؛ المنصوري، مختار، ص٦٢-٦٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٢؛ المنصوري، التحفة، ص٨٦.

أوضح أن الذي أشعل فتيل هذا الصراع هو السياسة التي أتبعها السلطان ضد الأمراء الكبار، والمتمثلة بإقصائهم عن مناصب الدولة العليا، والعمل على إيداع الكثير منهم السجن[١]، فضلاً عن إبعاد العديد منهم عن الدولة بهدف التخلص منهم والتدبير ضدهم[٢].

هذه السياسة التعسفية التي سار عليها السلطان كانت مدفوعة على حد قول بيبرس المنصوري الذي يروي أحداث هذا الصراع كونه شاهد عيان بأيدي مماليكه (أي: السلطان) الصغار الذين تم تقريبهم على حساب الأمراء الكبار، وفي هذا يقول: "وقدم الأصاغر، وأقصى الأكابر، وكان سنه قد ناهز العشرين، فكان يميل إلى أقرانه ومعاصري أسنانه، ويسمع أقوالهم، ويبسط آمالهم، فلما وجدوا المقال، قالوا ولما أصابوا فسحة في المجال جالوا وحسنوا له إبعاد الأمراء الكبار، ونفروه عنهم غاية النفار"[٣].

أما موقف الأمراء الكبار وعلى رأسهم الأمير سيف الدين قلاوون من هذه السياسة، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنهم حاولوا في البداية ردع السلطان عن سياسته تلك، إلا أن ذلك لم يجد[٤]، مما دفعهم إلى أن يقوموا بمحاصرته في قلعة الجبل في القاهرة، وبالتالي خلعه من السلطنة بعد طلبه التوجه إلى الكرك[٥].

قام الأمراء عقب خلع الملك السعيد بعرض السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون، ولكنه رفض تسلمها، وأرتئ أن لا تخرج عن ذرية الملك الظاهر كما يذكر بيبرس المنصوري[٦]، لذلك احضروا بدرالدين سلامش بن الملك الظاهر، وعينوه سلطاناً عليهم، ولقبوه بالعادل سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، واستقر الأمير قلاوون أتابكاً له[٧].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٢-١٦٣؛ المنصوري، مختار، ص٦٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٦؛ المنصوري، التحفة، ص٨٨، المنصوري، مختار، ص٦٦.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٣.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٧؛ المنصوري، التحفة، ص٨٨، المنصوري، مختار، ص٦٧.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٩-١٧٢؛ المنصوري، التحفة، ص٨٩-٩٠، المنصوري، مختار، ص٦٧-٦٨.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٣؛ المنصوري، التحفة، ص٩٠.

(٧) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٣؛ المنصوري، التحفة، ص٩٠؛ المنصوري، مختار، ص٦٩.

اهتم الأمير قلاوون بشؤون الدولة وسيطر على زمام أمورها، فقام بتقريب المماليك البحرية الصالحية، ومنحهم الإقطاعات وأمّرهم بالطبلخانات، وعين أكثرهم نواباً في القلاع الشامية، وأحسن إليهم ولذراريهم(١).

بقي الأمير قلاوون على سياسته هذه شهوراً قليله، إلى أن ألزمه أكابر الأمراء بأن يجلس في السلطنة، ويخلع بدرالدين سلامش لصغر سنه، وبالفعل استجاب قلاوون لهم، وجلس في السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وخطب له على المنابر، ولقب بالسلطان المنصور(٢).

واجه السلطان المنصور قلاوون في عهده على المستوى الداخلي ثلاثة انقلابات على سلطنته، وقد أسهب بيبرس المنصوري في الحديث عنها، وأطنب، بحيث تتبع تطوراتها طيلة عهد المنصور قلاوون، وكيفية تصديه لها، وهي:

١. ثورة السلطان المخلوع الملك السعيد بن الملك الظاهر في مدينة الكرك سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، ثم توليها بعد وفاته من قبل أخيه الملك المسعود خضر، بهدف استعادة السلطنة التي اعتبروا المنصور قلاوون مغتصباً لها.

أبرز بيبرس المنصوري بإسهاب ملابسات هذه الثورة، وكيفية تصدي الدولة المملوكية لها، فقد ذكر أن السلطان المنصور قلاوون قام عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير بدرالدين بيليك الأيدمري نحو الشوبك، مبيناً أن السبب في ذلك هو نقض الملك السعيد العهود والمواثيق التي أخذها عليه السلطان المنصور عندما خلعه من السلطنة، والتي كان من أبرزها "أنه لا يكاتب أحداً من النواب، ولا يستفسد أحداً من العساكر، ومستحفظي القلاع"(٣).

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٣؛ المنصوري، التحفة، ص٩٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٤؛ المنصوري، التحفة، ص٩١-٩٢؛ المنصوري، مختار، ص٧٠.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٢؛ المنصوري، مختار، ص٧٠-٧١.

لم يأبه الملك السعيد بهذه العهود والمواثيق التي قطعها، ذلك أن مماليكه قاموا بتحريضه على الاستيلاء على الشوبك كبداية للسيطرة على بلاد الشام، ثم مصر، وبالفعل استجاب الملك السعيد لهم، فاستولى على الشوبك الأمر الذي دفع السلطان لتجريد حملة كانت برئاسة المشار إليه آنفاً انتهت بإعادة الشوبك إلى حوزة الدولة المملوكية[1].

بعد ذلك توفي الملك السعيد، وتسلم الكرك بدلاً منه أخيه نجم الدين خضر الملقب بالمسعود[2] الذي سار على نهج أخيه في عدائه للسلطان المنصور، فقد بيّن بيبرس المنصوري أنه قام عقب توليه الكرك بتحريض من مماليكه بإعلان انقلابه على السلطان المنصور قلاوون، والاستيلاء على السلط التابعة للسلطان الذي جرد كرد على ذلك حملة عسكرية هدفها ترهيب الملك المسعود خضر[3].

انتهت هذه الحملة كما يذكر بيبرس المنصوري بتقرير الصلح بين السلطان المنصور والملك المسعود خضر عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م على أن يستقر الأخير في الكرك، ويكون له من الحساء إلى الموجب[4].

وفي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ساءت العلاقة بين السلطان المنصور وأولاد الملك الظاهر القاطنين الكرك لا سيما الملك المسعود خضر وأخيه الأمير بدر الدين سلامش وعائلتهم، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن السبب في تغيّر السلطان عليهم هو إفسادهم في الكرك.

أما رد السلطان عليهم، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه قام في البداية باستمالتهم بالطرق السلمية من خلال مراسلتهم وحثهم على عدم الافساد، ولكن هذه الطريقة فشلت، مما دفع السلطان لتجريد حملة تجاههم لمضايقتهم، وقد بقيت الحملة محاصرة

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٢؛ المنصوري، مختار، ص٧٠-٧١.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٩٢.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٠.

(٤) المنصوري، التحفة، ص٩٨.

للكرك إلى أن توجه السلطان بنفسه إلى الشام، وعمل على استقرار بلاد الشام ثم عاد لمصر[1].

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقة بين السلطان المنصور وأولاد الملك الظاهر، فقد وضح أنه في عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م قام بتجريد حملة عسكرية برئاسة الأمير حسام الدين طرنطاي نحو الكرك لاستعادتها، فحاصرها الأخير وضايقها بالمنجنيقات، ناهيك عن قطعه الميره عنها، الأمر الذي دفع أخيراً أولاد الملك الظاهر إلى طلب الأمان، فأجابهما إلى ذلك، وراسل السلطان يطلب منه بإرسال أحد خاصته بخاتم الأمان، وبالفعل أرسل السلطان المنصور قلاوون بيبرس المنصوري بأمانه إلى الكرك، وبذلك عادت الكرك لحوزة السلطان[2].

أما مصير أولاد الملك الظاهر، فقد ذكر بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان أنه تم إحضارهم إلى مصر فـ "ركب السلطان والأمراء والعسكر في موكب حفل، وتلقاهما، وأقبل عليهما، وأطلعهما القلعة، ولم يعرض اليهما بسوء بل وفى لهما بأمانه وغمرهما بإحسانه، وأعطى كلاً منهما إمرة بمائة فارس، واستمرا يلعبان مع ولديه في الميدان، ويركبان معه في المواكب، ونزلهما منزلة أولاده... وشرط عليهما أن يسلكا ما يجب من الأدب، ويتجنبا مناهج الريب، فلبثا على ذلك برهة... ثم بلغه عنهما أمور أنكرها، فقبض عليهما، وبقيا في الاعتقال إلى أيام ولده الأشرف، فسيرهما إلى القسطنطينية"[3].

٢. انقلاب نائب السلطنة في دمشق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر على السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وإعلان نفسه سلطاناً بعد ادعائه أن السلطان المنصور قد قتل، واتخاذه لقب الملك الكامل[4]. وقد ذكر بيبرس

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣١–٢٣٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٠٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٤-٢٥٥؛ المنصوري، التحفة، ص١١٥؛ المنصوري، مختار، ص٨٥.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٨-١٧٩؛ المنصوري، التحفة، ص٩٢؛ المنصوري، مختار، ص٧١

المنصوري أن السبب في إنقلابه هذا هو أعتقاده أن الحملة التي أرسلها السلطان للقضاء على أولاد الظاهر في الكرك هي قادمه من أجل التخلص منه[1].

أما سياسة السلطان المنصور قلاوون تجاه الأمير المشار إليه، فقد ذكر بيبرس المنصوري بشكل مفصل أن السلطان اتبع أسلوبين للتخلص منه، أولهما العسكري، وذلك أنه جرد تجاهه عدة حملات عسكرية؛ الأولى كانت سنة٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد اشتبكت معه في غزة، وأنتهت بالانتصار عليه، وأسر عدد من قواته[2]. أما الحملة الثانية التي يترأسها الأمير علم الدين سنجر الحلبي والأمير بدرالدين بكتاش الفخري أمير سلاح، فقد جاءت في أعقاب الأولى، وانتهت بالاصطدام مرة ثانية مع سنقر الأشقر في الجسورة، وقد أسفر هذا اللقاء عن هزيمة الأشقر وقواته، وهروبه نحو الرحبة[3].

تلى هذه الحملة حملة ثالثة برئاسة الأمير حسام الدين بن أطلس، ولكن هذه الحملة لم يكتب لها تحقيق هدفها بسبب هروب الأمير سنقر الأشقر إلى صهيون[4].

لم يجد هذا الأسلوب في ردع الأمير سنقر الأشقر، لذلك اتبع السلطان المنصور قلاوون أسلوباً آخر وهو الأسلوب السلمي، فقد قام كما يذكر بيبرس المنصوري بإستمالته إلى جانبه وحثه على الطاعة وعدم مناصرة المغول الذين أتصل بهم ضد المسلمين، وقد بيّن بيبرس أن الأمير أستجاب للسلطان" فجنح إلى سلم الإسلام"[5]. وسلم إليه سنة٦٨٠هـ/١٢٨١م شيزر والشغر وبكاس أثر طلب السلطان منه ذلك، وبهذا تم تصفية الخلاف بينهما[6].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨١؛ المنصوري، مختار، ص٧١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٢؛ المنصوري، التحفة، ص٣٩؛ المنصوري، مختار، ص٧١.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٢؛ المنصوري، التحفة، ص٩٣-٩٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٣-١٨٤؛ المنصوري، مختار، ص٧١.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٥؛ المنصوري، التحفة، ص٩٥.

(٦) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٣-١٩٤؛ المنصوري، التحفة، ص٩٧-٩٨.

وبعد قرابة أربع سنوات(أي: عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) عادت العلاقات بين السلطان المنصور والأمير سنقر الأشقر إلى التوتر، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن تغير السلطان عليه بسبب عدم مشاركته معه في تحرير حصن المرقب[١] قد كان السبب الرئيس في أن يقوم السلطان بتجريد حملة إلى معقله في صهيون، حيث تم حصاره فيها من قبل قائد الحملة الأمير حسام الدين طرنطاي الذي شدد الحصار عليه، فاضطر الأمير الأشقر إلى طلب الأمان منه، فأمنه على نفسه وأهله وحاشيته وأعيانه، فسلمت صهيون سنة٦٨٦هـ/١٢٨٧م[٢].

أما مصير الأمير سنقر الأشقر، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن الأمير حسام الدين طرنطاي قام باصطحابه معه إلى مصر، حيث استقبله السلطان في موكب كبير، وأكرمه وخلع عليه، ورفع مكانته[٣].

٣. انقلاب الأمير سيف الدين كوندك الساقي، وجماعة من الظاهرية على السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، ومحاولتهم قتله:

أما السياسة التي اتبعها السلطان قلاوون ضدهم، فقد بيّن بيبرس المنصوري بإيجاز أن السلطان ما أن علم بمخططهم لقتله عن طريق رسالة واصله إليه من عكا حتى دبر حيلة للقبض عليهم وأغلق الطرقات عليهم، ولكن أحساس الأمراء المناوئين للسلطان بتلك الحيلة دفعهم إلى الهروب إلى مناطق مختلفة، ثم أن السلطان خرج إلى حمراء بيسان، وأرسل لأولئك الأمراء بضرورة الحضور إليه في المنزلة، فحضروا وعاتبهم، ثم اعتقلهم وقتلهم بعد اعترافهم بتدبيرهم لقتله[٤].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٣؛ المنصوري، التحفة، ص١١٤.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٨-٢٥٩؛ المنصوري، التحفة، ص١١٧-١١٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٨-٢٥٩؛ المنصوري، التحفة، ص١١٧-١١٨.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩١-١٩٢؛ المنصوري، التحفة، ص٩٧.

تابع بيبرس المنصوري تطور حركات التمرد على السلاطين بعد وفاة السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م الذي ولي مكانه في السلطنه ولده الأشرف خليل[١]، فكان من أبرزها في عهد الأخير انقلاب الأمير بدر الدين بيدرا وجماعة من الأمراء عليه سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م وقتله على يديهم.

وقد بيّن بيبرس المنصوري بشكل مفصل مجريات هذا الانقلاب وانتهائه بمقتل السلطان الأشرف خليل، فذكر بدايةً أن السبب الذي أدى إلى توتر العلاقة بين الأمير بدر الدين بيدرا والسلطان هو سعاية الوزير شمس الدين بن السلعوس ضده عند السلطان أثناء زيارته للصعيد سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م "وخرج السلطان متوجهاً إلى الوجه القبلي، فلما تحدث الوزير في الأعمال لتحصيل الأموال، وتقرير التقادم من الخيل والجمال وجد لبيدرا عدة من البلاد محميّة باسمه جارية في ديوانه، وله بها كثير من الحواصل والغلال مع شغور الشؤن [الشؤون] السلطانية ووقوف المعاملات الديوانية، وتعذر ما يستدعيه من الإقامات والأموال، وما يقرره من الخيل والجمال، فلم يتمكن منها ووجد ذوابه الذين بكل جهة يدافعون عنها، فأوحى إلى السلطان من أمره ما غيّر ذات صدره"[٢].

حاول الأمير بدر الدين بيدرا تلافي وشاية ابن السلعوس، فاستقبل السلطان أثناء عودته من الصعيد "فضرب له بالعدوية خيمة من الأطلس الأحمر بإطناب من الابريسم الملون، وعمد صندليّة محلاة بفضة مطلاة منقوشة بأنواع النقوش مرقشة بأبدع الرقوش مفروعة ببسط من الحرير مصورة غرائب التصوير، وعمل له ضيافة بالغ فيها".

ومع ذلك يذكر بيبرس المنصوري أن العلاقة بقيت متوترة بينهما " فنزل السلطان في الخيمة قدر ساعة، ثم ركب إلى القلعة، ولم يظهر بشاشة لقبولها، ولا استحساناً لها"[٣].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٢٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٦؛ المنصوري، مختار، ص٩١.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٢.

وفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣ م توجه السلطان الأشرف خليل إلى الإسكندرية بهدف الصيد، وقد ذكر بيبرس المنصوري أن وزيره ابن السلعوس سبقه لتلك الجهة، فلما وصل السلطان حرضه على الأمير بدر الدين بيدرا، مما دفع السلطان لاستدعائه، وإهانته، ثم تركه.

اجتمع الأمير بدر الدين بيدرا بعد خروجه من عند السلطان بخوشداشيته، المناوئين للسلطان، واتفق معهم لا سيما الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، والأمير شمس الدين قراسنقر على قتل السلطان "قبل أن يثب عليهم"، وقد استغل الأمراء السابق ذكرهم كما يذكر بيبرس المنصوري توزيع السلطان للأمراء على إقطاعاتهم، وبقائه مع مماليكه الخواص لوحده، فقاموا بتتبع حركته إلى أن وصل تروجه، فعملوا على الإحاطة به وقتله(١).

وفي أعقاب ذلك اتفق الأمراء على تولية الأمير بدر الدين بيدرا السلطنة، ولقبوه بالقاهر، كما اتفقوا على الاستيلاء على القلعة لتتم لهم المنعة، ولكن لم يكتب لاتفاقهم هذا التنفيذ لأن بيبرس المنصوري يذكر أن حاشية السلطان الأشرف لاسيما الأمير ركن الدين الجاشنكير والأمير سيف الدين برلغي والأمير حسام الدين استاذ الدار والأمير بدر الدين بكتوت العلائي والمماليك السلطانية استطاعوا أن يلحقوا بهم ويشتبكوا معهم في معركة انتهت بمقتل الأمير بدر الدين بيدرا، وهروب بقية الأمراء المناصرين له(٢).

وصل الأمراء السابق ذكرهم عقب انتصارهم على الأمير بدر الدين بيدرا إلى القلعة، واتفقوا مع نائب القلعة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي على تقليد الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، فتم له ذلك سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م(٣).

عمل السلطان الناصر منذ تسلمه السلطنة على تصفية الأمراء الذين تعاونوا مع الأمير بدر الدين بيدرا على قتل أخيه الملك الأشرف، فذكر بيبرس المنصوري أسمائهم

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٥-٢٩٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٦؛ المنصوري، مختار، ص٩٥-٩٦.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٦-٢٩٧؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٦-١٣٧؛ المنصوري، مختار، ص٩٦-٩٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٧-٢٩٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٧-١٣٨.

وكيفية تصرف السلطان معهم "فوقع منهم أولاً بهادر رأس النوبة، وأقوش الموصلي الحاجب، فضربت رقابهما، وأحرقت جثتهما، ثم وقع بعدهما طرنطاي الساقي والناق [أناق] السلاحدار ونوغيه السلحدار... وكان ركن الدين الجاشنكير يتوجه إليهم، ويتولى عقابهم... وأمسك [علم الدين] الشجاعي شمس الدين محمد بن السلعوس وزير الملك الأشرف، فصادره، واستصفى أمواله... إلى أن مات"(١). أما الأمير شمس الدين قراسنقر وحسام الدين لاجين المنصوري، فقد شفع مملوك من مماليك الأمير زين الدين كتبغا فيهما عند السلطان الذي قبل شفاعته، وعفا عنهما، وأمر لكل منهما بإمرة(٢).

ويشير بيبرس المنصوري إلى أن الأوضاع الداخلية في مصر قد أخذت بالتأزم بعد ذلك نتيجة لسوء العلاقة بين الأمير علم الدين الشجاعي نائب القلعة والأمير زين الدين كتبغا، وقد وضح بيبرس المنصوري أن السبب في توتر العلاقة بين الأثنين هو وشاية اثنان من بطانة الشجاعي لا سيما قنغر وجاورشي ولده عند الأمير زين الدين كتبغا بأن الشجاعي دبر خطة ينوي بها القبض عليه وعلى أتباعه عند طلوعهم القلعة، الأمر الذي أثار الأمير زين الدين كتبغا، ودفعه إلى الاجتماع بأتباعه، ثم راسلوا السلطان وطلبوا منه تسليم الشجاعي للتحقيق معه في أمور وصلتهم عنه، فاخبرهم السلطان أنه لا يعلم شيئاً من الأمور التي يتحدثون عنها، ثم أنهم بينوا للسلطان أنهم على طاعته وحفظ بيعته، وأنهم يريدون الشجاعي الذي تحصن في القلعة، وتم محاصرته فيها لعدة أيام من قبل الأمير زين الدين كتبغا وأتباعه، وقد بقي الشجاعي على تلك الحال حتى تسلل بعض أتباعه من القلعة، والتحقوا بكتبغا، وهذا الأمر اضطره أخيراً إلى تسليم نفسه إلى الأمير زين الدين كتبغا الذي أمر بسجنه، وبينما هو في طريقه إلى السجن وثب عليه مماليك الأمير سيف الدين الأقوش السلحدار والأمير سيف الدين صمغار فقتلوه، وبذلك انتهت الفتنة(٣).

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٩-٣٠٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٨-١٣٩.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٠-٣٠٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٩-١٤١.

ويذكر بيبرس المنصوري أنه في أعقاب سكون الفتنة قام الأمير زين الدين كتبغا والأمراء المناصرين له بتجديد ولاءهم وعهودهم للسلطان الناصر محمد، واستقرت الأوضاع لفترة[1].

وفي سنة ٦٩٤ هـ/١٢٩٤م قامت المماليك السلطانية بثورة عظيمة في مصر ضد السلطان وأمرائه، وقد بيّن بيبرس المنصوري اعتماداً على ما نقله له من حضر الفتنة أن السبب في ثورتهم تلك هو إبعادهم عن مناصب الدولة، وعدم دفع رواتبهم[2]. ذاكراً أن هؤلاء المماليك تقدموا للمدينة ونهبوا الأموال منها، وراسلوا أصحابهم الموجودين عند السلطان للانضمام إليهم، ولكنهم رفضوا ذلك، وهذه الثورة دفعت أخيراً الأمراء الموجودين في القلعة إلى الخروج إليهم، والاشتباك معهم في معركة انتهت بهزيمة المماليك السلطانية، واعتقال اغلبهم خاصة اللذان سببا الفتنة وهما كتبغا وساطلمش، وبذلك انتهت الفتنة[3].

ويبرز بيبرس المنصوري أن فتنة المماليك السلطانية قد كانت دافع رئيسي إلى أن يقوم بعد ذلك الأمير زين الدين كتبغا بتحريض من مماليكه وصبيانه إلى الانقلاب على السلطان الناصر وخلعه من السلطنة وإنزاله في أحد المنازل وحجبه عن الناس، والجلوس مكانة وتلقبه بالعادل سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م[4].

لم يستمر السلطان العادل كتبغا طويلاً في السلطنة، فقد ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان اتبع سياسة تمثلت بتقريب التتار الأويراتيه القادمين من البلاد المشرقية وتقديمهم على الأمراء الكبار في الدولة، وتنصيبهم في مراكز الدولة العليا قبل دخولهم الإسلام[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٢؛ المنصوري، مختار، ص٩٩-١٠٠.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٠٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٣-١٤٤.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٦.

لم تلق هذه السياسة قبولاً لدى أمراء الدولة وخاصة الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، لذلك اتفقوا على خلع السلطان العادل كتبغا، والإيقاع بمماليكه، وبالفعل لما عاد السلطان من بلاد الشام وثب الأمراء على مملوك السلطان بكتوت الأزرق فقتلوه، ثم قتلوا مملوكه الآخر بتخاص الزيني، أما السلطان، فقد أحس بخطتهم تلك، فهرب إلى دمشق ومنها إلى صرخد التي استقر فيها[١].

وبعد هروب السلطان العادل كتبغا اتفق الأمراء على تقليد الأمير حسام الدين لاجين السلطنة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، وقد اشترطوا عليه مقابل ذلك أن لا يقدم أحداً من مماليكه عليهم وخاصة مملوكه منكوتمر[٢].

ابتدأ السلطان المنصور حسام الدين لاجين عهده بإرسال الملك الناصر محمد إلى الكرك "فوصلها وأقام فيها، وعامله النائب المقيم بها... بما يجب له من الإجلال... وبقي هناك إلى أن أعاده الله سالماً..."[٣]. كما كتب إلى السلطان المخلوع العادل كتبغا منشوراً بصرخد "ولم يعرض إليه أحد، فسلمت له نفسه وأهله وأولاده ومماليكه وألزامه"[٤].

بعد ذلك يذكر بيبرس المنصوري أن سياسة السلطان المنصور لاجين أخذت تتغيّر، فقد نقض العهود والمواثيق التي أخذها عليه الأمراء بعدم تقريب أحد مماليكه عليهم، فقام بتأمير مماليكه لا سيما سيف الدين منكوتمر وعلاء الدين ايدغدى شقير وسيف الدين بيدو وسيف الدين بالوج وسيف الدين جاغان وسيف الدين بهادر المعزي وسيف الدين بهادر الجوكندار[٥].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١١-٣١٢؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٧-١٤٨؛ المنصوري، مختار، ص١٠٢-١٠٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٨؛ المنصوري، مختار، ص١٠٤.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٤؛ المنصوري، مختار، ص١٠٤.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٨.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٩.

أدى تقريب السلطان لمماليكه إلى الانقلاب في سياسته تجاه أمراء الدولة الكبار، فقد تغيّر على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بمصر كما يذكر بيبرس المنصوري "بسبب ما كان منكوتمر يسعى به إليه ويتقوله عليه من السعايات والوشايات التي توغر الصدور، وتهيج الشرور حسداً له ورغبةً في منصبه، فما زال به حتى تمكنت الموجدة من نفسه، واستوحش منه بعد فرط انسه... فلما غيّر خاطره بأقواله أمر باعتقاله، فقبض عليه، وعلى الأمير بدر الدين بيسرى والأمير عز الدين الحموي والأمير سيف الدين بهادر الحاجّ الحاجب...وقبض على الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري،واستقل منكوتمر بالنيابة"(١).

بعد هذا يلاحظ أن بيبرس المنصوري يتتبع السياسة التعسفية التي اتبعها سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة بمصر مع أمراء الدولة الكبار ومصيره، ويركز عليها، فقد ذكر أن منكوتمر ابتدأ بالسيطرة على زمام الأمور في الدولة "وسلّم إليه أستاذه -أي السلطان- القياد، ووكل إليه تدبير البلاد والعباد، فبسط يده ولسانه وقلمه، واحتجن الأموال والتحف والهدايا واللطف، وأسرف غاية السرف، وأظهر من التكبر والتجبر والصلف والعجب، واستصغار الأكابر، واحتقار الأصاغر ما نفر عنه الخواطر، وبغّضه إلى البوادي والحواضر"(٢). أضف إلى ذلك أنه عمل على تفريق وتشتيت الأمراء وتجريدهم إلى خارج مصر بهدف إبعادهم عن أمور الدولة، والتخلص منهم(٣).

لم تلق السياسة التي اتبعها منكوتمر مع الأمراء قبولاً لدى بعض مماليك السلطان لاجين لا سيما سيف الدين طغجي وسيف الدين كرجي اللذان كانا على عداوة مع منكوتمر، لذلك اتفقا على قتل السلطان ونائبه منكوتمر سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م "فلما كان ليلة الجمعة هجموا عليه، وهو جالس يلعب بالشطرنج مع أحد جلسائه، فارووا السيوف من دمائه، وقطعوه قطعاً... وخرجوا إلى دار النيابة في طلب منكوتمر الذي تم

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٥-٣١٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٤٩-١٥٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٦؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٠.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٧-٣١٨؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٠-١٥١.

اعتقاله ثم قتله"[1].

أما بالنسبة لمصير سيف الدين كرجي وسيف الدين طغجي، فيذكر بيبرس المنصوري أن الأمراء لا سيما الأمير سيف الدين سلار والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير حسام الدين الرومي وغيرهم قاموا بالتخلص منهما[2].

وفي أعقاب التخلص من السابق ذكرهما قام الأمراء بإحضار الملك الناصر محمد من الكرك، وأجلسوه مره أخرى في دست السلطنة[3]. وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان شاهد عيان على جلوسه "وكنت فيمن أبعده منكوتمر وجرده، فحضرت من بلاد الأشمونين، وصادفت يوم جلوسه"[4].

واجه السلطان الناصر محمد بعد توليه السلطنة العديد من المشاكل الداخلية، وقد بيّنها بيبرس المنصوري، وفصل في معلوماته عنها باعتباره كان شاهد عيان على أكثرها بل وله بها مشاركة، والمتصفح لمؤلفاته يلاحظ ذلك خاصة مؤلفه التحفة الملوكية الذي يخصص فيه فصلاً كاملاً للحديث عن ذلك. وهذه المشاكل هي:

١. ثورة التتار الأويراتية في مصر بالتعاون مع أحد المماليك السلطانية وهو برلطاي على السلطان الناصر سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، ومحاولتهم خلعه وإعادة زين الدين كتبغا -الذي رفع مكانتهم في أيام سلطنته- للسلطنة، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن هذه الثورة لم تنجح لأن السلطان الناصر تمكن من القبض على مدبرها برلطاي وقتله بعد اختراقه صفوف الجند في محاولة منه لقتله، كما اعتقل أعوان برلطاي في قلعة الكرك، في حين أنه عمل على قتل التتار الأويراتية وحرقهم في غزة[5].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٣-٣٢٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٣-١٥٤؛ المنصوري؛ مختار، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٤؛ المنصوري، مختار، ص١٠٩.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٢٥؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٤-١٥٥؛ المنصوري، مختار، ص١١٠.

(٤) المنصوري، التحفة، ص١٥٥.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣٠؛ المنصوري، التحفة، ص١٥٦؛ المنصوري، مختار، ص١١٠.

٢. سوء العلاقة بين السلطان الناصر محمد وكلٍ من الأمير سيف الدين سلار والأمير بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م[١].

٣. سوء العلاقة للمرة الثانية بين السلطان الناصر وكلٍ من الأمير سيف الدين سلار والأمير بيبرس الجاشنكير، وخلع السلطان نفسه بعد توجهه إلى الكرك سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م[٢].

٤. وفي آخر ذي الحجة من سنة٧١٠هـ/١٣١٠م قام بتخاص المنصوري بالاتفاق مع أمير موسى ابن الملك الصالح بن السلطان قلاوون وجماعة من مماليك بيبرس الجاشنكير بإعلان ثورتهم على السلطان الناصر الذي يذكر بيبرس المنصوري أنه تمكن من القبض على بتخاص ومماليك الجاشنكير وإيداعهم سجن القلعة، أما أمير موسى، فقد أُدع "مكاناً ممنوعاً من التصرف"[٣].

٥. ولما دخلت سنة٧١١هـ/١٣١١م قام الملك الناصر بإرسال الأمير شمس الدين قراسنقر على رأس وفد للحج، وقد بيّن بيبرس المنصوري أن الأمير المذكور لما وصل زيزا حضر إليه بعض مماليكه "فأوهموه وأوحوا إليه أن... السلطان أبطن له مكراً، وأضمر به غدراً، وأوصى الأمراء المتوجهين إلى الحجاز بإمساكه سراً".

ولما سمع قراسنقر ذلك، ثنى عزمه عن المسير، وأخذ يتنقل في بلاد الشام خشية من السلطان، إلى أن نزل زور السورية بشط الفرات، حيث راسل السلطان وطلب منه أحد القلاع ليأوي إليها، وقد تكررت الرسائل بينهما إلى أن قرر قراسنقر أخيراً إرسال ولده فرج ومملوكه بلبان جركس إلى الملك الناصر لإزالة الأوهام والشكوك، وبالفعل وصل الاثنان، فاستقبلهما السلطان وأكرمهما، ثم أن مهنا بن عيسى قام بمراسلة السلطان

---

(١) لقد تم تفصيل هذه النقطة في الفصل الأول.

(٢) لقد تم تفصيل هذه النقطة في الفصل الأول.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٢٤-٢٢٥.

يطلب منه العفو عن قراسنقر، ويلتمس له الإقامة في الشوبك، فوافق السلطان، وزال التوتر بينهما[1].

ثانياً: سياسة الدولة المملوكية تجاه القبائل العربية في بلاد الشام ومصر

حظيت السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في بلاد الشام ومصر باهتمام بيبرس المنصوري، وساعدت المعلومات الدقيقة التي أمدنا بها على التأكد من ذلك، فقد بلغ مجموع الروايات التي دونّها بهذا الجانب تسعة وعشرون رواية،كان نصيب السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في بلاد الشام هو الأكبر، إذ بلغ عددها سبع عشر رواية، بينما كان نصيب السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في مصر أقل، إذ بلغ عددها اثنا عشر رواية، وقد أبرز بيبرس المنصوري من خلال تلك الروايات موقف الدولة المملوكية من تلك القبائل العربية.

أما بالنسبة للسياسة المملوكية تجاه القبائل العربية الشامية، فيمكن أن يستشف من مادة بيبرس المنصوري التاريخية أنها في عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) سياسة ترتكز على موقفين متناقضين أولهما إيجابي، ويتمثل في كيفية تفعيل دور إمرة عرب الشام واحتوائها بمنحها الأرزاق والأموال والإقطاعات، والتعويل عليها في حفظ بلاد الشام من الاعتداءات الخارجية، ويبرز ذلك مما ذكره بيبرس المنصوري سنة٦٥٩هـ/١٢٦٠م، حيث قال: "وكتب السلطان الظاهر منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وأحضر أمراء العرب، وأجرى إقطاعاتهم ووصل أرزاقهم وسلم إليهم خفر البلاد وألزمهم حفظها إلى حدود العراق"[2]. كما أبرز بيبرس المنصوري دور معظم القبائل العربية الشامية -كنتيجة لاحتوائها- في الوقوف جنباً إلى جنب مع الدولة المملوكية في صد الاعتداءات المغولية الإيلخانية عليها، ويلاحظ هذا من الروايتين اللتين يوردهما في ثنايا مادته الأولى

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٣٥-٢٣٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٠؛ المنصوري، مختار، ص١٩.

يوضح فيها كيفية قيام السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م بتوجيه حملة عسكرية بقيادة الحاج طيبرس الوزيري وأميرعرب الشام عيسى بن مهنا بعربه إلى منطقة مرعش وحران، وقتل ما فيها من المغول[١]، وثانيها يبين من خلالها كيفية تشكيل السلطان الظاهر عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م تجريده منهم على صورة جاليش للعسكر المملوكي يقودها كلاً من حسام الدين لاجين العنتابي، والأمير عيسى بن مهنا، وأبرازه وجهتها، وهي منطقة البيرة ورأس العين وما ترتب عليها "...ونهبوا و غنموا ما وجدوا"[٢].

أما ثانيها، فهو موقف سلبي يتمثل في استخدام السلطان الظاهر الشدة في التعامل مع بعض القبائل العربية الشامية الخارجة عن طاعة الدولة المملوكية، وهذا يتضح من العديد من الحالات التي سجلها بيبرس المنصوري في مادته التاريخية والتي بلغت ثلاث حالات أبرز من خلالها الإجراءات التي اتخذها السلطان الظاهر ودولته تجاههم وهي:

أ. **الحالة الأولى:** أبرز فيها الدور السلبي لعرب زبيد عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م في دل الفرنج على عورات المسلمين[٣]، وموقف الدولة وإجراتها تجاه ذلك "... فجرد إليهم الأمير جمال الدين المحمدي وصحبته جماعة، فأغاروا عليهم واستاقوا، وعادوا سالمين"[٤].

ب. **الحالة الثانية:** قدم فيها معلومات مهمة عن موقف السلطان الظاهر ودولته من حالة الفوضى التي تسبب بها سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م أحد زعماء القبائل العربية الشامية الأمير نورالدين زامل ابن علي، والتي نجمت عن خلافات حدثت بينه وبين كلٍ من الأمير عيسى بن مهنا وأحمد بن حجي، فقد أمر بإلقاء القبض عليه،ثم إطلاق سراحه و الإصلاح بينه وبين الأطراف المتصارعة معه، ثم"...

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٣؛ المنصوري، التحفة، ص٧٣؛ المنصوري، مختار، ص٤٨.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٥-١٤٦؛ المنصوري، التحفة، ص٨١؛ المنصوري، مختار، ص٥٣.

(٣) المنصوري، مختار، ص٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠.

لم يلبث زامل أن توجه إلى هولاكو، فأعطاه إقطاعاً بالعراق، وعاد إلى مشتاه بالحجاز، فنهب من وجد، وحضر أوايل [أوائل] الشام، وراسل السلطان في طلب العفو فلم يجبه، وأرسل من أمسكه وأحضره واعتقله"[١].

ج. **الحالة الثالثة:** زودنا فيها بمعلومات مهمة عن موقف السلطان الظاهر ودولته من فرار الأمير عمرو بن فحلول أحد أمراء العربان من مكان اعتقاله في عجلون إلى المغول "... ثم طلب الأمان -أي عمرو بن فحلول-، فقال السلطان: ما نؤمنه إلى أن يحضر إلى عجلون، ويقعد في المكان الذي كان فيه مسجوناً، فحضر وتطوق بالطوق الحديد، كما كان فعفا السلطان عنه"[٢].

كما سلط بيبرس المنصوري في مادته التاريخية الضوء على السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية في عهد السلطان السعيد بن الملك الظاهر، ولكن دون أن يسهب في ذلك نظراً لقصر مدة سلطنته، فقد أشار إلى رواية وحيدة ركز في مضمونها على كيفية تعويل السلطان السعيد عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م على القبائل العربية الشامية في القضاء على الأمراء الخارجين عليه في مصر أثر المؤامرة التي دبرها مع خاصكيته ضدهم في محاولة للتخلص منهم[٣]، فضلاً عن إشارته لكيفية تخلي تلك القبائل عنه أثناء طريقهم لمصر "لما رأى الملك السعيد نفار الأمراء والعساكر عنه ومسيرهم نحو الديار المصرية دونه جمع من كان بدمشق من بقايا العساكر المصرية، ومن حوته من العساكر الشامية، واستدعى العربان ومن ينضم إليهم من الفرسان، وانفق فيهم بدمشق، وخرج منها، فلما وصل إلى غزة تسلل أكثر العربان وتفرقوا"[٤].

أما علاقة المنصور قلاوون بالقبائل العربية الشامية، فقد ذكر بيبرس المنصوري أربع روايات في هذا الجانب بيّن في الرواية الأولى بشيء من الاقتضاب كيفية تعويل

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٠.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٠؛ المنصوري، التحفة، ص٧٨.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٠-١٧١؛ المنصوري، التحفة، ص٩٠؛ المنصوري، مختار، ص٦٧.

(٤) المصادر نفسها.

سنقر الأشقر نائب الشام عليهم في محاربة الدولة المملوكية، وموقف المنصور قلاوون منهم عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م "... فجمع سنقر الأشقر العساكر من حلب وحماة وحمص، واستدعى الكبكي من صفد والعربان من البلاد، وجهز من عسكر الشام جماعة، وقدم عليهم الأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، فساروا إلى غزة، والتقوا مع الأميرين -اللذين أرسلهما المنصور قلاوون- عزالدين الأفرم وبدرالدين الأيدمري على غزة، فكانت الكسرة على العسكر الشامي -أي عسكر سنقر الأشقر-"(١). كما زودنا بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة عن كيفية إعادة سنقر الأشقر -بعد هزيمة قواته في غزة- ترتيب قواته مرة أخرى ومواجهة المنصور قلاوون له في السنة ذاتها في موقعة الجسورة، وكان من أبرز ما ركز عليه في هذه الموقعة هو ذكره لهزيمة الأمير سنقر الأشقر وفراره وبمعيته أمير عرب الشام شرف الدين عيسى بن مهنا "... فالتقى الجمعان والتحم القتال فساق الأمير علم الدين الحلبي على سنقر الأشقر، فلما صدمه هزمه فتوجه طالباً الرحبة، ومعه شرف الدين عيسى بن مهنا..."(٢).

ويعقب بيبرس المنصوري بعد ذكره لموقعة الجسورة اعتماداً على ما استقاه من شهود عيان حضروا تلك الموقعة كيف أن سنقر الأشقر لما التقى مع الحلبي دبر حيلة هدفها التمكن من قوات الحلبي، ولعل أبرز ما ركز عليه في حديثه عنها هو دور القبائل العربية الشامية في تنفيذها وكيفية تعامل ممثل الدولة المملوكية في هذه الموقعة "الحلبي" معهم، فقد "قرر -سنقر الأشقر- مع العربان الذين جمعهم أن يقاطعوا ساعة الملتقى على العساكر المصرية ويجيئوهم من ورائهم ويحطوا أيديهم في نهب الأثقال والغلمان والجمال ليثنوا إليهم عنانهم، فيركب أكتافهم، ففعل العرب ما أوصاهم وجاؤوا من ورائهم وشرعوا في النهب، فقال له العسكر: أن العرب قد نهبت الأثقال والقماش والأحوال، فقال: لا تلتفتوا إليهم ولا تعوجوا عليهم وشأنكم ومن قدامكم، فأنّا إذا هزمناهم استرجعنا الذي لنا وغنمنا الذي لهم، فأطاعوه وتقدموا فاستظهروا

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨١-١٨٢.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٨٢؛ المنصوري، التحفة، ص٩٣.

وغنموا، وهذا تدبير ينبغي لمن يتقدم على الجيوش أن يحكمه ولمن يمارس الحروب أن يفهمه"[1].

أما الرواية الثانية، فقد أبرز فيها بيبرس المنصوري تحسن علاقة المنصور قلاوون بالقبائل العربية الشامية من خلال توضيحه لكيفية وقوفهم إلى جنب الدولة المملوكية في موقعة حمص عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م ضد المغول، وهذا يظهر من قوله حين قسم المنصور قلاوون جيشه: "وفي رأس الميمنة شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرى وعربان البلاد الشامية ومن انضم إليهم"[2]. كما تتبع بيبرس المنصوري باعتباره أحد المشاركين فيها دورهم في هزيمة ميسرة المغول[3].

أما الرواية الثالثة والرابعة، فقد ركز فيها بيبرس المنصوري الحديث على سياسة المنصور قلاوون تجاه القبائل العربية في الكرك، حيث وضح كيف قام المنصور قلاوون عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م بتوجيه حملة عسكرية بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي إلى الكرك التي حاصرها، وكان من أبرز ما ركز عليه إيصال صوته إلى العرب فيها، فخاطبهم بلسان الإحسان خطاباً "خلط الترهيب بنوع من الترغيب"[4]. كما قام الأمير المشار إليه -بعد استرجاع الكرك من أولاد الملك الظاهر- بتقديم الخلع إلى رجال القلعة ومقدمي المدينة، وأمراء العربان، ورتب أحوالهما وعاد إلى مصر[5].

كما وضح بيبرس المنصوري الذي قلده المنصور قلاوون نيابة السلطنة في الكرك أثناء زيارته لها في العام المشار إليه آنفاً السياسة التي اتبعها السلطان مع القبائل العربية القاطنة فيها "...ونزل السلطان على ظاهرها، وطلع قلعتها... ورتب أحوال

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٨٣.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٧؛ المنصوري، التحفة، ص٩٩؛ المنصوري، مختار، ص٧٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٩٧-١٩٨.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة،ص٢٥٤؛ المنصوري، التحفة، ص١١٥.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٥.

العربان ومن بها من الرجال وجددّ لأمراء العرب مناشير أقطاعاتهم وأجرى لهم عادات صلاتهم"[1].

أما عن علاقة أبناء السلطان قلاوون لا سيما الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمد بالقبائل العربية الشامية، فيتضح من دراسة مادة بيبرس المنصوري أنه يورد معلومات هامة عن ذلك، حيث ذكر سبع روايات في ذلك وضح من خلالها أنها كانت سياسة متوترة ثم تحولت إلى سياسة لينة، ففي عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م ذكر بيبرس المنصوري أن السلطان الأشرف عمل أثناء زيارته لبلاد الشام وتحديداً لحمص على اعتقال الأمير مهنا بن عيسى بن مهنا وأخوته[2]، ويظهر من هذا الخبر أن بيبرس المنصوري قد أغفل تدوين السبب في اعتقالهم.

كما وضح بيبرس المنصوري دور القبائل العربية الشامية السلبي وتحديداً عربان غزة في مهاجمة فلول الجيش المملوكي أثناء عودته إلى مصر أثر هزيمته بقيادة الملك الناصر محمد أمام المغول في موقعة مجمع المروج عام٦٩٩هـ/١٢٩٩م "... ثم تواصلت العساكر كل بمفردة، وكانت طائفة منهم وقت الرجعة من الوقعة سلكوا على ساحل طرابلس خوفاً من اتباع التتار آثارهم، فنزلت اليهم الجبلية من الجبال ونهبوا طائفة بعد طائفة، وحفظوا عليهم مضايق الطرقات وسلبوهم وقتلوا منهم جماعة،ومن أفلت من أيديهم تلقته العربان الذين بالقرب من غزة وما حولها، وكملوا نهبهم، وجددوا سلبهم، فكان ذلك على العساكر أشد نكاية من التتار..."[3].

وإذا كانت بعض القبائل العربية قد استخدمت الشدة في التعامل مع الدولة المملوكية، فإنه كان هناك قبائل شامية أخرى تساند الدولة المملوكية، وهذا يظهر من إشارة بيبرس المنصوري بأن القبائل العربية كانت قد شاركت مع الدولة المملوكية في موقعة مرج

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٥٥.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٩٣؛ المنصوري، التحفة، ص١٣٣.

(٣) المنصوري، مختار، ص١١٢.

الصُّفَر عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ضد المغول، فكانوا في جناح الميمنة "وفي جناحها سيف الدين قفجاق وعسكر حماة وعرب الشام"[١].

تابع بيبرس المنصوري تطور العلاقة بين السلطان الناصر والقبائل العربية الشامية، حيث أوضح بإيجاز أنها أصبحت علاقة ودية بدليل تسجيله في مادته ثلاث زيارات لرؤساء تلك القبائل إلى السلطان الناصر، وإيضاحه كيفية تعامل السلطان الناصر معهم، ففي الزيارة الأولى ذكر بيبرس المنصوري باختصار أنه في عام٧١٠هـ/١٣١٠م "وفد... الأمير شرف الدين مهنا بن عيسى أمير آل فضل إلى الباب العزيز، فأقبل السلطان- الناصر محمد- عليه وأحسن إليه"[٢]. في حين أن بيبرس المنصوري في الزيارة الثانية عام٧١١هـ/١٣١١م أبرز السبب في قدوم الأمير علم الدين سليمان بن مهنا بن عيسى إلى السلطان الناصر مع ذكره لكيفية تعامل الأخير معه "وفد الأمير علم الدين سليمان بن مهنا بن عيسى إلى الأبواب السلطانية مخبراً بأنه أغار هووجماعة آل فضل غارة ما بين هيت وتكريت على بيوت التتار الذين بتلك الأقطار، ونالوا من العدو نيلا، واستاقوا إبلاً وخيلاً، وأحضر من أساراهم قوما، فشمله الأنعام الشريف وحبي بالعطاء والتشريف"[٣]. أما الزيارة الثالثة التي كانت في العام المشار إليه آنفاً، فقد بيّن بيبرس المنصوري فيها كيفية إرسال الأمير مهنا بن عيسى أخيه فضل بكتاب إلى السلطان الناصر يستعطفه فيه بالعفو عن الأمير شمس الدين قراسنقر، ويطلب منه تعيينه نائباً في الشوبك[٤]، كما بيّن جواب السلطان على كتاب الأمير مهنا بن عيسى "فوافق مولانا السلطان على هذا وأمضاه، وكتب الجواب إلى مهنا وإلى الأمراء -الذين كانوا بحلب وأوصلوا الكتاب له- بمقتضاه"[٥].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٧٣-٣٧٥؛ المنصوري، التحفة، ص ١٦٦-١٦٧؛ المنصوري، مختار، ص١٢٤-١٢٦.

(٢) المنصوري، التحفة، ص٢١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٣٧.

أما السياسة المملوكية تجاه القبائل العربية المصرية، فقد كانت قائمة على أساس العداء المستحكم، بخلاف سياستها تجاه القبائل العربية الشامية، ويظهر ذلك من خلال ما سجله بيبرس المنصوري عن ثوراتهم ضد الدولة المملوكية، والبالغ عددها اثنا عشر ثورة، ناهيك عن إيراده معلومات مفصلة عن كيفية تعامل الدولة المملوكية معها، وفيما يلي بيان ذلك:

واجه دولة المماليك البحرية في عهد السلطان المعز أيبك التركماني ثلاث ثورات للقبائل العربية في مصر "الصعيد" كما يذكر بيبرس المنصوري الذي أوجز واختصر في معلوماته عنها وهي:

١. ثورة عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، يلحظ منها أن بيبرس المنصوري اقتضب في كلامه عنها، حيث ذكر أن السلطان المذكور" نافقه العربان بالسعيد (الصعيد)، فتوجه إليهم المخدوم الشهيد (قلاوون) والأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وكسر شوكتهم"[١].

٢. ثورة عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، أورد بيبرس المنصوري معلومات قليلة عنها،حيث ذكر أنه " قدم الفارس أقطاي من الصعيد، وقد أسر الشريف حصن الدين بن ثعلب، وجماعة من العربان"[٢].

٣. ثورة عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، التي زودنا عنها بيبرس المنصوري بمعلومات مهمة، تمثلت في ذكره أسماء الأمراء الذين قادوا الثورة والسياسة التي اتبعوها "عصى بصعيد مصر الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي، وتظاهر بالعصيان وجمع عليه جماعة من العربان، ووافقه الشريف حصن الدين بن ثعلب، والأمير ركن الدين الصيرفي، واعتمدوا نهب البلاد، وأكثرت العربان الفساد ووضع هؤلآ

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢.

(هؤلاء) أيديهم على الأموال، فأنفسد النظام، وانتكث الأبرام"[1]. كما زودنا بمعلومات مهمة عن كيفية رد دولة المماليك البحرية عليهم "... فاقتضى الحال إرسال الصاحب شرف الدين الفايزي الوزير لتدارك الخلل بالتدبير، وجرد معه إلى الصعيد من العسكر جماعة، وأمروا له بالطاعة..."[2]، ومع أن بيبرس المنصوري يتجاهل في هذه الثورة كيفية تعامل دولة المماليك البحرية مع القبائل العربية في صعيد مصر حين وصول الحملة التي تم تجريدها ضدهم، إلا أنه يركز فيها على كيفية تعاملها مع الشريف حصن الدين بن ثعلب ومصيره "... فتحيل (الوزير شرف الدين الفايزي) على الشريف حصن الدين، فأمسكوه وأحضروه إلى القلعة المحروسة، فاعتقل بها، ثم نقل إلى ثغر الإسكندرية، فاعتقل في جب تحت الأرض بجب الشريف"[3].

كما واجه دولة المماليك البحرية في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ثورتان للقبائل العربية كما يذكر بيبرس المنصوري هما:

٤. ثورة عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م أورد عنها معلومات مقتضبة، اقتصر فيها على ذكر كيفية تعامل الدولة المملوكية مع القبائل العربية الثائرة في الصعيد والسبب في تحركها ضدهم "جرد الأمير عزالدين أمير جاندار الى الصعيد لردع العربان، فأنهم كانوا قد طمعوا بتغير الممالك، ونافقوا وقتلوا عزالدين الحواش والي قوص، فحسم مادتهم و بدد شملهم"[4].

ثم يورد بيبرس المنصوري معلومات مهمة عن كيفية تفعيل السلطان الظاهر عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م دور إمرة عرب مصر مبرزاً لكيفية التعويل عليها في جمع الزكاة من القبائل العربية في برقة" [وعين السلطان الظاهر] سيف الدين عطاء الله بن عزاز

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦؛ المنصوري، التحفة، ص٣٧.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦؛ المنصوري، التحفة، ص٣٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦؛ المنصوري، التحفة، ص٣٧.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٥-٧٦؛ المنصوري، مختار، ص٢٢.

مقدماً على عرب برقة، وتقريره الزكاة عليهم، وإلزام عطاء الله باستخراجها منهم، وحملها إليه"[1]. كما أبرز بيبرس المنصوري رد فعل أمير القبائل العربية في برقة "بلبوش" عام٦٧١هـ/١٢٧٢م على الزكاة المفروضة عليهم "كان بلبوش لما قام عربان برقة بالزكاة، أبى إلا جماحاً فؤاده، ونفوراً قياده"[2]، ثم يبرز بيبرس المنصوري كيفية تعامل مقدم عربان برقة سيف الدين عطالله بن عزاز- المشار إليه آنفاً- مع ثورة بلبوش على السياسة المملوكية "... فتوجه إليه بنو عزاز عطا الله و مقدم، فقاتلوه وكسروه وأسروه، وأحضروه إلى القاهرة"[3].

أما دولة المماليك البحرية في عهد السلطان الأشرف خليل، فقد واجهت ثورة وحيدة عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م أوجز بيبرس المنصوري في كلامه عنها، حيث أشار للسياسة العدائية التي مارستها القبائل العربية في الوجه القبلي وكيفية اتخاذ السلطان الأشرف الاستعدادات لردعهم دون أن يوضح ما ترتب على تلك الاستعدادات من نتائج تجاه تلك القبائل العربية" وبلغ السلطان أن العربان بالوجه القبلي قد امتدت أيديهم إلى الفساد، وقطعوا الطرقات، وقتلوا بعض الوكلاء، وخرجوا عن الواجبات، فقصد [السلطان] الطلوع إلى الوجه المذكور... وأمر بتجهيز الجوارح، وتجريد من اختاره لصحبته من أمرائه الخواص وغيرهم"[4].

كما قدم بيبرس المنصوري معلومات مهمة عن ثورة القبائل العربية في برقة ضد الدولة المملوكية أبان عهد السلطان زين الدين كتبغا عام٦٩٥هـ/١٢٩٥م،حيث وضح السبب المباشر لتلك الثورة، فقال: "... أن العربان ببرقا قد عبثوا بالمسلمين، وباعوا منهم جماعة للفرنج،وأن منصور بن روق كان الباعث على بيعهم بسبب الغلاء الذي

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٢.

(٢) المنصوري، مختار، ص٤٩-٥٠؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٩.

(٣) المنصوري، مختار، ص٤٩-٥٠؛ المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٣٩.

(٤) المنصوري، مختار، ص٩٣.

عم تلك البلاد، وأحوج الآبا (الآباء) إلى بيع الأولاد..."[1]. كما وضح بيبرس المنصوري باعتباره شاهد عيان كيفية اتخاذ دولة المماليك البحرية الاستعدادات للقضاء على ثورتهم "... فوردت إليّ -أي لبيبرس المنصوري- مكاتبات العادل -السلطان زين الدين كتبغا- بالتوجه إلى برقا، ومقابلة هؤلاء إن كان ما نقل عنهم حقا، وجرد الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي وأصحابه وجماعة من الحلقة، فعزمنا على التوجه إلى الجهة الغربية، وللرحلة مزمعون..."[2]. كما ذكر بيبرس المنصوري السبب المباشر في عدم إتمام الحملة الموجهة ضد القبائل العربية في برقه، فقال: "... ورد البريد مخبراً بخلع زين الدين كتبغا من الدست واستقرار الأمير حسام الدين لاجين المنصوري في الأمر، ورسم لنا بالعود إلى القلعة، فعدنا في أوايل [أوائل] سنة ٦٩٦ هـ"[3].

أما دولة المماليك البحرية في عهد السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، فقد واجهت ثورتين للقبائل العربية المصرية هما:

١. ثورة عربان بلاد البحيرة عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وقد بيّن بيبرس المنصوري باعتباره أنه كان قائداً للحملة التي جردها السلطان تجاههم، أن عدد أمراء الطبلخانات الذين خرجوا معه كان عشرون أميراً، ذاكراً أسمائهم، وكيف أنهم تمكنوا من إخضاع تلك القبائل، وأخذ "مواشيهم من الجمال والأغنام"، وتقرير الصلح معهم، ثم العودة للقاهرة[4].

٢. ثورة العربان في الصعيد عام٧٠١هـ/١٣٠١م، أما بالنسبة لسياسة الدولة معهم، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه جرد نحوهم حملة عسكرية برئاسة الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير، وقد قام الاثنان في طريقهم إليهم بتقسيم تلك الحملة إلى ثلاث فرق تمكنت من الإحاطة بجميع جهات الصعيد "فبقي العربان

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣١٢.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٤٨-٣٤٩؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٠؛ المنصوري، مختار، ص١١٦.

جميعاً في حلقتهم، وحصلوا في قبضتهم، فما أفلت منهم أحد من ربقتهم، وأخذوهم بنواصيهم وأقدامهم...وأخذوا ما كان لهم من خيل وأبل وبقر وغنم... وكان الذي أخذ من موجودهم وسيق من خيولهم خمسة ألف فرس وعشرين ألف جمل، ومابة [مائة] ألف رأس غنم سوى الأبقار..."[1].

٣. حياة السلاطين

لم يكن بيبرس المنصوري أقل شأناً من المصادر الأخرى في تعقب الجانب الخاص من حياة السلاطين، فقد سلك في هذا الجانب اتجاهين:

أ. ما يخص حياة السلطان الظاهر:

جاء هذا الجانب في مقدمة اهتمامات بيبرس المنصوري، فقد ابتدأ بتتبع حياة الملك الظاهر قبل اعتلائه السلطنة عام٦٥٨هـ/١٢٥٩م، فبيّن أولاً أصله فقال: "وهو تركي الجنس"[2]، ثم بيّن كيفية نشأته "وقد كان [الملك الظاهر] في بدايته مملوكاً للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي أحد المماليك الصالحية"[3]. كما بيّن أنه عُرف بالبندقداري نسبةً للأمير المشار إليه[4].

ينتقل بيبرس المنصوري بعد ذلك لبيان كيفية انتقال الملك الظاهر إلى مماليك السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب وكيفية اكتسابه ثقة السلطان المذكور وتدرجه في المناصب الإدارية والسياسية في دولته "واتفق أن الملك نجم الدين أيوب أستاذه -أي أستاذ الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار- نقم عليه، فامسكه واعتقله، وارتجع مماليكه، فأضافهم إلى المماليك السلطانية، وصير [الملك الظاهر] مع

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٣-٣٦٤؛ المنصوري، التحفة، ص١٦٢؛ المنصوري، مختار، ص١١٩.

(٢) المنصوري، مختار، ص١٢.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٩؛ المنصوري، مختار، ص١٢.

(٤) المنصوري، مختار، ص١٢.

الجمدارية ثم انتقل إلى البحرية، فنقلته سعادته وسياسته ورأيه وشجاعته إلى أن صار بين خوشداشيته معظماً، وعند العساكر محترماً، وفي الحروب ومواقفها مقدماً حتى ارتقى ذروة الملك الشريف"[1].

تابع بيبرس المنصوري تعقب حياة الملك الظاهر بعد سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية، حيث بيّن كيفية انشقاقه مع بعض الأمراء البحرية عن الدولة المملوكية في عهد السلطان المعز أيبك والتجائه إلى الملك الناصر صاحب الشام، ثم إلى الملك المغيث صاحب الكرك، ثم الهرب منهما بمعية الأمير سيف الدين قلاوون المخدوم وتنقلهما في بلاد الشام من مكان لآخر فترة ثم نزولهما على الشيخ علي البكاء بزاويته في الخليل والتنبؤ لهما باعتلاء السلطنة في مصر[2]. كما تتبع كيفية تحسن علاقته مع السلطان المظفر قطز ومواجهتهم المغول في عين جالوت عام٦٥٨هـ/١٢٥٩م[3].

بعد ذلك أرخ بيبرس المنصوري لحياة الملك الظاهر بعد اعتلائه السلطنة في مصر عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وقد سلك في ذلك عدة اتجاهات:

١. التأريخ لرحلات الصيد التي كان يقوم بها:

دونّ بيبرس المنصوري في هذا الجانب ست رحلات قام بها السلطان للصيد، الأولى كانت تجاه ثغر الإسكندرية عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[4]، والثانية كانت تجاه أعراس والعباسة عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م[5]، أما الثالثة، فكانت بصحبة ليفون ا بن صاحب سيس تجاه بركة الجب عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[6]، والرابعة كانت بصحبة المنصور محمد صاحب حماة تجاه

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٥٩؛ المنصوري، مختار، ص١٢.

(٢) انظر سياسة الدولة المملوكية تجاه بقايا البيت الأيوبي.

(٣) انظر سياسة الدولة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٩٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٦.

العباسة عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م[1]، والخامسة كانت تجاه الإسكندرية عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وقد فصل بيبرس المنصوري في الحديث عنها: "وتوجه [السلطان] إلى الإسكندرية، وفي طريقة دخل البرية يتصيد، وفي صيده ضرب حلقاً على الكحيلات، فصار في كل حلقة منها ما يقارب خمسمائة غزال وأقل وأكثر، ومن النعام وبقر الوحش كثير، وكان كل من أحضر غزالاً أعطي بغلطاقاً، ومن ضرب نعاماً وبقراً أعطي فرساً، ففرق من الخيل والخلع كثيراً"[2]. أما الرحلة السادسة، فكانت بصحبة ولده الملك السعيد تجاه العباسة عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م "وتوجه إلى العباسة وولده الملك السعيد صحبته ورمى البندق وصرع ولده من طيور الواجب"[3].

٢. التأريخ لزيارات السلطان للأماكن المقدسة والصالحين وغيرهم:

أرّخ بيبرس المنصوري لزيارات السلطان للاماكن المقدسة وللصالحين، وقد دون في هذا الجانب خمس روايات، فقبل أن يلي الملك الظاهر السلطنة يذكر بيبرس المنصوري اعتماداً على ما رواه له السلطان قلاوون أن الملك الظاهر أيام تنقله في بلاد الشام زمن أمرته زار الشيخ علي البكا المقيم في زاويته في مدينة الخليل وكان بمعيته الأمير سيف الدين قلاوون، وقد أبرز بيبرس المنصوري أن هذا الشيخ تنبأ للملك الظاهر بتولي السلطنة[4].

وفي سنة٦٦١هـ/١٢٦٢م زار الملك الظاهر مدينة القدس، ورسم بعمارة المسجد الأقصى[5]. كما زار الملك الظاهر الحجاز في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، وقد ذكر بيبرس المنصوري بشيء من التفصيل أن السلطان ابتدأ زيارته بالنزول على المدينة المنورة،

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٤-٣٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٨١؛ المنصوري، مختار، ص٢٥.

وأحرم فيها، ثم توجه إلى مكة المكرمة، حيث قام عندما وصلها في ٥ ذي الحجة بغسل الكعبة بيده "وحمل الماء في القرب على كتفه، وغسل البيت، وجلس على باب الكعبة الشريفة، فأخذ بأيدي الناس، وسبل البيت الشريف للناس... وعاد [إلى بلاد الشام]"[١]. كذلك زار الملك الظاهر في السنة نفسها الجامع الظاهري الذي شيده في الحسينية، ورتب أوقافه، ونظر في أحواله، ثم عاد[٢].

وفي سنة٦٦٨هـ/١٢٦٩م زار الملك الظاهر بلاد الشام، ونزل على بعض المدن المقدسة لا سيما مدينتي القدس والخليل[٣].

٣. التأريخ لحالات زواج السلطان وأبنائه:

لم يول بيبرس المنصوري اهتماماً كبيراً في تدوين حالات زواج الملك الظاهر وأبنائه، فقد ذكر في هذا الجانب روايتين هما:

أ. **الرواية الأولى:** ذكر فيها أن السلطان تزوج أمراه من الشهرزورية[٤]، دون أن يفصل في معلوماته عن هذا الزواج.

ب. **الرواية الثانية:** تحدث فيها بيبرس المنصوري بشكل مفصل عن زواج الملك السعيد بن الملك الظاهر من ابنة الأمير سيف الدين قلاوون وهي غازية خاتون عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، وقد وثق بيبرس المنصوري نص عقد هذا الزواج وصداقه، وذكر أن كاتبه هو القاضي محيي الدين ابن عبدالظاهر[٥]. كما أبرز كيفية إقامة الملك الظاهر الاحتفالات بمناسبة دخول ولده الملك السعيد بغازية خاتون عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، فقال: "ولما عاد السلطان إلى الديار المصرية أهتم بعرض

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٢٠-١٢١؛ المنصوري، مختار، ص٤١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٤.

(٥) المصدر نفسه، ص١٤٩-١٥١.

الجيوش الإسلامية، ورتب لعب القبق، فلعب بالميدان الأسود تحت القلعة، ولعب العساكر، وقد لبسوا أجمل العدد، وتدرعوا أفخر الجواشن والخوذ، فكان له عليهم التمييز والإصابة والتبريز على تلك العصابة، واقتضت سعادته أنه لبس جوشناً وخوذة، وتقلد ترساً وألبس فرسه العدة الكاملة من البركسطون والوجه والرقبة، وساق تحت القبق، ورماه باليد اليسرى، فأصابه وأخطاه غيره باليمنى بغير لبس، ثم استمرت إصابته، وأنعم على كل من أصاب من الأمراء بفرس بسرجه ولجامه وزينته من المراوات الفضة، ومن أصاب المماليك والجند خلع عليه، وبقي هذا المهم ثلاثة أيام متوالية، والناس في أفراح متتالية، وخلع مثبوتة من خزاينه العالية... ثم افيضت التشاريف في اليوم الرابع على جميع أكابر الدولة من الأمرا [الأمراء] والمقدمين والوزراء والمتعممين والقضاة والكتّاب، ودخل الملك السعيد بيته"[١].

٤ ـ التأريخ لختان السلطان الظاهر لأبنائه:

لم يغفل بيبرس المنصوري في تسجيله للأحداث المتعلقة بحياة السلطان الظاهر، المعلومات الخاصة بختان أولاد السلطان، فقد بيّن أن السلطان الظاهر قام عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م بختان (بطهور) ابنه الملك السعيد ناصرالدين بركة مع أطفال العديد من الأمراء الكبار، وقد قام السلطان بمناسبة ذلك بعرض الجيوش وهم لابسي عُدد الحرب "وعبروا عشرةً عشرةً، وهو جالس على الصفة التي بجانب دار العدل تحت القلعة"[٢].

وفي سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م قام السلطان الظاهر بتطهير (ختان) ولده الملك نجم الدين خضر، وقد لعب الجيش بمناسبة ذلك القبق[٣].

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤١.

٥. التأريخ لحالات مرض السلطان الظاهر ووفاته:

ولم يتوان بيبرس المنصوري عن تدوين حالات مرض السلطان، فقد ذكر في هذا الجانب روايتين؛ الأولى وضح فيها أن السلطان الظاهر في أثناء عودته إلى مصر عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م وتحديداً عندما وصل زيزا تقنطر عن فرسه "فأقام هناك أياماً، وركب محفة في الطريق بسبب ألم ألمّ بوركه، ولما وصل إلى مسجد التبن لم يرد أن يدخل القاهرة على تلك الحال، فأقام أياماً إلى أن صح وركه، وزال وعكه، وطلع القلعة"[(١)].

أما الثانية، فقد بيّن فيها كيفية إصابة السلطان الظاهر في عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بوعكة صحية أثر السم الذي دس له في الكأس الذي يشرب فيه، وقد بقي السلطان يخفي مرضه عن الأطباء حتى توفي على أثر ذلك[(٢)]، وهذا الجانب فصل سابقاً.

ب. ما يخص حياة السلطان المنصور قلاوون:

ولم يتوان بيبرس المنصوري عن تدوين الأحداث الخاصة بحياة السلطان المنصور قلاوون وأبنائه، فقد تحدث بدايةً عن أصله ونسبه، فقال: "وأما جنسه فكان من خالصة القفجاق من القبيلة المعروفة ببرج أغلى"[(٣)]. ثم أن بيبرس المنصوري يبين أن السلطان المنصور قلاوون كان مملوكاً جلبه التجار من بلاده المذكورة التي تعرضت للغزو المغولي إلى مصر، فاشتراه شخص يسمى الأمير علاء الدين آقسنقر الكاملي بألف دينار، ونسبه لذلك عُرف قلاوون بالألفي[(٤)].

وبعد وفاة سيده المذكور في الدولة الصالحية ارتجع قلاوون وجماعة من خشداشيته إلى الممالك السلطانية (العلائية) سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[(٥)].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٠٥-١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦٠-١٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧٥.

ويبيّن بيبرس المنصوري أن قلاوون بعد ذلك كان من جملة البحرية الذين هربوا لبلاد الشام أيام الملك المعز أيبك، ثم عاد زمن المظفر قطز للوقوف معه أمام الغزو المغولي، وقد زار مع الأمير بيبرس البندقداري الشيخ علي البكا أثناء قبيل عودته لمصر، وتنبأ له الشيخ بتسلم السلطنة(١).

وقد أشاد بيبرس المنصوري في سيده السلطان المنصور قلاوون، وذكر صفاته بإيجاز، فقال: "وأما صفاته، فإنه كان وسيماً حليماً حسناً قسيماً تاماً نبيلاً بهياً جميلاً من أحسن الأتراك صورة، وأكثرهم هيبة، تعلوه جلالة وحشمة، وتقارنه مهابة وحرمة... وكان حليماً عفيفاً عن سفك الدماء مقتصداً في العقاب، كارهاً للأذى"(٢).

ويعقب بيبرس المنصوري بعد ذكره صفات قلاوون، فيقول: " لا جرم أن الله جازاه في ذريته وحاشيته بالحسنى، ورفع قدر عتقائه وألزامه، وبسط ذكر مماليكه وخدّامه وصيرهم ولاة للأمور، وساسة للجمهور، وقادة للعساكر، ونواب في الممالك"(٣).

تابع بيبرس المنصوري تدوينه للأخبار المتعلقة بحياة قلاوون، حيث ذكر بشيء من التفصيل أسماء المماليك الذين كانوا في خدمة قلاوون زمن إمرته، وكان لهم قدم الهجرة، وقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان منهم(٤).

لم يقف بيبرس المنصوري عند هذا، فقد ذكر السياسة التي اتبعها قلاوون مع مماليكه، مبرزاً أنه عنى بهم وقلدهم إمرة الطبلخاناه مع ذكر أسمائهم(٥). أضف إلى ذلك أن بيبرس المنصوري يذكر أن قلاوون قام أيام سلطنته بشراء العديد من المماليك، واهتم بهم، "وأفاض عليهم ملابس الإحسان، فأنهم انتهوا في آخر دولته إلى ما ينيف عن ستة الآف مملوك أرباب أقطاعات، وأصحاب جامكيات، وأمراء طبلخانات،

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٥-١٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٦-١٧٧.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧٧.

وذوو مراتب وطبقات"[١]. كما رفع قلاوون مكانة مماليكه، ورقاهم في المناصب لاسيما كبيرهم وصغيرهم، وشملهم بإنعامه[٢].

ومن الدلائل الأخرى التي يدونّها بيبرس المنصوري عن اهتمام قلاوون في مماليكه ذكره أن قلاوون قبيل وفاته أحضر ولده الأشرف خليل وأوصاه بالإحسان لمماليكه، وحفظهم، وابقائهم على إقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام[٣].

أما بقية المعلومات التي دونّها بيبرس المنصوري عن حياة قلاوون، فقد سلك فيها عدة اتجاهات هي:

١. التأريخ لحالات زواج السلطان وأبنائه:

دوّن بيبرس المنصوري في هذا الجانب ست حالات زواج لقلاوون وأبنائه، ففي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م تزوج قلاوون من ابنة سيف الدين كرمون التتري، وقد وصف بيبرس المنصوري كيفية احتفال السلطان الظاهر بذلك: "وقدم السلطان للأمير المخدوم [بمناسبة زواجه] تقدمة خيل، وتعابي قماش وعشرة مماليك من المماليك السلطانية... وقدم كل أمير من الأمراء ثلاثة أروس [رؤوس] خيلاً، وثلاثة بقج قماشاً"[٤].

أما الزواج الثاني، فقد ذكر بيبرس المنصوري أنه كان أيام سلطنة قلاوون سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وقد تزوج فيه من ابنة سكتاي بن قراجين[٥].

أما حالة الزواج الثالث، فقد كانت سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، وقد تزوج فيها قلاوون من ابنة الأمير شمس الدين سنقر التكريتي[٦].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٦٤.

وبالنسبة لزواج ابنائه، فقد سجل بيبرس المنصوري ثلاث حالات، الحالة الأولى عقد الملك الصالح علي بن قلاوون من ابنة الأمير سيف الدين نوكيه سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م "وحضر السلطان العقد ووكل الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ووكل عن الزوجة سيف الدين أيدمر استاذ الدار، وتقرر الصداق على خمسة آلاف دينار"[١].

أما الحالة الثانية، فهي زواج الملك الأشرف بن قلاوون من ابنة الأمير سيف الدين نوكيه سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م[٢]. كما تزوج مظفر الدين أمير موسى بن الملك الصالح علاء الدين علي بن الملك المنصور قلاوون سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م من ابنة الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة[٣].

٢. التأريخ لحالات الإنجاب.

سجل بيبرس المنصوري حالة واحدة، وهي ولادة الملك الناصر محمد سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م أيام فتح المرقب[٤].

٣. التأريخ لرحلات السلطان وأبنائه.

لم يسجل بيبرس المنصوري معلومات كثيرة عن هذا الجانب، فقد ذكر أشارتين الأولى خروج السلطان إلى الكرك سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م للصيد[٥]، والثانية خروج ولديه الصالح علي والأشرف إلى جهة العباسة للصيد سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م[٦].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣٦.

٤. التاريخ لوفاة السلطان قلاوون.

اقتضب بيبرس المنصوري في هذا الجانب، وذكر أن السلطان قلاوون توفي في طريقه لفتح عكا سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، بعد وعكة صحية أصابته[١].

رابعاً: سياسة الدولة المملوكية تجاه الخلافة العباسية بعد إحيائها عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م.

لم يترك بيبرس المنصوري موضوع السياسة المملوكية تجاه الخلافة العباسية بعد إحيائها عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م دون أن تأخذ جانباً من كتبه، فقد أورد معلومات مفصلة عن الخطوة الهامة التي اتخذها الملك الظاهر في أعقاب اعتلائه السلطنة عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، وأعني بذلك إحيائه الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فقد بدأ يؤرخ لهذه السياسة منذ وصول الأمام أبو العباس أحمد بن الأمام الظاهر بالله بن الأمام الناصر لدين الله للديار المصرية عام٦٥٩هـ/١٢٦٠م[٢] دون أن يولي عنايته بتتبع المراسلات التي كانت بين الإمام أبي العباس أحمد والسلطان الظاهر قبيل وصوله مصر من جهة، وكيفية تنقله في بلاد الشام حتى قدومه مصر من جهة أخرى كما فعل غيره من المؤرخين.

بعد وصول الأمام أبي العباس أحمد مصر ، يورد بيبرس المنصوري معلومات مهمة عن كيفية احتفاء السلطان الظاهر بالإمام أبي لعباس "وكان وصوله إلى الباب السلطاني في التاسع من رجب، وركب السلطان للقائه في موكب مشهود، ومحفل محفود، وأنزله في القلعة، وبالغ في إكرامه"[٣]. كما أضاف معلومات مهمة عن المراسيم التي تمت في أعقاب استقباله للتأكد من صحة نسبته للخلفاء العباسيين في العراق أو تقاليد المبايعة

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٠-٢٧١.

(٢) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٠؛ المنصوري، التحفة ص٤٧؛ المنصوري، مختار، ص١٥.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٠؛ المنصوري، مختار، ص١٥.

له بالخلافة "فأحضر [السلطان] الأمراء الأكابر ومقدمي العساكر والوزير وقاضي القضاة ونواب الحكم والفقهاء والعلماء والصلحاء وأكابر المشائخ وأعيان الصوفية، فاجتمع المحفل بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل المحروسة، وحضر الخليفة وتأدب السلطان معه في الجلوس بغير مرتبة ولا كرسي، وأمر بإحضار العربان الذين حضروا مع الخليفة من العراق، فحضروا، وحضر خادم من البغاددة فسئلوا عنه هل هو الإمام أحمد ابن الظاهر بن الناصر؟ فقالوا: انه هو، فشهدت جماعة الاستفاضة... عند قاضي القضاة تاج الدين عبدالوهاب، فأسجل على نفسه بالثبوت، فقام قاضي القضاة قائماً فأشهد على نفسه بثبوت النسبة، فسمى الإمام أحمد باسم أخيه وهو المستنصر بالله، وبايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسول الله"[1]. كذلك قدم معلومات عن الإجراءات التي أعقبت مبايعة الخليفة البيعة الخاصة، فذكر أن الخليفة قام فقلد السلطان البلاد الإسلامية وما يضاف إليها وما سيفتحه الله على يده من بلاد الكفار[2]، ناهيك عن أخذ البيعة للخليفة من العامة على اختلاف طبقاتهم، وكتابة السلطان إلى الولايات الإسلامية بأخذ البيعة للخليفة[3]، فضلاً عن إصدار السلطان أمراً بأن يخطب باسم الخليفة على المنابر وأن تنقش السّكة باسمه واسم الخليفة[4]، ثم أورد بيبرس المنصوري أن الخليفة" لما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب خطب...بالناس في جامع القلعة"[5].

يسلط بيبرس المنصوري أثر الإجراءات السابقة الضوء بشكل مفصل على التقاليد والعادات التي قام بها السلطان الظاهر كتمهيد لقراءة المرسوم الذي أصدره الخليفة بتقليده البلاد الإسلامية، فقد بيّن أن السلطان ركب يوم الاثنين الرابع من شعبان إلى خيمة ضربت بالبستان الكبير بظاهر القلعة، ولبس الأهبة العباسية وهي الجبة

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٠-٦١؛ المنصوري، التحفة، ص٤٧؛ المنصوري، مختار، ص١٥-١٦.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) المصادر نفسها.

(٥) المصادر نفسها.

السوداء، والعمامة البنفسجية والطوق، وتقلد سيف[1]، وحملت خلفه عدة سيوف، ولواءان وسهمان كبيران وترس، وغير ذلك مما جرت به العادة، وقدم له فرس أشهب برقبة سوداء وكنبوش أسود[2]، ثم جلس مجلساً عاماً، وخلع على الأمراء والوزير وقاضي القضاة وصاحب ديوان الإنشاء فخرالدين بن لقمان الذي أنشأ التقليد، وطلع على المنبر فقراءه على الناس كافة[3].

أما عن المرسوم الذي أصدره الخليفة المستنصر بالله بحق السلطان الظاهر، فقد احتفظ بيبرس المنصوري بنسخه منه أبرز من خلالها السياسة المستقبلية التي رسمها الخليفة للسلطان الظاهر ودولته، وفيما يلي بيان ذلك:

١. ابتدأ الخليفة في مرسومه بالحمد والثناء على الله، ليتدرج بعدها لذكر فضل السلطان الظاهر في إحياء الخلافة العباسية "وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان"[4].

٢. ينتقل الخليفة بعد ذلك لمنح السلطان الظاهر الصبغة الشرعية بتقليده البلاد الإسلامية" وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتيه، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً"[5].

٣. ثم يرسم الخليفة السياسة الداخلية التي يجب على السلطان السير عليها لتوطيد أركان دولته "وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً، واجعل عليه في تصرفاته رقيباً وسل عن أحواله..."[6].

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦١؛ المنصوري، مختار، ص١٦-١٧.

(٢) المنصوري، مختار، ص١٦-١٧.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦؛ المنصوري، مختار، ص١٧.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٦٣.

٤. أما بالنسبة للسياسة الخارجية، فقد حرض الخليفة السلطان على متابعة حركة الجهاد، طالباً منه إعادة الخلافة العباسية لمقرها في العراق" وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول"[١].

بعد ذلك يفصل بيبرس المنصوري في الحديث عن الحملة العسكرية التي أعدها السلطان الظاهر بقيادة الخليفة لاستعادة العراق من المغول، مورداً الاستعدادات التي تم تجهيزها للخليفة، وكيفية مسيرها إلى بلاد الشام، فالعراق واصطدامها مع المغول، ومقتل الخليفة المستنصر[٢].

يتعقب بيبرس المنصوري بعد فشل السياسة المملوكية في إعادة الخلافة إلى العراق أثر استشهاد الخليفة المستنصر بالله كيفية قيام السلطان الظاهر باختيار خليفة جديد عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، فقد وضح في البداية اسم الخليفة وسلسلة نسبه حتى العباس بن عبد المطلب بن هاشم[٣]، لينتقل بعدها لإبراز المراسيم التي تمت للتأكد من صحة نسبه للعباسيين أو تقاليد مبايعته بالخلافة، وقد كانت المراسيم في خطواتها شبيه بالمراسيم التي تم فيها اختيار المستنصر بالله خليفة[٤]. كذلك يوضح كيفية قيام الخليفة بعد أطلاق لقب الحاكم بأمر الله عليه بتقليد السلطان الظاهر البلاد الإسلامية كما فعل سلفه[٥].

بعد ذلك يسلط بيبرس المنصوري الضوء على الخطب التي ألقاها الخليفة الحاكم بأمر الله أثر مبايعته بالخلافة، فقد بيّن في الخطبة الأولى كيفية مطالبته بإذكاء روح

---

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٦٤.

(٢) انظر تفصيل ذلك في سياسة الدولة المملوكية تجاه المغول الإيلخانيين.

(٣) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٨.

(٤) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٨؛ المنصوري، التحفة، ص٥١.

(٥) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٨؛ المنصوري، التحفة، ص٥١.

الجهاد[1]، أما الخطبة الثانية، فقد طالب بها بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وفي نهايتها ألبس الخليفة السلطان الفتوة[2].

وإذا كان بيبرس المنصوري قد وضح أن السياسة المملوكية تجاه الخلافة العباسية في مصر قد كانت قائمة على الصداقة والود في عهد السلطان الظاهر، فإنه يذكر أن تلك السياسة تغيرت تجاهها بعد تقلد أعقابه السلطنة، فقد ذكر أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد سجن في برج القلعة إلى أن أعتلى المنصور حسام الدين لاجين السلطنة عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، حيث أطلق سراحه، "وأنزله بمناظر الكبش، وأجرى عليه أرزاقاً وراتباً مدراراً، ووصله بصلات جزيلة له ولأولاده ونسايهم، وصار يركب معه في الموكب، ويخطب في الجامع، والتمس الحجّ إلى بيت الله الحرام، فبلغه هذا المرام، وجهزه بالمال والزاد والموكب"[3].

توفي الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، حيث بيّن بيبرس المنصوري مراسيم دفنه "فحمل إلى مشهد السيدة نفيسة، وصلى عليه الشيخ كريم الدين عبد الكريم الآملي شيخ الصوفية، ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، ومشى الآمرا [الأمراء] والكبراء والقضاة والحكام والسادة والأعيان في جنازته إكراماً لمحله، وقياماً بلازم حقه"[4].

خلف الخليفة الحاكم بأمر الله في الخلافة ولده أبي الربيع سليمان المستكفي بالله[5] الذي كان موجوداً في الأيام الظاهرية والمنصورية في سجن برج القلعة مع والدة[6]، وقد رسم بيبرس المنصوري بشيء من الاقتضاب السياسة التي اتبعها السلطان الناصر

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٧٨-٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣١٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٢.

(٥) المنصوري، التحفة، ص٣٦٢؛ المنصوري، مختار، ص١١٨.

(٦) المنصوري، مختار، ص١١٨.

محمد تجاهه "وخطب له على المنابر، واستمر في صحبة السلطان والركوب معه كأنهما أخوان واللعب بالصوالجة في الميدان، والتفرج معه في الصيد كل أوان وأجزل له الإكرام والإحسان"[1].

(١) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٦٤.

الخاتمة

تحرت هذه الدراسة الكشف عن دور بيبرس المنصوري في التأريخ لدولة المماليك البحرية كما أشير إليه في المقدمة، وقد خلصت إلى النتائج التالية:

١. عاصر بيبرس المنصوري العقد الأول من عهد دولة المماليك البحرية، وشهد خروج الحملة العسكرية التي أعدها السلطان الظاهر برئاسة الخليفة أبي القاسم أحمد عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م لاستنقاذ العراق من المغول، وإعادة الخلافة العباسية إلى مقرها بعد سقوطها عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

٢. أمضى بيبرس المنصوري سنيه الأولى برفقة سيده الأمير سيف الدين المخدوم قلاوون، وقد تمكن نتيجة لذلك من المشاركة معه في الكثير من الحملات العسكرية الموجهه نحو الصليبين والأرمن والمغول وسلاجقة الروم.

٣. أما الجزء الآخر من حياته -الذي يبدأ بتولي سيده الأمير سيف الدين قلاوون السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م- فقد أمضاه في التنقل في مناصب الدولة المملوكية إلى أن بلغ ذروتها عند توليه نيابة السلطنة بمصر، أضف إلى ذلك أنه شارك خلال هذا الجزء مع دولة المماليك البحرية في الكثير من حروبها مع المغول والصليبين والأرمن، فضلاً عن دوره الفعال في حل الكثير من القضايا السياسية والاجتماعية التي كانت تواجه دولة المماليك البحرية.

٤. اعتمد بيبرس المنصوري في تدوين مادته التاريخية منهجاً تاريخياً سليماً، يقوم على الإحاطة بمصادرها المتعددة، والتحقق من رواياتها وتقييمها قبل تسجيلها، إضافة إلى أنه كان شاهد عيان في جوانب كبيرة منها.

٥. كما اعتمد بيبرس المنصوري في تأليف مادته التاريخية أسلوباً أدبياً رائعاً، استخدم فيه المحسنات البديعية خاصة السجع الذي لم يخل بالمعنى.

٦. ركز بيبرس المنصوري في مادته التاريخية على التأريخ لعصره، ولمنطقة بلاد الشام ومصر أبان الحكم المملوكي بشكل خاص.

٧. جاءت المادة التي دونها بيبرس المنصوري عن السياسة المملوكية الخارجية في مقدمة اهتماماته، ثم تلاها السياسة المملوكية الداخلية.



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي(ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٢م.

ابن أيبك الدواداري، عبدالله (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ط)، ج٩، القاهرة، ١٩٦٠م.

البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، (د.ط)، بيروت، ١٩٩٠م.

البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٨م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، مصر، ١٩٨٥م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستاتسوماس، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).

ابن حبيب، حسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت٧٧٩هـ١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، (د.ط)، (د.م)، ١٩٨٢م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني. ط٢، مصر، ١٩٦٦م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، (د.ط)، (د.م)، ١٩٨٢م.

الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، (د.ط)، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م.

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد العلائي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.

الداري، تقي الدين بن عبدالقادر التميمي الغزي (ت١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي، ط١، الرياض١٩٨٣م.

الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت١٩٨٥م.

الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد سكتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، عني بطبعه ونشره عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، مطابع قطر الوطنية، (د.ط)، ج٢، قطر١٩٨٨م.

ابن سباط، حمزه بن أحمد بن عمر الغزبي (ت٩٢٦هـ/١٥١٩م)، صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، عنى به وحققه عمر عبدالسلام تدمري، دار جروس برس، ط١، طرابلس (لبنان) ١٩٩٣م.

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عني بنشره القدسي، مطبعة الترقي، (د.ط)، دمشق١٣٤٩هـ.

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، (د.م)، (د.ت).

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة١٩٦٧م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عمشه ومحمد موعد ومحمود سالم محمد، دار الفكر، ط١، دمشق١٩٩٨م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، اعتناء جاكلين سوبله وعلي عمارة، ط٢ ، (د.م) ١٩٩١م.

ابن عبدالظاهر، محي الدين عبدالله (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط١، الرياض١٩٧٦م.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، بيروت، (د.ت).

العيني، بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٢، (د.ط)، القاهرة ١٩٨٨م.

ابن الغزي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت١١٦٧هـ/١٧٥٣م)، ديوان الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، ط١، بيروت١٩٩٠م.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه محمود أيوب، ط١، بيروت١٩٩٧م.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، تقويم البلدان، دار صادر، (د.ط)، بيروت(د.ت).

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت٦٨٢هـ/١٢٨٢م)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق ونجلا عز الدين، المطبعة الأميركانية، (د.ط)، بيروت، ١٩٣٩م.

ابن فهد، عمر بن محمد. (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)،إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار المدني، (د.ط)، جدة، (د.ت).

القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي،

(د.ط)، بيروت، ١٩٩٣م.

مجهول (منسوب لابن الفوطي)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربية، (د.ط)، بغداد، ١٩٣٣م.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، بيروت، ١٩٨٨م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة، ١٩٧٠م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، ط١، بيروت، ١٩٩١م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ١٩٩٨م.

المنصوري، بيبرس الدوادار (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.م)، (د.ت).

المنصوري، بيبرس الدوادار (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشارد، مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.

المنصوري، بيبرس الدوادار (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، مختار الأخبار (الجزء الخاص بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)، حققه

وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط)، (د.م)، (د.ت).

ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م)،لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، (د.ط)، بيروت، (د.ت).

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م.

ابن الوردي، زين الدين عمر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، منشورات المطبعة الحيدرية، (د.ط)، النجف، ١٩٦٩م.

اليونيني، موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان، صحح بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٦١م.

ثانياً: المراجع

إقبال، عباس، تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبدالوهاب علّوب، المجمع الثقافي، (د.ط)، أبو ظبي، ٢٠٠٠م.

بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى اللغة العربية محمود فهمي حجازي بالتعاون مع حسن محمود إسماعيل، مطابع الهيئة العامة للكتاب، (د.ط)، مصر، ١٩٩٥م.

البقلي، محمد قنديلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة، (د.ط)، (د.م)، ١٩٨٣م.

حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).

حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة، ١٩٤٩م.

دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، ط١، دمشق١٩٩٠م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم، ط٦، ج٢، بيروت١٩٨٤م.

زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، بيروت١٩٩٢م.

سرور، محمد جمال الدين، دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).

سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، (د.ت).

شبارو، عصام محمد، السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت١٩٩٤م.

الصياد، فؤاد عبدالمعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت١٩٨٠م.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

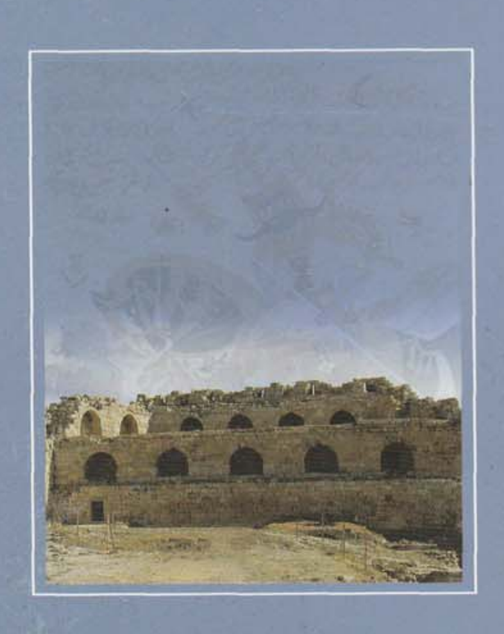




الأمير بيبرس المنصوري

نائب السلطنة في الكرك ومصر
ودورة في التأريخ لدولة المماليك البحرية

وائل عبد الحق الضمور



Designed By Yousef SARARA